محمد عبد المنعم خفاجي

تفسير القرآن الحكيم

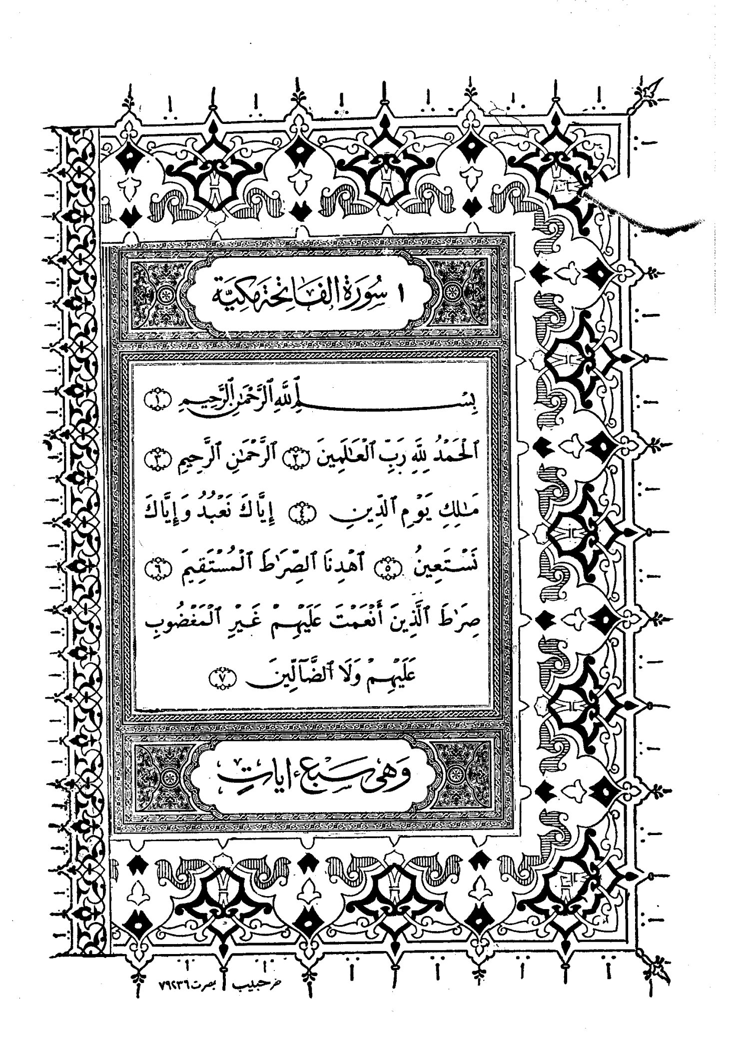
أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

١١
(١٣)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ ت : ٥٠٨٥٢



١ سُورَةُ الفَاتِحَةِ مَكِّيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

وهي سبع آيات ٧

خ حبيب | بصرت ٧٩٢٣٦

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين . . وبعد :

فهذا هو الجزء الثالث عشر ، من تفسيرى لكتاب الله ، الذى ضمنته شرحا جديداً للقرآن ، وأسلوبا طريفا فى فهمه وتذوقه ، وإدراك مراميه ، وتمثل معانيه ، والكشف عن حقائقه وأصوله .

والقارىء يدرك مدى ما يأخذه كتابة هذا التفسير ونشره : من جهد مبذول ، وعمل موصول ؛ وهو وحده حرى بأن يقف على مميزات هذا التفسير ، الذى يجعل القرآن الكريم وكل سورة منه وحدة واحدة ، متصلة الحلقات ، مباركة الهداية .

وسوف يصدر هذا التفسير بعون الله ورعايته فى ثلاثين جزءاً ، أرجو أن تظهر فى أمد قريب .

ومن الله التوفيق ، وأسأله العون والسداد ، إنه أكرم مأمول ، وأفضل مسئول ، وما توفيقى إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

ميزات هذا التفسير

لهذا التفسير ميزات كثيرة ، يكفى هنا أن أشير إلى بعضها :

فأولى ميزاته أنه يربط الفكرة بالفكرة ، والمعنى بالمعنى ، والغرض بالغرض ، والموضوع بالموضوع ، دون تجزىء لمعانى القرآن الكريم ، أو تفكيك لوحدته . . . ونحن لا نتناول فيه تفسير كتاب الله آية فآية ، وإنما نتناوله موضوعا فموضوعا ، مع تحديد لأغراض القرآن الكريم ، وإظهار لوحدة السور القرآنية ، ولأفكارها ومعانيها المتصلة المتلاحمة . .

وثانى ميزاته أن أسلوبه عصرى يستطيع كل إنسان من كل طبقة أن يفهمه ، وأن يلم بمعانى القرآن الكريم ، دون غموض أو تعقيد أو التواء ؛ ومن ثم فقد حذفنا من هذا التفسير كل الاصطلاحات ، ليكون أقرب إلى الفهم ، وأسهل على القارىء . . .

وثالث ميزاته أنه كتب ليكون مجاريا للثقافات الحديثة ، ومتمشيا مع مناهجها ، دون بعد عنها ، أو مخاصمة لها ، ومن ثم فقد عرضنا لكثير من الأفكار التاريخية والاجتماعية والفكرية والروحية ، أثناء عرضنا لهذا التفسير ؛ نشرح بها كتاب الله ، ونؤيد بها معجزته الجليلة الباهرة . . .

ورابع ميزاته أنه موسوعة إسلامية كبرى تحتوى على كثير من الثقافات الإسلامية القديمة والحديثة ، وتحتوى على شرح جديد لكتاب الله ، وتنتظم كثيرا من وجوه الدفاع عن دين الله وكتابه الحكيم .

وخامس ميزاته أنه كتب وفق منهج علمى مرسوم ، يبدو فى أجزاء هذا التفسير واضحا جليا ، ويستطيع القارىء أن يتبينه بسهولة ، كما يستطيع أن يكشف عن أصول هذا المنهج الذى سرنا عليه دون عناء أو صعوبة .

وسادس ميزاته عرضه لجميع الآراء والمذاهب والأفكار ومناقشتها والموازنة بينها ، فى كل موضوع ، وكل مناسبة .

وسابع ميزاته تحقيقه للمعجزات الإلهية التى ظهرت على أيدى الرسل والنبيين تحقيقا علميا واضحا قريبا إلى العقل والمنطق ، وإلى الذوق والقلب أيضا .

وثامن ميزات هذا التفسير ما احتوى عليه من دراسات لسور القرآن الكريم ، وبيان لمراميها ، وتحديد لأفكارها ومعانيها وموضوعاتها . . إلى ما احتوى عليه من تبيين للأصول العامة ، التى اشتمل عليها كل ربع من سور القرآن الحكيم . .

وتاسع ميزاته العناية بالتحقيق التاريخى وبالنقد العلمى - فى هذا التفسير - عناية كبيرة . .

وعاشر ميزاته ما اشتمل عليه من دراسات جديدة عن القرآن الكريم ومعجزته الخالدة ، مما صدر به الجزء الأول من تفسيرنا ومما جاء فى أثناء باقى أجزائه .

والحادى عشر من ميزات هذا التفسير ، إلمامه بكل ما كتب المفسرون القدامى والمعاصرون ، وبكل مادونوه فى تفاسيرهم . .

والثانى عشر من ميزات هذا التفسير ، هو ما انفردنا به نحن انفرادا واضحا من تقسيم جديد لآيات القرآن الكريم ، بحسب المعانى والأفكار والموضوعات والأغراض التى اشتملت عليها . .

إلى غير ذلك من ميزات هذا التفسير ، مما لم نذكره ، ومما ندعه إلى رأى القارىء المنصف الكريم .

(١٣)

ســـورة الرعـــد

تمهيـــد

سورة الرعد مدنية ، وهى ٤٣ آية ، وقد نزلت بعد سورة محمد .. وسورة محمد نزلت بعد الحديد ، ونزلت الحديد بعد سورة الزلزلة ، ونزلت الزلزلة بعد النساء ؛ وسورة النساء نزلت فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك . . فتكون سورة الرعد قد نزلت بعد ذلك التاريخ بقليل . . وعلى ذلك فتكون السورة قد نزلت بالمدينة ، وهذا على ما رجحه العلماء .

وقيل ، وهو ما أرجحه : إنهـا نزلت بمكة ، لأنها تجرى مجرى السور التى نزلت بها . . وقال الأصم : هى مدنية بالإجماع ، فلم يعتد برأى من قال إنها مكية . . ولا ضير فى أن تجرى بعض السور المدنية فى أغراضها مجرى السور المكية . . وقد سميت السورة باسم عجيب غريب هو الرعد ، لقوله تعالى ، « ويسبح الرعد بحمده » . .

والذين يذهبون إلى أنها مكية يقولون : إلا آية واحدة من آياتها ، هى : « ويقول الذين كفروا لست مرسلا » .

والسورة تبتدىء بتمجيد القرآن الكريم والتنويه به ، وبيان قدرة الله الذى أنزله ، شأن السور التى بدأت بتعظيم القرآن ومعجزته الكبرى الخالدة . . ومطلع السورة كذلك هو من فواتح السور التى تحدثنا فيما سبق عن معناها ومغزاها ، وأشهر الآراء فيها ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة الرعد

١ – الٓمٓرٰ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

٢ – ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ .

٣ – وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

٤ – وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ليست هذه الآيات الأربع ربعاً على الحقيقة ، إنما هى تكملة للربع السابق فى آخر سورة يوسف عليه السلام « رب قد آتيتنى من الملك » ، وهذه الآيات الأربع فيها تعظيم لأمر القرآن الكريم ، وتأكيد لصحته ، وبيان لأن الله العلى العظيم قادر على أن ينزله ، وشرح لمظاهر قدرة الله فى السماء والأرض ..

يقول الله تعالى فى هذه الآيات الأربع الكريمة : « المر » ، وهذا من مطالع سور القرآن الكريم ؛ وقد تحدثنا عنها وعن الوجوه فيها ، وعن رأينا الذى نذهب إليه بإفاضة . . ولا بأس أن نذكر بعض آراء العلماء فيها ، قال ابن عباس : « المر » معناها أنا الله أعلم وأرى ، وقال عطاء : معناها أنا الله الملك الرحمن . « تلك » أى هذه الآيات « آيات الكتاب » أى القرآن وقيل : المراد بالكتاب السورة الكاملة ؛ ووصفت بالكمال ، المستفاد من تعريف الكتاب بأل ، لأن خبر المبتدأ إذا عرف بلام الجنس أفاد المبالغة . « والذى أنزل إليك من ربك » أى القرآن هو « الحق » أى الموضوع كل شيء منه فى موضعه على ما تدعو إليه الحكمة ، الواضح الذى لا يتخلف شيء منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره . . « ولكن أكثر الناس » أى مشركى مكة « لا يؤمنون » لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه ، قال مقاتل : نزلت فى مشركى مكة حين قالوا : إن محمداً يقول القرآن من تلقاء نفسه ، فرد الله تعالى عليهم بذلك ، ولما ذكر تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد بأمور :

أحدها قوله تعالى « الله الذى رفع السموات بغير عمد » جمع عمود أو عماد « ترونها » أى وأنتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها يسندها ، ولا من فوقها علاقة تمسكها ، فالعمد منفية بالكلية ، فنى ذلك دلالة عظيمة على وحدانيته تعالى ، فهذا برهان باهر على وجود الإله القادر القاهر ، وقيل : الضمير راجع إلى العمد أى أن لها عمداً ولكن لا ترونها أنتم . وهذه العمد مثل قانون الجاذبية .

وثانيها قوله تعالى « ثم استوى على العرش » أى بالحفظ والتدبير والقهر والقدرة ، أى ما فوق العرش وما تحت الثرى فى حفظه وتدبيره وفى الاحتياج إليه سواء .

وثالثها قوله تعالى « وسخر » أى ذلل « الشمس والقمر » لمنافع خلقه يجريان على ما يريد « كل » منهما « يجرى » فى فلكه « لأجل مسمى » أى إلى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها ، وعند مجيء ذلك الوقت تنقطع هذه

الحركات كما وصف الله تعالى فى قوله « إذا الشمس كورت » و« إذا النجوم انكدرت » ، و « إذا السماء انشقت » ، و « إذا السماء انفطرت » .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال « يدبر الأمر » أى يقضى أمر ملكه من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار ؛ ويدخل فيه إنزال الوحى وبعثة الرسل وتكليف العباد ، وفى ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة ؛ « يفصل » أى يبين « الآيات » التى برزت إلى الوجود الدالة على وحدانيته وكمال حكمته .. ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل وإظهار العظمة هو محط الحكمة علل ذلك بقوله « لعلكم » يا أهل مكة « بلقاء ربكم » أى بالبعث « توقنون » فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها على عظمها وكثرتها قادر على إيجاد الإنسان وإحيائه بعد موته ، يروى أن شخصا قال لعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : كيف يحاسب الله تعالى الخلق دفعة واحدة ؟ فقال : كما يرزقهم الآن دفعة واحدة ، وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة ..

ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته من رفع السماء بغير عمد وأحوال الشمس والقمر ، أردفها بذكر الدلائل الأرضية بقوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض » أى بسطها طولا وعرضا .. وهذا هو الدليل الأول من دلائل خلق الله فى الأرض على قدرة الله .. الثانى منها قوله تعالى « وجعل » أى وخلق « فيها » أى الأرض « رواسى » أى جبالا ثوابت واحدها راسية أى ثابتة ، وهذا لا بد وأن يكون بخلق القادر الحكيم .. الثالث منها قوله تعالى : « وأنهاراً » أى وجعل فى الأرض أنهارا جارية لمنافع الخلق ، والنهر : المجرى الواسع من مجارى الماء .. والرابع منها قوله تعالى « ومن كل الثمرات » وهو متعلق بقوله تعالى « جعل فيها » أى الأرض « زوجين اثنين » أى وجعل فيها من جميع أنواع الثمار صنفين اثنين ، والاختلاف إما من

حيث الطعم كالحلو والحامض ، أو اللون كالأسود والأبيض ، أو الحجم كالصغير والكبير ، أو الطبيعة كالحار والبارد . فإن قيل : الزوجان لابد وأن يكونا اثنين فما الفائدة فى «اثنين»؟ أجيب بأنه قيل: أول ماخلق الله العالم وخلق فيه الأشجار، خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط ، فلو قال : خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص ، فلما قال «اثنين» علم أنه تعالى خلق أول ماخلق من كل زوجين اثنين بالشخص، آدم وحواء ، فكذا القول فى جميع الأشجار والزروع... الخامس منها قوله تعالى «يغشى» أى يغطى «الليل» بظلمته «النهار» أى والنهار الليل بضوئه على ما قدره الله تعالى فى السير من الزيادة والنقصان ، وذلك من الحكم النافعة فى الدين والدنيا ، الظاهرة لكل ذى عقل أنها تدبيره بفعله واختياره وقهره واقتداره .

ولما ذكر تعالى هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة جمعها بالتفكر فقال تعالى : «إن فى ذلك» أى الذى وقع التحدث عنه من الآيات «لآيات» أى دلالات «لقوم يتفكرون» أى يجتهدون فى التفكر ، فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب . والتفكر والتدبر : تصرف القلب فى طلب معانى الأشياء .

ثم إنه تعالى ذكر دليلا ظاهراً جداً بقوله تعالى : «وفى الأرض» أى التى أنتم سكانها تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك «قطع» أى بقاع مختلفة «متجاورات» أى متقاربات بعضها من بعض ، واحدة طيبة وأخرى سبخة لا تنبت ، وأخرى صالحة للزرع لا للشجر ، وأخرى بالعكس ، وأخرى قليلة الريع ، وأخرى كثيرته ، وهو من دلائل قدرته تعالى «وجنات» أى بساتين فيها أنواع الأشجار من نخيل وأعناب وغير ذلك ، كما قال تعالى : «من أعناب وزرع ونخيل صنوان» جمع صنو وهى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمه العباس : عم الرجل صنو أبيه ، يعنى أنهما من أصل واحد «وغير صنوان» أى متفرقات مختلفة الأصول ، وسمى البستان جنة لأنه يستر بأشجاره الأرض.. «تسقى» قراءة ابن

عامر وعاصم بالياء على التذكير — أى المذكور ، وقراءة الباقين بالتاء على التأنيث أى الجنات وما فيها « بماء واحد » فتخرج أغصانها وثمراتها فى وقت معلوم لا يتأخر عنه ولا يتقدم « ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » أى فى الطعم ما بين حلو وحامض وغير ذلك ، وفى الشكل والرائحة والمنفعة وغير ذلك ، وذلك مما يدل على القادر الحكيم فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لايكون إلا بتخصيص قادر مختار ، قال مجاهد : وذلك كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد ، وقال الحسن : هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بنى آدم فتخرج هذه زهرتها وشجرها ونباتها ، وتخرج هذه سبخها وملحها وخبثها وكل يسقى بماء واحد ، وكذلك الناس خلقوا من آدم ، فينزل عليهم من السماء الكتب والرسالات ، فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع ، وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع ، وقال الحسن : والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان ، قال تعالى « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خسارا » . « إن فى ذلك » أى الأمر العظيم الذى ذكرناه «لآيات» أى دلالات « لقوم يتفكرون » أى يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر فى الآيات الدالة على معرفة المبدأ والمعاد .

* * *

وهذه الآيات لها شأن عجيب ، فى الاستدلال على عظمة الله وقدرته وجلاله وألوهيته ، ليثبت من وراء ذلك أن الله قادر على أن ينزل القرآن على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وليثبت كذلك أن القرآن حق ، وأن رسالة محمد صدق ، وأن البشر جميعا مطالبون بالإيمان بهذه الرسالة . .

وفى الآية الأولى من هذه الآيات كما رأينا تعظيم لشأن القرآن الكريم ، وبيان لكونه حقاً وصدقاً ، وذكر لشرك المشركين وعدم إيمانهم . . . وفى الثانية بيان لعظمة الله وقدرته . الله رافع السموات بغير عمد ، ومالك الملك ورب العرش ، ومسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى . . . الله

مدبر الأمر كله . . والذى يفصل الآيات ليهتدى بها المشركون ، ويؤمن بها الجاحدون ، ويتعظ بها الجاهلون .

ففى الآية الثانية ذكر الله عز وجل الدلائل فى العالم العلوى فى قوله عز من قائل : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » وقد انطوت هذه الآية على ما انطوت عليه من الدلائل الساطعة والبراهين القاطعة ، التى تملأ النفوس يقينا ، والقلوب إيمانا ، بعظم قدرة موجدها ، وباهر حكمة مبدعها ، وأنه على أن يعيد ما بدأ أقدر ، وعلى أن يتصرف فيكم بالجزاء على عملكم أجدر ، كما نشاهد ذلك فى ختمها بقوله تعالى : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . فهى تغرس فى النفس اليقين بعظيم قدرته فلا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وجليل حكمته فلا يترك الأمر فوضى بينهم : يأكل قويهم ضعيفهم ، ويخرج العبد على الحدود المحدودة له بدون أن يلقى على ذلك جزاءه .

أما الآية الثالثة ، وهى قوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض » ، فهى لبيان الدلائل التى اشتمل عليها العالم السفلى ، أى عالمنا هذا الأرضى : ينبهنا على ما حوى من آثار القدرة الباهرة مما عسى أن نمر عليه غافلين فلا نتفكر فيه ، لطول مشاهدتنا له وتكرر وقوع الأنظار عليه . وقد جرت العادة بأن تعنى النفوس بما يفاجئها فتتأمل فيه أكثر من تأملها لما كثرت ملابستها له . يشهد بذلك ما تراه من هلع النفوس وشدة تيقظها عند حصول الحوادث النادرة كالخسوف والكسوف ولو جزئيين ، وغفلتها عما هو أعظم منهما أثرا وأكبر مظهرا مما يحصل دائما متكررا كسلطان الليل والنهار ، وما ذاك إلا لأن كثرة التكرار تهون من أمر التيقظ والانتباه ، ولا كذلك مفاجأة الأمر النادر الوقوع . والحكمة فى تقديم الدلائل العلوية أنها أول ما تتجه إليها النفوس بالتأمل غالبا ، بما يسطع من ضوئها ، وما يتجلى من سناها وسنائها ، فإن مظاهر العظمة متجلية فيها أيما تجل ، والاعتراف بالقدرة لمبدعها لا تتعاصى عنه نفس مهما ملكها العناد والمكابرة .

والمح إن شئت قوله تعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء » ؟ وختمها بقوله عز وجل : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » لأن إنكارهم للبعث أو ارتيابهم فيه كان مبنيا على استصعاب إعادة ما فنى وجمع ما بعثر وتفرق ، فكأنه يقول لهم : أى الأمرين أهون : الإيجاد من بعد العدم ، أم الإعادة بعد سبق الإيجاد ؟ وأى المخلوقين أشد استنادا إلى عظيم القدرة « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها » ؟ ثم إن كل هذا باعتبار ما يبدو لعقل العباد ، وإلا فالكل بالقياس إلى قدرته جل شأنه فى السهولة واليسر على حد سواء ، فلا يتعاصى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ورفع السموات معناه أوجدها مرفوعة ، لا أنها كانت مخفوضة ورفعها ؛ وكذلك القول فى قوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض » معناه أوجدها ممدودة مبسوطة متسعة الأكناف مترامية الأطراف . وهذا فى باب الامتنان يرشد إلى ما فيها من سعة وبسط ، وذلك هو ما يخص المنتفع فى انتفاعه . وقد دعا الله سبحانه وتعالى العقلاء إلى البحث والتفكير فى ملكوت السموات والأرض ، وجعل لهم من إيتاء المنافع جاذبا ، ومن شهوات العقول سائقا يستحثهم على الدأب فى التفكير حتى يصلوا إلى ما تسعه عقولهم من أسرار هذا الكون وخفاياه ، سواء فى ذلك الأرضية والسماوية ، وسواء فى ذلك ما يحدث بالتجارب العملية ، وما هو ثابت لا يتغير من أشكال أرضية أو أوضاع فلكية ..وقوله تعالى: «وهو الذى مد الأرض» أى وسع أرجاءها ، وسلك لكم فيها سبلا ، وبث لكم فيها منافع ، وكل ذلك دال على عظمة مبدعها الحكيم ، جل شأنه ، وتعالى جده ، ولا إله غيره . وهذا المعنى لا ينافى أن شكلها العام كروى حيث أثبته دليل المشاهدة أو غيره ، أو حيث يلمح من قوله تعالى : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » إذ يظهر منه أن التفاف كل منهما على الآخر وإخفاءه تحته يشبه لف كور العمامة على كور آخر منها ، وهو قريب فى الأجسام الكروية المستديرة . وأيا ما كان فليس المقصود هنا بيان الشكل ، وإنما المقصود بيان عظمة ما أبدعه بقدرته ، لنأخذ منه قدرته على تحقيق البعث الذى أنكروه ، وهو أهون عليه . أما خلق الرواسى أى الجبال

والأنهار فى الأرض . فلما فى خلق الجبال من فائدة شرحها الله عزوجل فى آية أخرى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » . وهذا يعطى شيئا من فائدة الجبال ، وهو منع الأرض من أن تميد . وعللوا ذلك بأن الأرض قابلة للاضطراب والهزات الأرضية مما يجعل الإقامة على ظهرها مقلقة غير مريحة ، فجعلت الجبال فيها لإرسائها ومنعها أن تميد بما حوت من ثقل ، وبما ركزت فى محال ـ الله أعلم بحكمتها .

وربما يقال : ولم جعلت الأرض بأصل خلقتها مستعدة لأن تميد ثم ثبتت بالجبال ، ولم لم تجعل من أول أمرها ثابتة بلاحاجة إلى الجبال ؟ وهذا مدفوع بأن حكمة المبدع الحكيم اقتضت أن يرتبط أجزاء العالم بعضها ببعض بالنسبب والاستناد ، حتى كأنه كتلة واحدة أو جسم يحتاج بعضه إلى بعض ، زيادة فى كال الترابط . ألا ترى أنه كان يمكن ان يخلق الإنسان جسما كاملا لايحتاج إلى غذاء ولا إلى دواء ولا كساء ولا غطاء ، ولكنه خلقه بحاجة إلى ذلك كله ليتم ارتباطه بالكون الذى هو جزء منه ، بل خلق أجزاء الإنسان بحيث يحتاج بعضها إلى بعض . وانظر إلى الحواس والجوارح ؛ وانظر إلى العضلات والدم والدهن فى الإنسان ؛ وانظر إلى المعدة وباقى الجسم ، وانظر إلى المخ والأعصاب وهكذا : تجد كل جزء قائما بعمل فى الجسم الواحد ، فكذلك الإنسان مع الكائنات المحيطة به ينتفع بها فى غذائه ودوائه ، وتنتفع به فى عمرانها وتحليلها وتركيبها . وهكذا يجتمع العالم فى التفاعل مع تباعده فى الوجود . وهذا صنع الحكيم العليم .

ومن فوائد الجبال غير هذا أنها مادة للعيون ، ومنشأ مدد للأنهار ، ولذلك تجد الجبال أكثر ماتذكر مقترنة بالأنهار ، كما فى هذه الآية ، وكما فى قوله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً » فى سورة النحل وفى سورة لقمان ، وكما فى قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم » إلى غير ذلك . وقد علل ذلك الباحثون بأن مادة ماء العيون السحب ، وأكثر ماتهطل على رؤوس

الجبال ، فمنها مايسيل فى شعابها فيتخذ من ذلك مجارى وسبلا وأنهارا ، ومنها ما تتشقق لها الجبال فتختزن فيها ، ثم تسلك فجاجا تحت الأرض حتى تتفجر من ناحية أخرى علمها العليم ؛ واقتضتها حكمة الحكيم . وأيضا ترى الجبال بسبب ارتفاعها أبرد جوا من الوهاد ، كما تدل عليه المشاهدة ، فيجتمع على سطحها من الثلوج والأبخرة المنحلة إلى الماء ما يسيل منه الأنهار فضلا عن تقطع السحاب على ذراها ، فينحل إلى مائيته الأولى ، وبذلك تشهد مناسبة ضم الأنهار إلى الجبال .

ولعل من حكمة جعل الجبال فيها وجعل منابع الأنهار ومددها منها ، ما ذكره بعض الباحثين من أن المياه النازحة منها تجرف مع انحدارها أجزاء طينية تصطدم فى صخور تلاقيها ، فتذوب وتسير مع الماء بانحداره العظيم ، حتى تصل إلى ما شاء الله أن تصل اليه ، فترسب طميا صالحا للإنبات مخصبا منميا ، وهذا كله من مظاهر الارتباط بين أجزاء هذا العالم ، فمنه ما عرفناه ، ومنه مالم نعرفه ، والله بكل شىء عليم .

ونزول الأنهار من الجبال لا يعارض قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » ونحوه ، لأن المراد من السماء جهة العلو ، ولا شك أن الأمطار على ما قررنا هى المادة الأصلية للعيون والأنهار ، وهى نازلة من جهة العلو ، ونبع بعض العيون من الأرض بدون استمداد من الأنهار كالعيون المجاورة للبحار لا يمنع ذلك ، فلم يكن المراد الحصر . وفى قوله تعالى : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين » هذا لبيان أثر آخر من آثار القدرة الباهرة ، وهو كالنتيجة لما قبله من جعل الرواسى والأنهار فيها : ذاك أن الثمرات ما جاءت إلا عن أرض خصبة تغذيها مياه عذبة ، وقد عرفت أن الجبال تمد السهول فى الغالب بالمادة الطينية الخصبة ، وأن الأنهار ترويها بالمياه العذبة ، فيتولد منها الثمرات من كل زوجين اثنين . ومعنى الزوج : الشىء المنضم إلى غيره ليكون من ازدواجهما وانضمامهما ثمرة مقصودة منهما . فليس الزوج اسما للاثنين ، بل الإثنان زوجان . فالمعنى : جعل فى الأرض من كل أنواع

الثمرات ، وجعلها بحيث لا يتم الغرض المقصود منها إلا بانضمام زوج منها إلى الآخر ، حتى يتم التماسك والتساند بينها ، ويظهر الارتباط الذى لا بد منه فى بقاء نوعها . فالمراد بالزوجين عنصرا التذكير والتأنيث فى الثمرات . والنبات محتو على عنصرين أحدهما للتذكير والآخر للتأنيث ، فالتوالد فيه كالتوالد فى فصائل الحيوانات يحتاج إلى زوجين ذكر وأنثى . غاية الأمر أن بعض الأنواع قد تكون زهرته الواحدة بحيث يجتمع فيه الذكر والأنثى ، وبعضها يكون فيه التذكير فى زهرة والتأنيث فى أخرى ، أو التذكير فى شجرة والتأنيث فى أخرى ، كما فى النخيل . فقوله تعالى : « زوجين » إشارة إلى قانون الارتباط والتماسك الذى بثه الله فى العالم . .

وقوله تعالى : « اثنين » بعد قوله : زوجين ، لتأكيد المراد من كلمة زوجين ، وأنه ليس معنى الزوج فيه اثنين حتى يكون قد جعل من كل ثمرة أربعة ، بل المراد به الواحد المنضم إلى ما يزاوجه . فأصل كل ثمرة اثنان ، كما أن أصل كل مولود من المولودات الأخرى اثنان . وزيادة (من) فى قوله « من كل الثمرات » لبيان أن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد أنواع من الثمرات غير ما شاهدتم مما لا يدخل تحت الحصر . وها أنت ذا ترى التجدد لا ينقطع فى أنواعها حينا فحينا .

أما قوله تعالى « يغشى الليل النهار » أى يجعل الليل غاشيا للنهار ساترا له : فلا يخفى أن تعاقب الليل والنهار على الثمار عون على إنضاجها وإكمال صلاحها ، فلو جعل النهار والليل عليها سرمدا لما بدا صلاحها ، ولما تم إنضاجها . فتعلق الليل والنهار بهما تعلق المتمم بما يحتاج إليه فى تمامه ، وبذلك يظهر لك حسن الارتباط . ونظم الليل والنهار فى سلك الآيات الأرضية لما ذكر ، ولأن مظهرهما لنا فى عالمنا الأرضى وإن كان المنشأ لهما من العالم السماوى العلوى ، فهما يلابساننا ويحيطان بنا وننتفع بهما ، إذ يبعثنا النهار إلى الحركة فى أعمالنا ومصالحنا ، ونسكن فى الليل حتى نسترد قوانا ، فهما لنا من الملابسات التامة . . وهذه الآيات الأرضية يمر عليها الناس وهم عنها غافلون ، لا يدرك ما فيها من آثار العظمة إلا المفكرون . فلذا أردفت بقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات

لقوم يتفكرون » . وذلك لما سبق لك من أن كثرة تكرار النظر إلى الشيء يضعف معنى التأمل فيه ، كما شرحنا ذلك بالمقارنة بين تأثر النفوس بظاهرة الكسوف والخسوف ولو جزئيين ، وعدم اكتراثها بدخول الليل أو طلوع النهار . فلا جرم قال هنا : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وأما العالم العلوى فإنك ترى أن الإنسان لايكاد يتطلع إليه ويملأ نظره فيه حتى يجد من نفسه اعترافا بعظمة مبدعه وباهر قدرته ، فينطلق لسانه بالتسبيح والتقديس لأول وهلة ، ولا يجد من نفسه فى ذلك مكابرة . فلذا أردفها بقوله فيما سبق : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . والتفكر إطالة النظر وإجالة البصيرة ودوام التأمل حتى يقف المرء على دقائق وأسرار لم تكن بادية له عند النظرة الأولى ، وهو الذى يعبر عنه علماء المنطق بعبارة : ترتيب أمور معلومة للتوصل بالنظر فيها إلى علم مالم يكن معلوما . وقد ذكر بعض المفسرين أن أكثر ماتذكر الآيات الأرضية تردف بالحث على التفكر ، وذلك لأن بعض الناس يرد حدوثها إلى اتصالها بالحركات الفلكية والأوضاع الكوكبية ويقتصر على ذلك ، فإذا تفكر علم أن الأوضاع المذكورة لايمكن أن تنتج هذا النظام المحكم الذى لايكون إلامن عليم خبير قادر حكيم ، فإن وضع الأفلاك أو الكواكب بالنسبة إلى الجسم الواحد ، واحد تقريبا ، فكيف جعل فى الحيوان جزءا هو عظم فى منتهى الصلابة ، وجزءا هو دم أو دهن فى منتهى الرقة ، وجعل بينهما أجزاء مختلفة الطبائع من أعصاب وعضلات ، وجزءا مغشيا للجميع ممسكا لها ضاما لأجزائها هو الجلد ، وجعل الجميع على اختلاف طبائعه يسند بعضه بعضا ، ويخدم بعضه بعضا . هل الفكر الصحيح يستريح إلا إذا رد ذلك إلى القادر المختار ؟ وقد هدى الله تعالى إلى باب الرشاد الواضح فى ذلك حيث أردف هذا بالآية التالية ، فقال تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . وهذه جملة أخرى مستأنفة لذكر نوع من أنواع الأدلة الأرضية ، وهى ما يتجدد

أمام أنظارنا من حوادث متعاقبة ، بعد أن ذكر مافيها من أمور ثابتة فى الآية السابقة فقال تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات » أى بقاع كثيرة مختلفة ، فمن خصب إلى جدب ، ومن صالح للزرع دون الشجر وصالح للشجر دون الزرع وصالح لهما معا ، ومن حزن إلى سهل ، ومن رخوة إلى صلب ، ومن أحجار كريمة إلى مواد تافهة ، ومن ومن .. الخ ، وكلها متجاورات . فمن الذى جعل فيها تلك المفارقات والمباينات : أجاء هذا من الأفلاك والكواكب ، أم جاء من طبيعة صالحة وأخرى فاسدة ؟ فمن الذى جعل هذه صالحة والأخرى فاسدة ، والمادة فى الجميع واحدة ، والعوامل المتسلطة عليها واحدة ؟ أفمع هذا التجاور مع اتحاد المادة الأصلية يجىء كل هذا التباعد ؟ وهب أن ذلك مرجعه إلى عوامل تسلطت عليها ، فمن الذى سلط تلك العوامل حتى جاء هذا النظام البديع الذى حارت فيه العقول والألباب ؟ وهل يستقر للفكر قرار وتطمئن النفوس إليه تمام الاطمئنان إلا إذا أسندت ذلك إلى مدبر عالم حكيم مريد ؟ سبحانك ماخلقت هذا عبثا ، وليس لغيرك أن يدرك كل الأسرار التى بثثتها فى مصنوعاتك ، فضلا عن أن يشاركك فى ملكك ، سبحانك لا إله غيرك ، ولا شريك لك فى ملكك : ومعنى « متجاورات » أى متلاصقات لم تختلف بها الأقاليم ولم تتباعد بها المناطق . وكما فيها قطع متجاورات اختلفت صفاتها ، تجد فيها قطعا غير متجاورة اتحدت صفاتها . واكتفى بالأول عن الثانى مع فهمه منه لأنه أوضح دلالة . ألا ترى أنك حين ترى زهرة اشتملت أوراقها على ألوان عدة فى ورقة صغيرة دقيقة ، أنطقك ذلك بالتسبيح للحى القيوم ، ودعاك إلى الاعتراف بالقدرة أكثر مما إذا رأيت نباتا من نوع واحد فى منطقتين مختلفتين ؟ وقوله تعالى : « وجنات من أعناب » بدأ بها من بين ماتثمر الأرض لاحتواء العنب على دقيق الصنع الإلهى : إذ ترى فيه من الاختلاف فى الطعم واللون ، ومن الاحتواء على الثمرة التى قوامها ماء متجمع فى قشرة رقيقة قد يكون شفافا لايحجب البصر عن إدراك مافى باطنه ، يتوسطه بذرة يابسة ذات لب هو

منشأ النبات ، وغلاف خشبي حمى الماء المقصود أن يتصل بذلك اللب ، إلى غير ذلك مما فصله علماء النبات فيه ، من ذلك ماينطق العقل قبل اللسان بالتحميد والتمجيد لله . ولذلك ورد في بعض الأخبار القدسية : « أتكفرون بي وأنا خالق العنب » ؟ ثم أردفها بالزرع وهو النبات المقابل للأشجار ، كنبات الحبوب والألياف ونحوها . وإفراد الزرع مع تنوعه مراعاة إلى أن أصله بصيغة المصدر . ولعل توسيط الزرع بين جنات الأعناب والنخيل لتوجيه النظر إلى مايجرى في كثير من الجنات من أنها تفصل بالأعناب ويتخللها الزرع ويحيط بها النخيل ، كما في قوله تعالى : « وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا » كأن ذلك حين يجتمع على هذه الصفة تجد فيه من دلائل القدرة الباهرة مافيه . وقوله تعالى : « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل » .. هذا موضع الاعتبار الواضح في الدلالة البينة ، إذ كانت قطعها متجاورة وأصل مادة زرعها واحد ، وتسقى بماء واحد ، ثم تجيء متفاضلة فيما يؤكل منها : فمنها الحلو ، ومنها الحامض ، ومنها الحريف ، ومنها التافه ، ومنها الرطب ، ومنها اليابس ، ومنها مايتخذ غذاء ، ومنها مايتخذ دواء ، ومنها مالا تحصر آثارها المتباينة ، ولا يحاط بفوائدها العامة ، أو مضارها التي قد تقصد في بعض الأوقات . والإحاطة بذلك قلما تتفق ولا لعلماء النبات ، فلا تزال التجارب تكشف من غوامضها مالا يحصى . ولما كانت هذه الآثار جلية واضحة والاعتراف بها لا يحتاج إلى طويل تفكير ، بل يكفي فيه نظرة من عقل البصير ، أردفها بقوله تعالى : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » كأنه يشير إلى أن من رأى هذا ولم يبادر بالاعتراف بقدرة مبدعه ، ليس جديرا أن يسمى من العقلاء ، فقد أهمل عقله ، وأظهر جهله . وهذا في الآيات المتجددة في الثمار والزروع والنخيل والأعناب موقظ للتأمل وحده ، فكل جديد جدير بأن يسترعي النظر ، بخلاف مافي الآية السابقة من الأمور الثابتة من الجبال والأنهار ، وتغشية الليل النهار ، فإن ذلك محتاج إلى التأمل والتفكير . والثمرات ذكرت في الآية الأولى من جهة مافيها من قانون ثابت ، وهو قانون التزاوج

المشترك فى جميعها ، وأنه من الخفاء بحيث يحتاج فى الاهتداء إليه إلى البحث والتفكير ، فلذا أدرجه فى الآية المختومة بقوله : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ». وذكرت فى هذه الآية من جهة ما يبدو فيها من الطعوم المختلفة والمراتب المتباينة والآثار المتفاضلة ، وهى لاتحتاج إلى تفكير ، فحسن نظمها فى الآية المختومة بقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

الربع الثانى من سورة الرعد

٥ — وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ .

٦ — وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

٧ — وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

٨ — ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ .

٩ — عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ .

١٠ — سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ .

١١ — لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ

ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ .

١٢ — هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ .

١٣ — وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ .

١٤ — لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ .

١٥ — وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ .

١٦ — قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ .

هذه الآيات الإثنتا عشرة فيها بيان لهراء المشركين وأقوالهم ، ورد على

ما يزعمون من أكاذيب وافتراءات وأضاليل ، وماذا يزعمون ؟ يزعمون أن لا بعث ، ويستعجلون الرسول بالسيئة قبل الحسنة ، بالعذاب قبل غيره ، ويقولون : لولا أنزل عليه آية من ربه .. وتمضى الآيات فتتحدث عن قدرة الله الذى يشركون به ، قدرة الله القادر على كل شيء ، الله رب السموات والأرض الذى ليس له شريك ولا مثيل ، إلى آخر ماتناولته هذه الآيات الكريمة من معان وأفكار .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وإن تعجب » أى يامحمد من تكذيب الكفار لك بعد أن كنت عندهم تعرف بالصادق الأمين ، « فعجب » أى فأمر عجيب يتعجب منه « قولهم » أى قول منكرى البعث « أئذا كنا ترابا » أى بعد الموت « أئنا لفى خلق جديد » أى بعد الموت كما كنا قبله ، أولم يعلموا أن القادر على إنشاء الخلق ابتداء على غير مثال سابق قادر على إعادتهم ؟.. وقيل : المعنى وإن تعجب من اتخاذ المشركين مالا يضرهم ولاينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأن الله تعالى فى السموات والأرض وهو يضر وينفع ، وقد رأوا قدرة الله تعالى وما ضرب لهم به من الأمثال ، فعجب قولهم ذلك ، والعجب تغير النفس برؤية المستبعد فى العادة ، قال المتكلمون : العجب : هو الذى لايعرف سببه ، وذلك فى حق الله تعالى محال لأنه تعالى يعلم السر وأخفى ، لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

إن الموت يشبهه الله بالنوم ، وما أعظم الشبه بينهما . والنوم هو موت جزئى للأعضاء ، وكما أن النائم يستيقظ كما يشاهد ، كذلك الميت أيضا يستيقظ ولو لم يشاهد ، وهذا هو البعث الذى أمرت بالإيمان به الأديان ، ومن لم يشاهد ذلك يجادل ويقل : كيف نبعث ثانية بعد أن نكون عظاماً وترابا ؟ والله يجيب على ذلك بقوله : إن الإنسان خلق من طين ، وإنه يعلم ما يدخل فى تركيبه علما تاما « ألا يعلم من خلق » . . . « قد علمنا ما تنقص الأرض وعندنا كتاب حفيظ » وبهذا يمكنه أن يعيده سيرته الأولى .

وتتحول المادة من شكل إلى شكل ، ولكنها فى صندوق الكون لا تفنى أبداً ، وكما أن الماء لا يفنى بتحوله إلى ثلج أو بخار كذلك يتحول الطين إلى نبات وحيوان ثم إلى جسم إنسان ، ثم إلى التراب ثانية ، ثم يعيده الله كما كان . وقد علمتنا العلوم أن معنى «كتاب حفيظ» ليس بالمعنى المعروف ، ولكنه سجل أدق . والإنسان الضعيف قد صنع آلات تسجل من نفسها ، والله صنع هذا الكون كله كآلة عظيمة تسجل كل شيء ، كأنه «كتاب حفيظ» . فالإنسان إذا تكلم انتشر صوته فى الفضاء كله دون أن يشعر ، بل قد أمكن الإنسان أن يسجله ويستعيده عند الحاجة بعد زمن طويل عن طريق (الراديو والفونوغراف) . وكما أن الصوت يسجل تسجيلا ، أفلا يكون ذلك بالنسبة لكل حركاته وسكناته أولى ، بل قد يتقدم العلم ، ونعرف أن أفكار الإنسان يمكن قراءتها على بعد كبير بل يمكن تسجيلها ، فالإنسان جسم صغير فى آلة كبيرة دقيقة حساسة تتأثر وتسجل كل حركات هذا الجسم وما يطرأ عليه لتستعيده عند الحاجة ، وقد شبه الله هذا التسجيل بآثار القدمين التى يعرفها العرب جيداً ، فقال : «إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين» ، وهذا هو كتاب الكون الذى يقول الله فيه : «لا يضل ربى ولا ينسى» و «شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانو يعملون» ، ويقولون : «لم شهدتم علينا ؟» ، فتقول : «أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون» ، ويقولون «يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً» . وسيرى الإنسان أعماله نفسها فى المرآة ، ويرى صورة دقيقة لكل أفعاله وأفكاره كما كانت تماما ، فهو نفس المتكلم ونفس الفاعل «وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا» .

والسنن الطبيعية علمتنا أنه لا يوجد شيء فى هذا الكون بلا فائدة ، فالإنسان

مع ضعفه قد استخدم السنن الطبيعية وأمكنه أن يسجل الصوت ويستعيده بعد زمن طويل ، أفلا يكون هذا دليلا على أن التسجيل لابد أن يكون لمهمة كبرى ، وأن الطبيعة لا تسرف أبداً « إنا كل شيء خلقناه بقدر » فالله يسجل كل حياة الإنسان ليستعيدها يوم البعث ، وهذا أهون من بدء خلق الإنسان، فالنشأة الثانية إعادة وهى أهون من الأولى ، وهما بالإضافة إلى قدرة الله تعالى سيان ، كما قال الله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» وهكذا نرى القرآن لا يبالغ أبداً كما نفهم من معنى المبالغة فى كلامنا حتى فيما لا ندركه تماما . وقد يقال : إن إحياء الموتى قد يكون فى المستقبل على يد أطباء مع أن الله يقول « إنا نحن نحيي الموتى » وذلك لما يقرؤه الناس أحيانا فى الصحف عن إحياء الميت ورجوع الحياة إليه بعد وقوف علاماتها مثل التنفس والنبض . والحقيقة هى أن هناك فرقا كبيرا بين الموت العادى كما يفهم الناس من وقف الأعضاء عن العمل ، كعدم اشتغال المخ أو وقوف القلب ، وبين الموت العلمى الحقيقى ، وهو لا يكون بوقوف عمل الأعضاء فقط ، ولكنه يكون بموتها ، ولو أخذ القلب من ميت عادى بعد وقوف ضرباته ووضع فى محلول مخصوص لاستأنف ضرباته كما كان فى جسم الإنسان من بضع ساعات.. ثم يموت ، ولا يمكن أن يخفق بعد ذلك مهما عمل فيه ، وهذا هو الموت الحقيقى الذى يتحلل بعده الإنسان إلى عناصره الأولى . وقد يتوصل الطبيب - بل قد توصل أحيانا - إلى إعادة الحياة فى الميت العادى ، أى أن القلب يعود فيضرب مدة قصيرة بعد وقوفه ، وقبل أن يكون قد بدأ فى التحلل أى قبل موته الحقيقى . وأما أن العلم يصل إلى إعادة الحياة بعد التحلل فهذا مستحيل ، لأنه لا فرق بين إعادة الحياة إلى جسم ميت تماما ، وبين إيجاد حياة فى الجماد مثل الطين . « أولئك » الذين جمعوا أنواعا من البعد من كل خير « الذين كفروا بربهم » أى غطوا ما يجب إظهاره بسبب الاستهانة بالذى بدأ خلقهم ثم رباهم بأنواع اللطف، فإذا أنكروا معادهم فقد أنكروا بدأهم «وأولئك» البعداء

البغضاء « الأغلال » يوم القيامة « فى أعناقهم» بسبب كفرهم ، والغل طوق من حديد تقيد به اليد فى العنق ، وقيل : المراد بالأغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الأسير الذليل بالغل ، وقيل : إنهم مقيدون بالضلال لا يرجى فلاحهم « وأولئك » أى الذين لا خسارة أعظم من خسارتهم « أصحاب النار هم فيها خالدون » أى ثابت خلودهم دائما لا يخرجون منها ولا يموتون ؛ ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا ، والقوم كلما هددهم بعذاب يوم القيامة والبعث والحشر ، وكلما هددهم بعذاب الدنيا ، قالوا له : مرحبا بهذا العذاب وطلبوا منه إظهاره وإنزاله ، على سبيل الطعن وإظهار أن الذى يقوله كلام لا أصل له « ويستعجلونك » أى استهزاء وتكذيبا ، والاستعجال طلب التعجيل وهو تقديم الشىء قبل وقته المقدر له « بالسيئة » أى العذاب « قبل الحسنة » أى الرحمة ، وذلك أن مشركى مكة كانوا يقولون : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وائتنا بعذاب أليم .. هذا وقوله « قبل الحسنة » فيه وجهان : أحدهما متعلق بالاستعجال ظرفا له ، والثانى أنه متعلق بمحذوف على أنه حال مقدرة من السيئة « وقد » أى والحال أنه قد «خلت من قبلهم المثلات جمع مثلة بفتح الميم وضم الثاء ، أى عقوبة أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بها « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإلا لم يترك على ظهرها من دابة ، كما قال تعالى : ولو يؤاخذ الله الناس بما يكسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، وقال ابن عباس : معناه : لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا .. « وإن ربك لشديد العقاب » للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه ، وقال مقاتل : إنه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم .. ولما بين سبحانه وتعالى أن الكفار طعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم فى الحشر والنشر أولا ، ثم طعنوا فى نبوته بسبب طعنهم فى صحة ماينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ، ثم طعنوا فى نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا ، وهو المذكور فى قوله تعالى « ويقول الذين كفروا لولا » أى هلا « أنزل عليه » أى محمد صلى الله

عليه وسلم « من ربه » أى مثل عصى موسى وناقة صالح ، وذلك لأنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا : هذا كتاب لا يكون معجزا مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام، وكان صلى الله عليه وسلم راغبا فى إجابة مقترحاتهم لشدة التفاته إلى إيمانهم ، قال الله تعالى « إنما أنت منذر » أى ليس عليك غير الإنذار والتخويف « ولكل قوم هاد » أى نبى يدعوهم إلى ربهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون .. ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الآيات أخبرهم الله تعالى عن عظيم قدرته وكمال علمه بقوله تعالى « الله يعلم ماتحمل كل أنثى » من ذكر وغيره وواحد ومتعدد وغير ذلك « وما تغيض » أى تنقص « الأرحام » من مدة الحمل « وما تزداد » أى من مدة الحمل ، فقد تكون سبعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبى حنيفة، وإلى أربع عند الشافعى، وإلى خمس عند مالك رضى الله عنهم ؛ وقيل : إن الضحاك ولد لسنتين ، وهرم ابن حيان بقى فى بطن أمه أربع سنين ، ولذلك سمى هرما ، وقيل : ما تنقصه الرحم من الأولاد وتزيده منهم ، وقيل : من نقصان الولد فيخرج ناقصا . والزيادة تمام خلقه ، وقيل: ماتنقص السقط عن أن يتم وما تزداد بالتمام ، وقيل: ما ينقص بظهور دم الحيض ، وذلك أنه إذا سال الدم فى وقت الحمل ضعف الولد ونقص بمقدار حصول ذلك ، قيل : كلما سال الحيض فى وقت الحمل يوما زاد فى مدة الحمل يوما ليحصل الجبر ويعتدل الأمر ، والآية تحتمل جميع ذلك إذ لا تنافى فى هذه الأقوال ، ويدل لذلك قوله تعالى « وكل شىء » من هذا أو غيره من الآيات المقترحات وغيرها « عنده » أى فى علمه وقدرته « بمقدار » فى كيفيته وكميته لا يجاوزه ولا يقصر عنه ؛ لأنه تعالى عالم بكيفية كل شىء وكميته على الوجه المفصل المبين « عالم الغيب » وهو ما غاب عن كل مخلوق « والشهادة » وهو ماشاهدوه ، وقيل: الغيب هو المعدوم، والشهادة هو الموجود ، وقيل : الغيب ماغاب عن الحس ، والشهادة ماحضر فى الحس « الكبير » أى العظيم « المتعال » عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص، فهو تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة ، ولما كان علمه تعالى شاملا لجميع الأشياء قال تعالى « سواء

منكم من أسر القول ، أى أخفى معناه فى نفسه « ومن جهر به » أى أظهره فقد استوى فى علمه تعالى السر بالقول والجهر به « ومن هو مستخف » أى مستتر « بالليل » أى بظلامه « وسارب » أى ظاهر بذهابه فى سربه « بالنهار » والسرب بفتح السين وسكون الراء ، الطريق وقال ابن عباس : سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الألسنة ، وقال مجاهد : سواء من يقدم على القبائح فى ظلمات الليل ومن يأتى بها فى النهار الظاهر على سبيل التوارى ، والضمير فى « له » يعود إلى « من » فى قوله « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل » أو للإنسان « معقبات » أى ملائكة تعقبه ، والذى عليه الجمهور أن المراد بالملائكة الحفظة ، وإنما وصفهم بالمعقبات إما لأجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس ، وإما لأجل أنهم يتعقبون أعمال العباد ويصونونها بالحفظة والكتبة ، وكل من عمل عملا ثم عاد إليه فقد عقب ، فعلى هذا ـ المراد من المعقبات ملائكة الليل والنهار ، روى عن عثمان أنه قال يارسول الله : أخبرنى عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ملك عن يمينك للحسنات وهو أمير على الذى على الشمال ، فإذا عملت حسنة كتبت وإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال لصاحب اليمين : أكتب ؟ قال : لا لعله أن يتوب أو يستغفر فيستأذن ثلاث مرات ، فإذا قال ثلاثا ، قال : اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ، وملك قابض على ناصيتك ، فإذا تواضعت لربك رفعك وإذا تجبرت قصمك ، وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة ، وملك على فيك لا يدع أن تدع الحية فى فيك ، وملك على يمينك ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله تعالى وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وقال مجاهد : أما من عبد إلا وله ملك موكل يحفظه من الجن والإنس والهوام فى نومه ويقظته « من بين يديه ومن خلفه » أى من قدامه ومن ورائه « يحفظونه من أمر الله » فيها أقوال : أحدها أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير : له معقبات من أمر

الله يحفظونه . وقيل: المعنى أن ذلك الحفظ من أمر الله ، أى مما أمر الله تعالى به ، وقيل : إن كلمة (من) معناها الباء والتقدير يحفظونه بأمر الله وبأمانته ، والفائدة فى تخصيص هؤلاء الملائكة مع بنى آدم وتسليطهم عليهم أن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصى أقرب ؛ لأن من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها زجره الحياء منهم من الإقدام عليه ، كما يزجره إذا حضر من يعظمه من البشر ، وإذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الأعمال كان ذلك أيضا رادعا له عنها ، وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل.. ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى « إن الله » مع قدرته « لا يغير ما بقوم » أى لا يسلبهم نعمته « حتى يغيروا ما » أى الذى « بأنفسهم » من الأحوال الجميلة إلى الأحوال القبيحة « وإذا أراد الله بقوم سوءا » أى هلاكا وعذابا « فلا مرد له » أى لا يقدر أحد لا من المعقبات ولا من غيرها أن يرد ما نزل به من قضائه وقدره « ومالهم » إن راد بهم سوءا « من دونه » أى غير الله « من وال » يلى أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم .

ولما خوف الله تعالى بقوله : « وإذا أراد الله بقوم سوءا » أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان من بعض الوجوه ، وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفا » أى للمسافرين من الصواعق « وطمعا » أى للمقيم فى المطر ، وقيل : إن كل شىء فى الدنيا يحصل يحتمل الخير والشر ، فهو خير بالنسبة إلى قوم وشر بالنسبة إلى آخرين ، فكذلك المطر خير فى حق من يحتاج إليه فى أوانه وشر فى حق من يضره ذلك ، إما بحسب المكان وإما بحسب الزمان ، والبرق معروف ، وهو لمعان يظهر ما بين السحاب « وينشىء » أى يخلق « السحاب الثقال » أى بالمطر « ويسبح الرعد بحمده » والرعد صوت البرق . أو هو صوت التفريغ الكهربائى فى الجو الذى يحدث عنه البرق « والملائكة » تسبحه « من خيفته » أى الله

لأنه أفرد بالذكر تشريفا كما فى قوله تعالى « وملائكته ورسله وجبريل وميكال » وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث ، وقال « سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » وفى بعض الأخبار يقول الله تعالى : لو أن عبادى أطاعونى لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد ، « ويرسل الصواعق » جمع صاعقة وهى العذاب المهلك تنزل من البرق فتحرق من تصيبه « فيصيب بها من يشاء» فيهلكه « وهم يجادلون فى الله » حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب التشديد فى الخصومة ، روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهو أخو لبيد وفدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين قتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار به من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم اكفنيهما بما شئت ، فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة فقتلته ، ورمى عامر بغدة فمات فى بيت سلولية ، فكان يقول : غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية .. فنزلت ، وعن الحسن أنه قال : كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبى صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : أخبرونى عن رب محمد هذا الذى تدعونى إليه ، مم هو ، أمن ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته ، فانصرفوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله : مارأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه ، فقال صلى الله عليه وسلم : ارجعوا إليه فرجعوا إليه فجعل يزيد على مقالته الأولى ، وقال : أجيب محمدا إلى رب لا أراه ولا أعرفه ؟ فانصرفوا ، وقالوا يارسول الله : مازادنا على مقالته الأولى إلا أخبث ، فقال : ارجعوا إليه فرجعوا ، فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس ، فجاءوا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الصحابة : احترق صاحبكم ، فقالوا : من أين علمتم ؟ فقالوا : أوحى الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم : ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم

يجادلون فى الله.. « وهو شديد المحال » واختلف المفسرون فى قوله تعالى: وهو شديد المحال ، فقال على : شديد الأخذ ، وقال ابن عباس : شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة . وقال أبو عبيدة : شديد القوة والمغالبة . واختلف فى قوله تعالى « له » أى الله « دعوة الحق » فقال على : دعوة الحق التوحيد ، وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال الحسن : الحق هو الله تعالى وكل دعا إليه دعوة الحق « والذين يدعون » أى وهم الكفار « من دونه » أى غير الله وهى الأصنام « لا يستجيبون » أى الأصنام « لهم » أى الكفار « بشىء » مما يطلبون من نفع أو دفع ضر « إلا » أى إلا استجابة « كباسط » أى كاستجابة باسط « كفيه إلى الماء » أى على شفير النهر يدعوه « ليبلغ فاه » أى بارتفاعه من النهر أو البئر إليه « وما هو » أى الماء « ببالغه » أى فاه أبداً . لأنه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على إجابته ، فكذلك هم لأن أصنامهم كذلك ، « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » أى ضياع لا منفعة فيه ، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا آلهتهم لم تستطع إجابتهم ، وقيل : المراد بالدعاء فى الحالين العبادة . وقوله تعالى : « ولله يسجد من فى السموات والأرض » يحتمل أن يراد به السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة ، وعلى هذا فيكون قوله تعالى « طوعا » للملائكة والمؤمنين « وكرها » للكافرين والمنافقين الذين أكرهوا على السجود لله بالسيف . ويحتمل أن يراد التعظيم والاعتراف بالعبودية ، فكل من فى السموات والأرض معترف بعبادة الله تعالى، كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » وأن يراد به الانقياد والخضوع وترك الامتناع ، وكل من فى السموات والأرض ساجد لله تعالى بهذا المعنى ، لأن قدرته ومشيئته نافذة فى الكل « وظلالهم بالغدو » أى البكر « والآصال » أى العشايا ، أى تسجد لله ، قال أكثر المفسرين : كل شخص سواء كان مؤمنا أم كافرا ، فإن ظله يسجد لله ، قال مجاهد : ظل المؤمن يسجد لله وهو طائع وظل الكافر يسجد لغير الله وهو كاره ، وقال الزجاج : جاء فى التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله ، وقيل : المراد من سجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب ، وطولها بسبب انحطاط

الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهى منقادة مسلسلة فى طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب ، وإنما خص الغدو والآصال بالذكر ، لأن الظلال إنما تعظم وتكثر فى هذين الوقتين ، والآصال جمع أصيل وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس ، ولما بين تعالى أن كل من فى السموات والأرض ساجد لله تعالى عدل إلى الرد على عبادة الأصنام بقوله تعالى « قل » يا أشرف الخلق على الله تعالى لقومك « من رب السموات والأرض » أى مالكهما وما فيهما ومدبرهما وخالقهما « قل الله » أى أجيب عنهم بذلك إن يقولوه ، إذ لا جواب لهم غيره ولقنهم الجواب به ، وروى أنه لما قال للمشركين ذلك عطفوا عليه وقالوا : أجب أنت ، فأمره الله تعالى فأجاب بذلك ، ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله تعالى « قل » لهم « أفاتخذتم من دونه » أى غيره « أولياء » أى أصناما تعبدونها « لا يملكون لأنفسهم نفعا » يجلبونه « ولا ضرا » يدفعونه ، فكيف يملكون لكم ذلك ، ثم ضرب الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى « قل هل يستوى الأعمى والبصير » قال ابن عباس : يعنى المشرك والمؤمن ، وإنما مثل الكافر بالأعمى لأنه لا يهتدى سبيلا كذلك الكافر لا يهتدى سبيلا ، ثم ضرب الله تعالى مثلا للإيمان والكفر بقوله تعالى « أم هل تستوى الظلمات » أى الكفر « والنور » أى الإيمان ، الجواب : لا يستويان « أم جعلوا لله شركاء » الهمزة للانكار ، وقوله تعالى « خلقوا كخلقه » صفة « شركاء » أى خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وجنا وإنسا « فتشابه الخلق » أى خلق الشركاء بخلق الله « عليهم » من هذا الوجه فلا يدرون ما خلق الله ولا ما خلقت ، فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم ، وهذا استفهام إنكار أى ليس الأمر كذلك ولا يستحق العبادة إلا الخالق ، ولما كان من المعلوم قطعا أن جوابهم أن الخلق كله لله لزمتهم الحجة فقال تعالى « قل » لهؤلاء المشركين « الله خالق كل شىء » أى مما يصح أن يكون مخلوقا ، وإذا كان لا خالق غيره فلا يشاركه فى العبادة أحد ، فوجب أن ينفرد بالألوهية كما قال تعالى : « وهو الواحد » الذى لا يجانسه شىء وكل ما سواه لا يخلو عن

مماثل يماثله ، القهار ، الذى كل شيء تحت قدرته وقهره ، فيدخل تحت قضائه ومشيئته .

ولا بأس هنا بعد أن انتهينا من تفسير هذه الآيات الكريمة أن نشير إلى ما فى الآيتين الثانية عشرة والثالثة عشرة من إعجاز علمى كبير ، وما أحسن ما أتبع الله عز وجل الآية الحادية عشرة الدالة على عظيم قدرته ، وأنه لا راد لقضائه بهاتين الآيتين الكريمتين اللتين تريهم مظهراً من مظاهر القدرة لا قبل لهم باتقائه والفرار منه ، ولا يعصمهم منه من دون الله من عاصم ، ذلك هو ما يرونه من الآيات السماوية تنقض على الناس من فوق رءوسهم من غير سابق إنذار ، فإذا بها قد أصابتهم من حيث لا يشعرون ، فأين يفرون وبأى ملجأ يعتصمون ؟ أفلم يروا إلى البرق يفاجئهم فتختلف بهم النزعات ما بين خوف من رهبته وقوته ، وطمع فيما يبشر به أن يتلوه من غيث ومطر فتلعب بقلوبهم العوامل المختلفة ، وتهتز جوانحهم رغبا ورهبا ، لا يملكون أن أن يدفعوا عن قلوبهم تلك الهزات فضلا عن أن يدفعوا مصدرها أن يصيبهم بالهلاك . فهل يبقى بعد هـذا قلب لا يخضع لعظمة الله ويخشى سطوته ويرجو رحمته ؟ أفما آن لكم أن تعترفوا بعجزكم ، وترجعوا إلى الهدى الذى يجيئكم من ربكم ، وهو الذى ينشىء السحاب الثقال ؟ وقد علمتم أن ذلك مياه متجمعة فى الجو ، فلو كان الأمر قاصراً فى التصريف على ما عهدتم لكانت تلك المياه بحاجة إلى إناء سميك يحفظها ، ومكان ثابت ترتكز عليه لثقلها ، ولكن قدرته والنواميس التى بثها فى ملكه دلائل على قدرته ، أوسع من أن تقف عند ما تعهدون ، وأن تقتصر على ما تعتقدون ، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون ، فأين أنتم وماذا تظنون ؟ . وهو الذى يسبح الرعد بحمده بما يدل على عظمة مبدعه وواسع قدرة منشئه ، فينطق كل قلب وكل لسان بتحميد منشئه وتمجيده ، ذاك أن المرء متى رأى الأمر العظيم الذى يهوله ، انطلق لسانه بتحميد مبدعه ، بل قال : إن هـذا آية ناطقة بتمجيد فاعله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » فليس بلازم أن يكون التسبيح بالنطق اللسانى ، بل أين

نطق لسان المقال من صدق لسان الحال ؟ على أن التسبيح اللسانى لا استحالة فيه ، فلا نرى ما يمنع من الحمل عليه إذا صحت الرواية المعصومة بتفسيره به .
وأنت ترى فى هذا الذى قلنا ما يبين معنى التسبيح من الرعد ، فهو إما بمعنى حمل العباد المشاهدين له السامعين لصوته على تسبيحه تعالى وتنزيهه ، وإما بمعنى دلالته على أنه جل شأنه منزه عن كل عجز أو نقص ، مستحق لكل ثناء وحمد ، فيكون على الأول من باب المجاز العقلى ، أى يسبح سامعوه ، وعلى الثانى من باب المجاز اللغوى ، أى يدل على تنزيهه عز وجل . والباء فى (يسبح بحمده) للمصاحبة ، أى ينطق بتنزيهه تعالى عن كل ما يليق ، تنزيها مصحوبا بالثناء عليه بصفات العظمة . وقوله : « والملائكة من خيفته » أى وتسبح الملائكة خوفا منه تعالى ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . ومن ذا الذى يعلم من عظمة البارى ما تعلمه الملائكة المقربون ولا يمتلىء هيبة وخشية ؟ وهل لا يكون الخوف إلا من وقوع العذاب ؟ ألا فليعلم أن خوف الرهبة ربما قتل وأهلك بمجرده . والملائكة هم عباد الله المكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهم بتصريف الكائنات العالمية موكلون ، فما من عالم من بحار ورياح ، وسحاب ورعد وبرق وزرع وحيوان ، إلا وعليه ملائكة مصرفون بأمر ربهم ، حافظون عليه كيانه وآثاره ، يحفظونه مما هو عرضة له بأمر ربهم ، كما سبق فى تفسير « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » .. « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وليس هذا عن حاجة المولى عز وجل إليهم ، حاش لله ! ولكنه نظام الملك كاملا ، وآثار العظمة باهرة . وقوله تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » ..
هذا من تتمة الدلائل السابقة التى تملأ النفوس رهبة وخشية ، ولعلها أشدها فى إيجاب الحذر والخوف ، فالصواعق تنقض على حين غفلة ، وتنزل على ما تصيبه بغتة ، فأين منها المفر وهى يصيب بها الله من يشاء ؟ ودع ما يتعلل به المتعللون من نصب جاذبات الصواعق على ظهور البيوت ، يزعمون أن معدنا خاصا يجذب الصاعقة النازلة إليه فينجو باقى البيت ، فهب هذا فما الذى يعصم

صاحب البيت فى غدواته وروحاته ، بل ما الذى يعصم البيت من أن تكون الصاعقة قوية تستأصل الجاذب وما يحيط به ؟ يا للعجب ! كل هذه الدلائل الباهرة تتراءى لهم وتتكرر أمامهم وهم يجادلون فى الله جدال من يشك فى قدرته وواسع علمه ، فهل بعد هذا من غفلة ؟ وهل غير هؤلاء القوم يرثى لهم ولما أصيبوا به فى عقولهم ؟ أفما كفاهم كل هذا حتى لايزالون يجادلون فى الله وفى قدرته وهو شديد المحال ؟ أى شديد الحول عظيم القوة ، على أن الميم زائدة ، أو هو شديد الكيد عظيم التدبير ، من قولهم : تمحل لكذا ، أى تكلف استعمال الكيد واجتهد فى الحيلة . والمراد بمثل هـــذا أثر ذلك لاحقيقته ، فهو كقوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » فإن حقيقة المكر مستحيلة عليه تعالى ، والمراد لازمه وهو أخذهم على غرة من حيث لا يحتسبون ، فكذلك هنا : فالمراد : وهو شديد الكيد بالإيقاع بهم وإحباط مساعيهم والتغلب عليهم بحالة خفية كما يفعل المتمحل المكايد ، والمعنى فيهما متقارب .

والصواعق هى مايسميه العلماء بالعواصف الرعدية ، وأهم ما يميز هذه العواصف الرعدية هو شكلها المحدد القائم وسط قبة السماء كأنها سندان الحداد . عند القاعدة يكون اللون كثيفا قاتما وفى القمة قمة السحاب القاتل . . يكون اللون ناصع البياض . وبين القمة والقاعدة توجد منطقة الموت . . ذرات صغيرة من المياه باردة كالثلج كثيفة قاتلة .

وأخطر تلك العواصف هى التى تظهر فى المنطقة الاستوائية ، وفى العالم يحدث كل عام نحو ٢٠٠ عاصفة رعدية ، وتكثر العواصف عند المنطقة الاستوائية ، غير أنها تقل فى منطقة القطبين حتى تنعدم عند القطب الشمالى والقطب الجنوبى .

وفى كل منطقة من مناطق العالم موسم معين للعواصف . وموسم العواصف عندنا يقع فى الشتاء والربيع ، فنى دمياط منذ فترة انقضت صاعقة كان مصدرها عاصفة رعدية شديدة ، وهدمت الصاعقة منزلا هناك ، ونجا سكانه بأعجوبة .

وفى غزة انقضت صاعقة ، غير أنها لم تقتل أى إنسان ؛ حدثت فى المساء وليس هناك فى الحقول والمزارع أى فرد ، وأحرقت الصاعقة بستانا كبيراً للفاكهة . إننا كل يوم نسمع عن عامل صعقه التيار الكهربائى لأنه مس الأسلاك . . وقوة التيار الكهربائى الذى نستخدمه فى حياتنا اليومية لايزيد على ١٢٠ فولت ، أما الصاعقة فقوتها تصل إلى ٣ مليون فولت . إنها تدمر كل شىء فى طريقها .. تدمر المنازل ، وتحرق الغابات والأشجار..والسحب تحمل شحنات مختلفة سالبة وموجبة . . وتنفصل الشحنات السالبة فى ناحية ، والشحنات الموجبة فى ناحية أخرى ، وهذا ما يسمى بالتفريغ . وعملية التفريغ هذه قد تحدث داخل سحابة واحدة ، وقد تتم بين سحابتين ، وقد تتم بين السحابة والأرض ، وعندئذ نشاهد البرق ثم نسمع الرعد ، وتقع الكارثة .. إن الرعد والبرق يحدثان فى وقت واحد ، غير أن البرق - وهو الوهج الخاطف - له سرعة خاطفة ، وإن سرعة الضوء أكثر من سرعة الصوت . ولذلك نرى البرق أولا ثم نسمع الصوت بعد ذلك . وكل شىء يضم داخله جزءا من الخير وجزءا من الشر . . والصواعق التى تنقض على الآمنين وتحرقهم ، هى نفسها التى تسقط المطر ، هى نفسها التى تحمل الخير للناس .

١٧ — أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ .

١٨ - لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ .

آيتان كريمتان ضرب الله عز وجل فيهما مثلا رائعا واضحا جلياً للحق والباطل ، لله الحق المعبود رب السموات والأرض ، وللشركاء الذين عبدهم المشركون من دون الله ، الزبد يذهب جفاء ، وما ينفع الناس يمكث في الأرض ، عبادة الله باقية ، وعبادة المشركين زاهقة باطلة ، للمؤمنين الحسنى وللمشركين العذاب الأليم .

ذكر الله عباده في الآيات السابقة بأنه رفع السموات بغير عمد ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، ودبر الأمور جميعها بحكمته ، وفصل الآيات الكونية بقدرته ، ومد الأرض وأرساها بجبالها وتلالها ، وجعلها صالحة لسكنى العباد من الأناسى ، وسكنى أنواع الحيوان المسخرة لهم ورزقهم فيها بما يقيم أودهم ، ويقيم حياتهم من الأنهار والثمرات المختلفة . وكل هذه دلائل باهرة ، وآيات ناطقة على أنه الخالق وحده ، ومستحق العبادة وحده ، ويستحق التوجه إليه وحده . ولا يجوز عند ذوى الألباب والعقول أن يتخذوا آلهة غيره ، عاجزة عن الخلق ، عاجزة عن حماية نفسها ، عاجزة عن دفع الضرر عنها وعن غيرها ، عاجزة عن إيصال النفع إليها وإلى غيرها .

فليس لهذه الآلهة خلق يشبه خلقه حتى يكون هناك عذر قائم في التشابه وفى اتخاذها آلهة . وضرب الله مثلا لهؤلاء المشركين بالعمى ، ولضلالاتهم بالظلمات ، وضرب الله مثلا للمؤمنين بالمبصرين ، ولهديهم وعقائدهم بالنور ، وفى الآية الأولى من الآيتين اللتين نحن بصدد تفسيرهما ضرب الله أمثلة أخرى للحق بالماء ، والذهب والفضة يتخذ منهما الحلية ، وبالنحاس والحديد والصفر وغير ذلك من المعادن يتخذ منها المتاع . وضرب أمثلة للباطل بالزبد فوق الماء ، وبالزبد يخرج من المعادن ، وهو الخبث الذى يخرج منها بإيقاد النار عليها ، ثم تبقى بعد ذلك خالصة ينتفع بها ؛ ينزل الله الماء من السماء على الأرض ، فيجتمع فى الأودية المنخفضة عن الجبال والتلال ، ويسيل فيها ويحمل فى جريانه ما يصادفه من حطام ومن مواد تخالط الأرض ، وهذا الذى يحمله الماء

ويطفو فوقه ، هو الزبد الرابى الذى لا خير فيه ، ثم يقذفه السيل وتدفعه الرياح إلى جوانب الوادى وإلى أصول الأشجار ، ويبقى الماء خالصاً يكون شرابا للناس والأنعام ، وتروى منه الأرض فتزرع وتنبت أطيب الثمرات من حب وفاكهة ، وتنبت الأب ترعاه الأنعام ، ويسلك بعض الماء فى الأرض فتتفجر منه العيون الصافية وتمتلىء منه الآبار والجبوب ، والماء كله نافع وكله مفيد وكله خير ، والزبد كله لا فائدة فيه ولا خير منه ، والماء هو الأصل والزبد عارض عليه ، كما أن الحق هو الأصل ، والباطل عارض عليه . هذا هو المثل الأول ، والمثل الثانى هو أنواع الفلزات والمعادن ، فالذهب والفضة يوقد عليهما فى النار فيخرج زبدهما وهو الخبث الذى فيهما ، ثم يتخذ منهما الحلية وفيها فائدة للناس ، وفيها بقاء ، وفيها بهاء وجمال . والحديد والنحاس وغيرهما يوقد عليها فى النار فيذهب خبثها وهو زبدها وتبقى المعادن بعد ذلك نقية يتخذ منها أنواع المتاع ، وفى المتاع فائدة وفيه بقاء وفيه خير ، ولا خير فى الخبث والزبد ولا بقاء . فهذه المعادن على اختلافها أمثلة للحق فى بقائه وفائدته وبهائه وجماله ، وفى الزبد الخارج منها أمثلة للباطل وخبثه وشينه واضمحلاله وزواله ، وهذه المعادن هى الأصول ، وخبثها عارض ، كما أن الحق أصل والباطل عارض . ولا يظنن أحد أن الباطل قد يطول أمره ولا يزول سريعاً كما يزول الزبد من الماء ، وكما يزول الخبث بإيقاد النار ، لأن الحديث إنما يدور مع أولى الألباب وأهل البصائر ، ومع من لم يعمهم الهوى وتضلهم الشهوات ، وهؤلاء ينكشف لهم الأمر سريعاً عند التوجه والالتفات ويدركون الحق ، فهم كالسيل ، والرياح تدفع الزبد عن الماء ، وكالنار تدفع الخبث عن الذهب والفضة والمعادن . أما الذين أضلهم الله وعميت بصائرهم وختم الله على قلوبهم فهؤلاء بعيدون عن إدراك الحق ، بعيدون عن فضيلة النظر ، ولذة العلم ، والتماس الهدى . وليست الأمثلة مقصورة على الدين والقرآن بل هى عامة شاملة يراد بالحق فيها كل ما هو حق من دين وعلم ونظام ، وبالباطل فيها كل ما هو باطل من عقيدة وعلم ونظام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغرض منها هو القرآن ، فقال : أنزل من سماء كبريائه ماء هو القرآن فسال فى أودية القلوب واستقرت فيها أنوار علوم القرآن ، كما يستقر الماء فى الأودية ، وحمل كل قلب من هذه المعارف والأنوار بقدره . وهذه المعارف الإلهية الربانية قد تختلط بها الشكوك والشبهات كما يعلو الزبد فوق الماء ؛ ثم لا تلبث هذه الشكوك أن تزول وتضيع ويبقى الدين والعلم والحكمة . فالناس تتفاوت مراتب استعدادهم لتلقى ذلك الفيض الإلهى وكل يمسك منه على قدره ، وكل ينتفع وينتفع على مقدار ما وهبه العزيز العليم من قابلية للانتفاع بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من هدى ومن نور .

وفى الحديث الصحيح عن أبى موسى « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضاً فكان منها نقية فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

ومعنى قول الله سبحانه «يذهب جفاء» أنه يجفؤه السيل والريح ، ويطرحه ويرميه ، ولا يبقى منه شىء ، وعلى ذلك فجفاء مصدر كالجفء خرج مخرج الإسم ، وكذلك تفعل العرب فى مصدر كل ما كان من فعل شىء اجتمع بعضه إلى بعض ، كالرقاق والحطام والغثاء ، كما فعل فى قولهم : أعطيته عطاء بمعنى الإعطاء . وقد نكر الله الأودية لأن المطر لا يأتى إلا على طريق المناوبة بين البقاع ، فيسيل بعض الأودية دون البعض . وقوله تعالى : « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » عبارة جمعت أنواع الفلزات جميعها ما عرف منها وما لم يعرف . ومعنى « كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل » ومعنى : كذلك يضرب الله الأمثال ، كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل ، فحذفت كلمة الأمثال فى الأول ، وحذفت كلمة الحق والباطل فى الثانى لدلالة الكلام على ذلك كله عند من يعرف العربية

بمقدار ما يفهم الخطاب . ولما ضرب الله المثل للحق والباطل ، انتقل إلى بيان ما لأهل الحق من ثواب ، وما لأهل الباطل من عقاب ، حين اقتضته حكمته ومشيئته ، فقال : للذين استجابوا لربهم الحسنى » . ومعنى « استجابوا لربهم » : أجابوا داعى الله فآمنوا به وبرسوله ، واتبعوا النور الذى أنزل إليهم ، وقبلوا الدعوة إلى الحق وعاهدوا عليه ، ووفوا بالعهد وأدوا الأمانة، وصار الدين خلقا لهم ؛ فأقاموا العبادات وأحسنوا المعاملات . هؤلاء هم السعداء الذين راقبوا الله ، فلهم عند الله المثوبة الحسنى الخالية من الشوائب والأكدار ، المقرونة بالرضا والرضوان ، فلهم منه النصر فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة . أما الذين لم يجيبوا دعوة الله ، وهم الأشقياء ، فسيكون حالهم فى الدار الآخرة من الضيق والعنت والشدة والكرب بحيث لو ملك أحدهم ما فى الأرض جميعاً وملك مثله معه وقبل منه الفداء من العذاب لافتدى نفسه منه بكل ما يملك ، وسيحاسبون حسابا عسيرا سيئاً بحيث لا يغفر لهم شىء من ذنوبهم ، وستظهر لهم فعالهم الذميمة وملكاتهم الرديئة الخبيثة التى كانت خافية عليهم من قبل لاشتغالهم باللذات عن عالم الحق الباقى ، وسيكون حسابهم لنفسهم أيضا عسيرا، ويقول أحدهم : ياليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ثم يقذف فى جهنم فتكون مأواه ومصيره ، وهى مهاد سىء وفراش ردىء خبيث ، وبئس المهاد جهنم !

يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين : « أنزل من السماء » أى السحاب أو السماء نفسها « ماء » أى مطرا « فسالت أودية » أى أنهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة ، فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى فيه ، وتنكيرها بأن المطر يأتى على تناوب بين البقاع « بقدرها » أى بمقدارها الذى علم الله تعالى أنه نافع غير ضار ، أو بمقداره فى الصغر والكبر « فاحتمل السيل زبدا رابيا » أى عاليا « ومما توقدون عليه فى النار » أى من جواهر الأرض والذهب والفضة والنحاس والحديد « ابتغاء » أى طلب « حلية » أى زينة « أو متاع » أى ينتفع به كالأوانى إذا أذيبت وآلات الحرب والحرث،

والمقصود من ذلك بيان منافعها « زبد مثله » أى مثل زبد السيل وهو خبثه الذى ينفيه الكير « كذلك » أى مثل هذا الضرب للأمثال « يضرب الله » أى الذى له الأمر كله « الحق والباطل » أى مثلهما ، فإنه تعالى مثل الحق فى إفادته وثباته بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع، ويمكث فى الأرض بأن يثبت بعضه فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والآبار ، ومثل الباطل فى قلة نفعه وسرعة زواله بزبدها « فأما الزبد» أى من السيل وما يوقد عليه من الجواهر «فيذهب جفاء » قال أبو حيان : مضمحلا متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء ، وقال ابن الانبارى : متفرقا « وأما ما ينفع الناس » من الماء ومن الجواهر الذى هو مثل الحق « فيمكث فى الأرض » أى يثبت ويبقى لينتفع به أهلها «كذلك » أى مثل ذلك الضرب « يضرب » أى يبين « الله » الذى له الإحاطة الكاملة علما وقدرة « الأمثال » فيجعلها فى غاية الوضوح وإن كانت فى غاية الغموض . فهاهنا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل ، فالباطل وإن علا على الحق فى بعض الأوقات والأحوال فإن الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذى يعلو على الماء فيذهب الزبد الصافى الذى ينفع وذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ، ويذهب العلو الذى هو الكدر وهو مما يتقيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض كذلك الحق والباطل ، وقيل : هذا مثل المؤمن واعتقاده وانتفاعه بالإيمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ، ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذى لا ينتفع به البتة « للذين استجابوا لربهم» أى أجابوه إلى مادعاهم إليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الأموات والتزام الشرائع الواردة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسنى » قال ابن عباس ، وقال أهل المعانى : الحسنى هى المنفعة العظمى فى الحسن وهى المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والإجلال ، ولم يذكر الله تعالى الزيادة هنا لأنه تعالى ذكرها فى سورة أخرى وهى قوله تعالى «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» .. وهذا ما لأهل الحق،

وأما مالأهل الباطل فهو ماذكره بقوله تعالى « والذين لم يستجيبوا له » وهم الكفرة فلهم أنواع ثلاثة من العذاب والعقوبة : فالنوع الأول : هو قوله تعالى « لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به » أى من العذاب ، والنوع الثانى هو ماذكره الله عز وجل فى قوله : «أولئك لهم سوء الحساب » وهو المناقشة فيه ، وعن النخعى بأن يحاسب العبد بذنبه كله ، والنوع الثالث من عقوباتهم ماذكره بقوله تعالى « ومأواهم » أى مرجعهم « جهنم » وذلك لأنهم كانوا غافلين عن طاعة الله وعبادته « وبئس المهاد » أى الفراش ، والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم .

الربع الثالث من سورة الرعد

١٩ — أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ .

٢٠ — ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ .

٢١ — وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ .

٢٢ — وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ .

٢٣ — جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ .

٢٤ — سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ .

٢٥ — وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ

ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ .

٢٦ – ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ .

فى هذه الآيات الثمان موازنة بين المؤمنين والمشركين .. وبيان لخصائص المؤمنين ، ثم لصفات المشركين .. وفى الآية الأخيرة من هذه الآيات ينبه الله عز وجل على أن المشركين مهما فرحوا بالدنيا وبأموالها وزينتها ومتعتها وبما بسطه الله لهم فيها من رزق ، فإن الحياة الدنيا بجانب الآخرة ما هى إلا متاع قليل ، والآخرة هى الحياة الكبرى ، وهى دار البقاء .

ومعنى الآية الأولى : أهذا الذى يعلم أن الذى أنزله الله عليك حق فيؤمن به ، ويعمل بما فيه كالذى هو أعمى لا يعرف مواقع الحجة ولا يدرك مافيه من نظام وجمال ، وما فيه من حكمة ، وما فيه من علاج للجماعة البشرية ورباط يربطها ويقوم حياتها ؟ ! فالاستفهام للإنكار والتوبيخ . وقد جعل الله العالم بصيرا لأنه يسير على هدى ، يأمن العثار ويأمن الوقوع فى المهالك ، وسمى الجاهل أعمى لأن الأعمى يفسد ما فى طريقه إذا سار ، وقد يتردى فى حفرة أو بئر فيهلك . وقد بين الله أن هؤلاء الذين لايؤمنون ليس لهم عقول تصل إلى لباب الأمر وتجاوز قشوره وترتب الأدلة وتنصاع للبراهين وتتعظ بكتاب الكون وآيته وما أودعه الله فيه من نظام وجمال ، وإنما يتذكر أولو الألباب الذين يعملون على مقتضيات العقول ويستبصرون .

وفى الآيات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة.. يعود الحديث فى هذه الآيات إلى بيان أحوال السعداء ، فذكر الله أوصافهم وذكر جزاءهم وما أعد لهم ؛ فمن أوصافهم الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق . والعهد كل شىء التزمه الإنسان بالفطرة أو بالقول أو بدلالة العرف والقوانين وقد

ركز فى الفطرة التزام النظر فى الأدلة والآيات ، وركز فى الفطرة الامتثال لمـا تمليه الأدلة وتدل عليه الآيات ، وقد نصب الله من الدلائل على وجوده وقدرته وحكمته ولطفه ورحمته فى تفاصيل الخلق ونظام الخلق ما فيه مقنع وما فيه غنى لأولى الألباب ، وأرسل الأنبياء وأيدهم بالبراهين الدالة على صدقهم ، ولا عهد أوثق من حجة وآكد من برهان ، فهذه الأدلة عقلية وسمعية يجب الوفاء بعهدها ويجب امتثال أحكامها

والإيمان بالدين ، عهد بالدين وعهد بكل ما اشتمل عليه الدين من عبادات وأحكام للمعاوضات والمعاملات ، وعهد بكل ما اشتمل عليه من خلق ونظام للجماعة البشرية . وهناك عهود الجماعات يدل عليها العرف وتدل عليها القرائن ، وهناك عهود قولية وعهود كتابية ، كل هذه العهود يجب الوفاء بها ، والوفاء بها من صفات السعداء ؛ فقوله تعالى : « ولا ينقضون الميثاق » ليس وصفا وحده وإنمـا هو مؤكد للوفاء بالعهد ، لأن من وفى بالعهد فقد حفظ الميثاق ، ومن نقض الميثاق فقد نكث بالعهد . ومن أوصافهم أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، والذى أمر الله به أن يوصل هو رعاية الحقوق الواجبة لله وللعباد وللنفس ، فيدخل فيه صلة الأرحام وصلة القرابة والجيران وجميع المؤمنين الذين اعتبرهم الله إخوة بقوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » فيعينهم ويدفع الأذى عنهم ، ويكتم سرهم ويذيع خيرهم ، ويستر عورتهم ، ويحفظ أموالهم وأعراضهم ، ويرشدهم إلى طرق الخيرات ، وليس هذا وصفا زائدا على الوفاء بالعهد بل هو داخل فيه ، لكن جرت سنة القرآن أن يبرز بعض الأوصاف الفاضلة ويخصها بالذكر بعد التعميم تنويها بشأنها وحثا للناس عليها ، وقد يذكر منها طائفة فى موضع وطائفة أخرى فى موضع آخر مراعاة للمناسبات ووفقا للأحوال . ويقال هذا فى باقى الأوصاف الآتية . ومن أوصافهم أنهم يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، فهم على الدوام مستشعرون خوفه ، ومستول عليهم جلاله ، يخافون — مهما أتوا به من طاعة وعبادة — أنهم قصروا فيها أو أن الإخلاص لم يكن كاملا فيها ، ويلاحظون

ذلك الجلال الإلهي والعظمة الإلهية ، ويخافون على الخصوص سوء الحساب .

وهذا الوصف كله هو وصف لعامة المؤمنين ، أما خاصة المؤمنين فلا يطلبون إلا رضاه ودوام اللذة بمشاهدة نوره وورد المعارف الإلهية والفيوض الربانية ، ولا يعنيهم شيء بعد ذلك من عذاب وثواب ونعيم وعقاب ، فهم فانون فى الحب ، غارقون فى العشق ، يبهرهم جماله ، ويخيفهم جلاله . ومن أوصافهم الصبر ابتغاء وجه الله ، يصبرون على العبادات وعلى ترك المعاصى إذا نازعتهم النفس وحفزتهم الشهوات ؛ ويصبرون على الفقر والهموم والأحزان والأمراض ، وعلى معاشرة الخلق واحتمال أذاهم ، وعلى شماتة الأعداء ؛ وعلى الجملة فهم يصبرون على كل مكروه ؛ يصبرون على كل ذلك لأن الصبر صفة من صفات الخير وخلق من الأخلاق الفاضلة ، وخصلة يرضاها الله سبحانه ، فهم يصبرون ابتغاء وجهه وطلبا لرضاه ، لا ليثنى عليهم بأنهم صابرون ، ولا لخوف شماتة الأعداء ، ولا لأن الجزع لا يرد مكروها ولا يأتى بحبيب . ومن صفاتهم إقامة الصلاة بتعديل أركانها واستيفاء شروطها والإخلاص لله فيها ومراقبته والفناء فيه . ومن صفاتهم الإنفاق سراً وعلانية مما رزقهم الله ، فهم لا يحرصون على العلانية للرياء ، ولا يؤخرون الإنفاق إلى التمكن من اليسر ، بل يغيثون الملهوف على أى نحو من الأنحاء عند الحاجة إلى العون ، ويؤدون الزكاة المفروضة وحقوق القرابة والرحم ، ويواسون اليتامى والضعفاء وذوى الحاجة ، ويقومون بحظهم فى خدمة المجتمع والوطن كلما دعا الداعى وطرأت الحاجة والضرورات . والإنفاق على هذه الصفة من أدل الأمور على طهارة النفس ، وعلى عدم الأثرة والأنانية ، وعلى حب الجماعة البشرية ، فإن المال محبوب بطبعه عند الإنسان ، يرى أن ادخاره للحاجة عقل وأن جمعه فخر ، وأنه وسيلة للوصول إلى الرغائب ووسيلة تحقيق اللذات والشهوات ، فإخراجه لحاجة الناس والزهد فيه فضيلة من الفضائل الإنسانية التى يحبها الله ، والتى أكثر من ذكرها وقرر أنها من صفات المؤمنين السعداء وصفات

المفلحين المتقين . ومن صفاتهم أنهم يدرءون بالحسنة السيئة ؛ أى يدفعون السيئة تصل إليهم من غيرهم بالكلام الحسن ، ولا يقابلون الشر بالشر ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ، وإذا أذنبوا تابوا . هذه هى صفات السعداء ، وهؤلاء لهم « عقبى الدار جنات عدن » أى أن أعمالهم تجعل عاقبة أمرهم فى الدنيا جنات عدن فى الآخرة . وجنات عدن هى دار الإقامة الخالدة التى لا ظعن عنها ولا فراق ، وفيها النعيم المقيم يدخلونها ، ويكون معهم فيها الصالحون من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، فينعمون بالسعادة الشخصية ، وينعمون بسعادة محبيهم وأقاربهم من أزواجهم وذرياتهم وآبائهم ، وينعمون بالأنس بهم . ومن تمام النعمة على الإنسان ومن تمام سعادته أن يرى أهله ومحبيه سعداء . وتحييهم الملائكة يدخلون عليهم من أبواب الجنة المتفرقة يقولون لهم : سلام عليكم بما صبرتم . ومعناه أن الكرامة التى أنتم فيها ، وهذه الخيرات التى تستمتعون بها لم تصل إليكم إلا بالصبر على طاعة الله ، وعلى أداء الأمانات لأهلها ؛ لقد احتملتم متاعب الحياة الدنيا فوجب لكم أن تستريحوا الآن ، ولنعم عقبى ما عملتم فى الحياة الدنيا ما أنتم عليه فى هذه الدار الآخرة من سرور دائم ونعيم مقيم ! هذه الصفات التى استحق بها أهلها عقبى الدار هى الصفات التى أعلت شأن الجماعة الإسلامية ، وأورثتها العزة والمجد ، ووحدت بينها فى الآمال والرغبات . فلتنظر أمة من التى مزقتها الأهواء ، وفرقتها المطامع الكاذبة ، وسحرتها الوعود الماكرة ، ولتوازن بين حاضرها وماضيها ، ولتتدبر ما هى الأسباب التى ألهتها وأضلتها ، وماهى الأسباب التى فرقتها شيعاً وجعلتها أحزاباً .

أما الآية السابعة والثامنة فخاصتان بالمؤمنين . . فنى السابعة بيان لأوصاف المشركين التى تناقض صفات المؤمنين ، وفى الثامنة يطلب الله عز وجل من المشركين أن لا يفرحوا بمتاع الدنيا ومالها ، وبما بسط الله لهم فيها من رزق ، فمتاع الحياة الدنيا قليل بجانب نعيم الآخرة …

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « أفمن يعلم أنما أنزل

إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، نزلت هذه الآية في حمزة وأبي جهل ، وقيل: في عمار وأبي جهل . ومعنى « يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق » أي يؤمن به ويعمل بما فيه وهو حمزة أو عمار « كمن هو أعمى » أي أعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو أبوجهل .. وحمل الآية على العموم أولى ، وإن كان السبب مخصوصاً ، والمعنى : لا يستوى من يبصر الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه ، وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدى إلى سبيل الرشد « إنما يتذكر أولو الألباب » أي إنما يتعظ أصحاب العقول الذين يعتبرون وينعمون النظر والفهم والاعتبار . « الذين يوفون بعهد الله » أي بما عاهدوا الله عليه ، وبما عاقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قال الله عز وجل في الأزل لهم : « ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » .. « ولا ينقضون الميثاق » أي ما واثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين العباد ..

« والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » أي من الإيمان والرحم وغير ذلك .. والأكثرون على أنه أراد به صلة الرحم .. ورد عن أبي موسى أن عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكى عن ربه تعالى : أنا الرحمن وهي الرحم شققت لها أسماء من اسمى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرحم متعلقة بالعرش تقول: من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأله في أثره فليصل رحمه ، ومعنى ينسأ يؤخر ، والمراد به تأخير الأجل ، وفيه قولان :

أحدهما ، وهو المشهور : أن يزاد في عمره زيادة حقيقة .

والثاني : يبارك له في عمره ، فكأنه قد زيد فيه .

وعن أبي عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يأتى الرحم يوم القيامة فتقول : أى رب قطعت ، والأمانة تقول : أى رب تركت ، والنعمة تقول : أى رب كفرت ، وعن الفضيل بن عياض أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال : من أين أنتم ؟ فقالوا : من خراسان ، قال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أن العبد لو أحسن كل الإحسان وكان له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين « ويخشون ربهم » أى وعيده عموما ، والخشية خوف يشوبه تعظيم « ويخافون سوء الحساب » خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا « والذين صبروا » أى على طاعة الله تعالى وعن معاصيه وفى كل ما ينبغى الصبر فيه ، وقال ابن عباس : صبروا على ما أمر الله تعالى ، وقال عطاء : على المصائب والنوائب ، وقيل: صبروا على الشهوات وعن المعاصى ، ومرجع الكل واحد ، فإن الصبر الحبس وهو تجرع مرارة النفس عما تحبه مما لا يجوز فعله « ابتغاء » أى طلب « وجه ربهم » أى رضاه لا طلب غيره من جزع أو سمعة أو ريا أو لغرض من أغراض الدنيا أو نحو ذلك « وأقاموا الصلاة » أى المفروضة ، وقيل : مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض والنفل « وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » قال الحسن : المراد به الزكاة فإن لم يتهم بترك الزكاة فالأولى أن يؤديها سراً ، وإن كان يتهم بترك أدائها فالأولى أن يؤديها علانية ، وقيل : المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة ، وقيل : المراد بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه ، وبالعلانية ما يدفعه إلى الإمام « ويدرأون » أى يدفعون « بالحسنة السيئة » كالجهل بالحلم والأذى بالصبر ، روى عن ابن عباس قال : يدفعون بالصالح من العمل السىء من العمل ، وهو معنى قوله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إذ عملت سيئة فاعمل بجانبها حسنة تمحها ، السر بالسر والعلانية بالعلانية » ؛ وعن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن مثل المؤمن الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه

ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج إلى الأرض . وقال ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم ؛ وعن الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا ؛ وعن ابن عمر : ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة ، لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله ، وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى إذا هيجه قوم اهتاج ، لكن الحليم من قدر ثم عفا ؛ وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا ، وقيل : إذا رأوا منكرا أمروا بتغييره ؛ ويروى أن البلخى دخل على ابن المبارك فقال له : من أين أنت ؟ فقال : من بلخ ، فقال : وهل تعرف شقيقا البلخى ؟ قال نعم ، فقال : وكيف طريق أصحابه ؟ قال : إذا منعوا صبروا ، وإذا أعطوا شكروا ؛ قال ابن المبارك : طريقة كلابنا هكذا ، فقال شقيق : فكيف ينبغى أن يكون الأمر ؟ فقال : الكاملون هم الذين إذا منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا « أولئك » أى العالو الرتبة « لهم عقبى الدار » وبينها تعالى بقوله « جنات عدن » أى إقامة لا انفكاك لها يقال : عدن بالمكان إذا أقام به ، ثم استأنف لبيان تمكنهم بها بقوله تعالى « يدخلونها » ولما كانت الدار لا تطيب بدون الأحبة قال تعالى : « ومن صلح من آبائهم » أى الذين كانوا سبباً فى إيجادهم فيشمل ذلك الآباء والأمهات وإن علوا « وأزواجهم وذرياتهم » أى الذين تسببوا عنهم ، والمعنى : أن يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيما لشأنهم ، ويقال : إن من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذكروا أحوالهم فى الدنيا ثم يشكرون الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ، ولذلك قال تعالى فى صفة أهل الجنة إنهم يقولون : يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ؛ وفى ذلك دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة ، وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال : يريد من صدق بما صدقوا وإن لم يعمل مثل أعمالهم ، قال الرازى : قوله « وأزواجهم » ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ، ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه ، وما روى عن

سودة أنها ـ لما هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت : دعنى يارسول الله أحضر فى جملة نسائك ـ كالدليل على ماذكرنا » .. وعلى هذا من تزوجت بغيره قيل : إنها تخير بينهما ، ثم زاد تعالى فى ترغيبهم ، بقوله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم » لأن الإكثار من ترداد رسل الملك الأعظم فى الفخر أكثر ، ولما كان إتيانهم من الأماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الأدب والكرم قال تعالى « من كل باب » قال ابن عباس : لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصارعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم « سلام عليكم » أى فأضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه « بما صبرتم » على أمر الله ، والباء للسببية أى بسبب صبركم أو البدلية أى وبدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه ، ويتعلق قوله تعالى « بما صبرتم » عند الزمخشرى ، بمحذوف تقديره : هذا بما صبرتم ، وعند البيضاوى متعلق بعليكم أو بمحذوف ، لابسلام .

وبعد : فلقد قرأت من أول السورة هذه الآيات البينة ، بل الدلائل الساطعة والأنوار اللامعة ، وتجلت لك الحجج البالغة والبراهين الدامغة ، فلم يبق إلا أن تكون هناك عيون تبصر وقلوب تعقل ، فهل يستوى من أبصر الهدى والرشاد ، ومن عميت بصيرته فلم يرما أمامه وسار يتخبط فى ظلمات الجهالة ؟ هل يستوى من اهتدى فغنم وسلم ، ومن ضل فضاعت عليه الفوائد التى عرضت عليه ، وكان جناها دانى القطوف بين يديه ؟ هل يستوى من سار السير السوى وسلك الطريق الرضى فوصل إلى السعادة ، ورزق الحسنى وزيادة ، ومن تنكب الصراط المستقيم وسار بجد ، وهو كلما جد فى سيره ابتعد عن قصده ، وربما خبط فى سيره فأتلف على نفسه ما قد كان سليما له ؟ حقا إنه لايستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون. وليس الذى يعلم أن ما أنزله الرب الكريم الرحمن الرحيم هو الهدى والرحمة المهداة فأخذه شاكراً ، كذلك الأعمى الذى يضع يده على ما يظنه مطلبه وإذا هو يقبض على آفة مهلكة ، ويشتط فى السير وإذا هو يتردى فى بئر . ولا يتذكر وينتفع بالذكرى إلا أولو

الألباب والعقول الصافية الخالصة ، كما قال تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

قال تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » الآيات ، وهذه الآيات والتى بعدها فى قوله تعالى : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » تفصيل وتصريح بما تضمنه هذا المثل الجليل المذكور فى قوله عز وجل : « أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق » الخ ، فالجملتان مستقلتان بالفائدة كل فى بابها ، ولكنهما بسبب متين من ذلك المثل السابق ، حتى ظن بعض المفسرين أن قوله : « الذين يوفون » الخ بدل من قوله « أولو الألباب » أو من قوله « أفمن يعلم أن ما أنزل » الخ . وهذا من شدة الارتباط بين المثل على إجماله ، وبين ما سيق لشرحه وتفصيله ، وإنما هما جملتان كما سمعت ، أولاهما فيها مبتدأ موصوف بتسع صفات بينة ، وخبره هو قوله : « أولئك لهم عقبى الدار » ، وثانيتهما مبتدؤها قوله : « والذين ينقضون عهد الله » الخ وخبره قوله : « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . ولكن الآية الشريفة فى القرآن الكريم تراها من قوة الارتباط كأنها كلام واحد وجملة واحدة ، فتنتقل فى فوائدها المتنوعة المتكررة ، وكأنك لا تزال فى الكلام الأول . وهذا من أقوى الميزات التى امتاز بها القرآن الكريم . فالنوع الأول قد جاء موصوفا بتسع صفات جليلة ، ونحن نجلوها لك مفصلة :

الأولى قوله تعالى : « يوفون بعهد الله » وقد نقل فى تفسيرها قولان :

١ — عن ابن عباس أن المراد بعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته ، وهو ما أشير إليه فى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » .

٢ — أن المراد بالعهد ما أقام الله الحجة العقلية أو السمعية على صحته فى المعتقدات ، وعلى طلبه فى الأعمال حتى صار كأنه عهد بين الله وبين عباده . ويقرب من هذا أن المراد بالعهد الشرائع التى أمر الله بها عباده ، فقد

أقام عليها حجته ، وقررها بآياته على ألسنة رسله عليهم السلام . ولعل القولين مرجعهما واحد ولا خلاف بينهما ، فلقد سبق أن بينا أن ما أشهد الله بنى آدم عليه واعترفوا به فى قوله : « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » هو ماركبه فى فطرهم من إدراك ماهم عليه من حاجة إلى تعهد القدرة الإلهية لهم بالإيجاد والتربية والتكميل ، وما أودعه فيهم من الشعور بأنهم لا قيام لهم إلا بإرادة الحى القيوم ، ولا كمال لهم إلا أن يؤتيهم الله الكمال من واسع رحمته ، وأن كل شىء فيهم شاهد بأن ربهم الله ، ولا متصرف فيهم وفى هذا العالم أجمع إلا هو وحده لاشريك له ، فتكون شهادة حال .

٢ — والقول الثانى ، وهو راجع إلى هذا القول ، أن المراد بعهد الله ما أقام الله تعالى الحجة القاطعة على صحته أو على لزومه ووجوبه ، وذلك يشمل جميع التكاليف . وكأن التعبير عنها بأنها عهد الله إشارة إلى أنه لما كان من شأن العبد الخاضع لربه أن يعترف بما قرر حقيته ، ويمتثل ما أوجبه وفرضه ، وأنه لامندوحة له أن يكون مطيعا لخالقه ، وأن من رحمة الله بعبده أن يتعهده بالهداية والإرشاد ، كان مايقوم عليه البرهان القاطع والحجة البينة بمثابة عهد ارتضاه الطرفان وأقراه بينهما ، ويكون القيام به امتثالا واعترافا ، وفاء بذلك العهد الذى ينبغى أن يكون مستقرا لامحالة بين العبد وربه ؛ وهذا ولاشك معنى عام شامل لكل فروع الشريعة وأصولها ، فما من باب من أبواب الشرع ولا فضيلة فى الخلق ولا عدالة فى المعاملة ولا مجاملة فى المعاشرة إلا وهو داخل فى عهد الله ، والقيام به من باب الوفاء بعهد الله . وإنك لتجد فى إضافة العهد إلى الله من تربية الداعية للامتثال والحفز على الوفاء ما هو غنى عن البيان ، فهو عهد إن لم يكف فيه أنه عهد فيكفيه أنه عهد الله ، ولفظ الجلالة متضمن لكل صفات العظمة والجلال . فهو مجمع الصفات المتجلية فى أسمائه الحسنى عز وجل ، وأيضا فإنه لايسمى الشخص موفيا بعهد الله إلا إذا قام بكل ماكلفه به الله ، فإن من حلف على أشياء لايخرج عن الحنث ولا يسمى بارا فى يمينه

إلا إذا أتى بها جميعها ، فالإخلال بشيء واحد منها يسمى نكثا لليمين وحنثا فيه ونقضا للعهد .

أما الثانية من الصفات التسع فهي ماذكر في قوله تعالى : « ولا ينقضون الميثاق » وهو وإن كان قريبا من الوصف الأول وهو الوفاء بعهد الله إلا أن بينهما شيئا من الفرق ، فالأول ظاهر فيما أمر الله به ابتداء ، والثاني يتبادر منه ما أكده المرء بميثاق أعطاه على نفسه ، سواء أكان فيما بينه وبين ربه كالأيمان والنذور ، أو بينه وبين الخلائق كأنواع العقود والمعاهدات . وأيضا فإن قوله : « ولا ينقضون الميثاق » فيه تأكيد لاستمرار وفاء العهد المستفاد من صيغة الجملة الفعلية التي للاستقبال ، فقد قرر علماء البلاغة أنها تشعر بالاستمرار ، ولكن التصريح بأنهم لا ينقضون الميثاق أوفى بالدلالة على ذلك . ولقد جاء الحث على وفاء العهد والتنفير من نقض المواثيق في غير ما آية وحديث ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » وقال تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » أي فآذنهم بأن ما بينك وبينهم من عهد قد نبذ بسبب ما بدر منهم ، ولا تأخذهم غيلة وعلى غرة . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له » وروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى عهداً ثم غدر ، ورجل استأجر أجيرا استوفى عمله وظلمه أجره ، ورجل باع حرا فاسترق الحر وأكل ثمنه » وتجمع العقول والشرائع على استنكار الغدر مهما كانت دواعيه وفوائده ، روى أن ملكا أعياه خارج عليه فلم ير بدأ من أن يؤمنه ليأمن شره ، فوثق به الخارج وأسلم قياده ، فغدر به ، فلما اشتفى منه وأمن على مملكته خاطب بعض خواصه مبتهجا فقال: كيف رأيت ، لقد استرحنا من هذا الخارج ؟ فأجابه بأن ما خسرته أيها الملك أضعاف ما ربحته بالراحة منه ، فقد أضعت الثقة بعهدك فلا يطمئن إليك بعدها أحد ، فكان سبباً عظيما لأسفه وندامته

والصفة الثالثة هى ما ذكر فى قوله تعالى : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » . وهذا وصف عام يتناول أحوالا عديدة قد أمر الله بصلتها ، ففيه صلة الرحم ، وصلة القرابة ، وحسن الجوار ، وإكرام الجار ، ومراعاة حقوق أخوة الإيمان المذكورة فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وفيه صلة الأغنياء للفقراء بالإحسان إليهم ، والعطف على الأيتام والحنو عليهم ، وفيه التواد بين الناس ، وفيه ـ وهو من أعظمها ـ صلة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمناصرة والمؤازرة ونصرة دينه ، ومحبته حتى يكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين ، بل أحب إليه من نفسه ، وفيه ـ وهو أعمها ـ صلة الإيمان بالعمل والإحسان . فإذا قيل فى تفسير الآية بواحد من هذه المذكورات فالآية متسعة لجميعها ، ولا وجه لتضييق الفائدة مع اتساع الآية للجميع ، فيدخل فيه جميع الحقوق الواجبة الرعاية بين العباد ، بل حتى الرفق بالحيوان وما ماثل ذلك . ولقد يقال : أليس هذا داخلا فى الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق ، لا سيما إذا فسر العهد بالشرائع التى أمر الله بها ؟ أليس هذا ومابعده داخلا فيما أمر الله به فى شرائعه ؟ وجوابه أن هذا تقرير وتنصيص على أهم الأمور التى قد يغفل عنها بعض المكلفين مع أهمية شأنها ، ومقام الإرشاد وتربية النفوس لا يكفى فيه عام عن خاص ولا مجمل عن مفصل ، فذكر هذه الصفة وما بعدها للإشادة بها ، وتربية النفوس على الأخذ بها والتزامها .

والرابعة والخامسة ما فى قوله تعالى : « ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب » . والمعنى فيهما أن هذه الصفات السابقة على جلالتها إنما تكون موجبة لرضاء الحق واستحقاق المثوبة ودخول صاحبها فى أولى الألباب المتذكرين الذين علموا أن ما نزل إلى محمد من ربه الحق ، إذا كان الباعث لهم على الإتيان بها خشية ربهم وخوفهم من حسابه يوم يقوم الناس لرب العالمين . والخشية والخوف متقاربان فى المعنى وإن فرق بعضهم بينهما ببعض الفروق ، مثل أن الخشية خوف يصحبه تعظيم وإجلال للمخشى وإن كان الخاشى أيضا عظيما ، والخوف يرجع إلى ضعف الخائف وإن كان المخوف

منه أمراً يسيرا ، ومثل أن الخشية ترجع إلى من يصدر عنه الأمر الضار المؤلم ، والخوف يتعلق بنفس ذلك الأمر المؤلم أو بمصدره ، تقول : خفت الأسد وخفت اغتياله ، ولا تقول : خشيت الأسد ، ولا يقال: خشيت اغتياله إلا على وجه التوسع ، غير أن الاستعمال الفصيح قد جاء فيه الوجهان ، فقد قال تعالى : «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق» إلا أن إشعار الخشية باستعظام المخشى منه ، والخوف باستصغار الخائف أمر نفسه ، يكاد يكون واضحا فى أغلب الاستعمالات . وقد عرفت أن المراد بهذين الوصفين لفت النظر إلى أن محل الاعتداد شرعا بما ذكر من الصفات إنما هو حينما يكون الباعث عليها امتثال أمر الله .

والصفة السادسة ما فى قوله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم » . والصبر ملاك العبادات ، بل مجمع الفضائل كلها . وقد ورد فيه « الصبر نصف الإيمان » .. وقد ذكر فى القرآن الكريم نيفا وسبعين مرة . ولقد قيد بقوله : « ابتغاء وجه ربهم » لأن الصبر كثيرا ما تدعو إليه دواع هى من حظوظ النفس ، كالصبر تجلدا ، والصبر حبا للمحمدة ، والصبر اتقاء شماتة الأعداء ، والصبر لعلمه أن الجزع لا يعيد عليه فائتا ، وليس شىء من هذا بالصبر المحمود فى نظر الشرع ، وإنما الصبر الذى أثنى الله عليه وحث عليه ودعا إليه هو الصبر ابتغاء وجه الله أى طلبا لمرضاته ، ويقع هذا على وجوه : أحدها أن يصبر على البلاء لأنه قسمة من الحكيم العلام يجب الخضوع لها والإذعان رضا بحكم قاسمها . وثانيها أن يصبر على ما يكرهه لعلمه أنه من تصرفات الحكيم العليم الذى لا يفعل إلا عن حكمة . وكل ما صدر منه فهو خير وجميل فى ذاته وموافق للمصلحة العامة والنظام العالمى ، فيكون جمالا مرضيا محبوبا . وثالثها أن يصبر لأن الله أمره بالصبر ، فهو يرجو ثواب الله بامتثال أمره . ورابعها ـ ولعله أعلاها ـ أن يصبر عن رضا بل عن حب لمن اختصه بهذه التصرفات ، فهو يرى فيها تذكيرا بالعظمة الإلهية ، فينتقل نظره من البلية إلى المبتلى بها فيستغرق فى شهوده ويتلذذ بتذكره ، على نسق ما يقول المحب

لحبيبه : هذه هى الكلمة التى يلذ لها سمعى وإن ضمنت شتمى . ولعل هذا المقام الأخير يستشعر به من قوله تعالى : « ابتغاء وجه ربهم » فكأنهم رأوا فيما أصابهم مايجعلهم يحصرون كل تفكيرهم فى تذكر جلال ربهم حتى كأنهم يشاهدونه ، فهم يبتغون بالصبر شهود وجه ربهم ، وهذا مقام ذوقى من ذاقه عرفه . وفى اختيار صيغة الماضى فى قوله « صبروا » إشارة إلى أن فضيلة الصبر ينبغى أن تكون حاصلة مستقرة ثابتة لا تزول ولا تتزلزل ، وأما الأعمال التى سبقت فعبر عنها بصيغة المضارع لأنها تتجدد حينا بعد حين لكل مناسبة كالوفاء بالعهد ، ووصل ما أمر الله به أن يوصل .

والصفة السابعة والثامنة ما فى قوله تعالى : « وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » وإن أكثر ما تذكر الصلاة بلفظ أقام ، للإشارة إلى أن المطلوب فى الصلاة استيفاء أركانها وإقامة أعمالها حتى تكون كالبناء المتماسك القائم على أحسن حال وأجمل هيئة . وحسبك فى هذا ما روى من قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى أساء صلاته : « صل فإنك لم تصل » فقد جعل العمل الذى لم يستوف ما طلب منه هدرا ملغيا كأنه لم يكن . وكذلك أكثر ما تذكر الصلاة مقترنة بالزكاة . وهذا ما جاء هنا فى قوله : « وأنفقوا مما رزقناهم » وفى التعبير بقوله : « مما رزقناهم » تربية لداعية الإنفاق ، فكأنه يقول لهم : إن ما دعوناكم للإنفاق منه هو رزق أغدقناه عليكم فلا عذر لكم فى مخالفة أمرنا والشح به على عبادنا . وقوله : « سرا وعلانية » لبيان أن الإنفاق على كل حال حسن جميل ، وقد يطلب كل منهما فى مقامه اللائق به ، فربما كان الإنفاق فى السر أفضل حينما يخشى الرياء أو يكون المنفق عليه يستحى ويتأذى من إعلان إعطائه ، وقد يكون الإنفاق علنا أفضل كما إذا ظن أن عمله سيكون قدوة حسنة لغيره . ومنهم من حمل الإنفاق سرا على الصدقة النافلة ، والإنفاق علنا على الزكاة المفروضة ، وهو وجيه أيضا . وقد جاء فى حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » : « .. ورجل أنفق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »

والصفة التاسعة فى قوله تعالى : « ويدرءون بالحسنة السيئة » ومعنى يدرءون يدفعون ، وذلك أيضا يجيء على وجوه ، فمنها : أن يقابل الشر بالخير كما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس الإحسان أن تحسن لمن أحسن إليك، وإنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك » . ومنها أن ينهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة . ومنها أن يستل بغض المبغض بالمعروف حتى يصيره خيرا بعد أن كان شريرا . ومنها أنه إذا بدرت منه سيئة أتبعها بالحسنة حتى يغفرها الله له « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

وهذه هى الصفات التى وصف الله بها عباده المتقين بعد أن وصفهم بأنهم أولو الألباب الحقيقون بأن يتذكروا وتنفعهم الذكرى ، والجديرون بأنهم علموا أن ما أنزل إلى النبى صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق . وقد أخبر بعد ماساق صفاتهم الجليلة ونعوتهم الجميلة بأن لهم عقبى الدار . وإعادة ذكرهم بقوله : « أولئك » كأنه ليشير إليهم حتى يراهم العقل شاخصين بصفاتهم السابقة ، فيفيض عليهم هذا الجزاء الأوفى من أجل تلك الصفات التى جلاهم بها . ومعنى «عقبى الدار» : العاقبة الجميلة لهذه الدار التى لا تخلو من الأكدار ، فهى عاقبة خالية من أكدار هذه الحياة ، وهى عاقبة خالدة مستقرة ، فهى الحياة الحقيقية ، وأما هذه الحياة فهى متاع زائل ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان . فهذه الكلمة على حد قول الناس فى مخاطباتهم : فلان هو الفائز فى النهاية ، أو هو الذى كسب آخرا ، وأمثال ذلك ، ولله المثل الأعلى .

وأردفها بقوله تعالى : « جنات عدن » ، وهى منزلة وسط الجنة ، أو جنات عدن بمعنى الإقامة والاستقرار ، من عدن بالمكان أقام به واستقر فيه ، ومنه المعدن لمستقر الجواهر والنفائس . قال تعالى : « يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » ، وهاهنا يتبادر أن تقوى الآباء تفيد أبناءهم وأزواجهم وذراريهم إذا كانوا صالحين أى مؤمنين وإن قصروا عن أعمال آبائهم بعض التقصير ، فيصح أن يكرم الله عباده الأتقياء الصالحين برفع

درجات ذريتهم وأزواجهم إلى منازلهم وإن قصروا عنهم ، حتى يكون للتكريم وجه ، فإنه إذا كان الذرارى لا ينالون تلك المنزلة وهى جنات عدن إلا إذا عملوا لها العمل الكامل ، فمن أين يكون تكريم آبائهم بتكريمهم ؟ فهم حينئذ يكونون قد أكرموا لأنهم استحقوا ذلك بأنفسهم . نعم قيد الصلاح أى الإيمان لا بد منه ، لقوله تعالى : « ومن صلح » ولا يمنع هذا قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى » فإن هذه المنزلة التى نالها أولئك المؤمنون المقصرون ، نالوها بفضل من الله لا باستحقاق ، وفضل الكريم واسع ، وإن كان لا ينبغى الاعتماد على هذا والاستخفاف بالتكاليف ، فانه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . وقوله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب » إشارة إلى التكريم والتحية التى يمنحهم الله إياها ، حتى يفوزوا بالنعيم والتكريم . وقوله : « من كل باب » يحتمل أن يكون إشارة إلى سعة ما أعد لهم حتى صار له أبواب عدة يتوافد عليهم منها الملائكة للتحية . ويحتمل أن تكون الأبواب إشارة إلى تعدد أبواب البر والخير والتقوى التى قاموا بها فى دنياهم ، فاستحقوا بسببها تحية الملائكة وتوافدهم عليهم وقوله : « سلام عليكم بما صبرتم » أى يحيونهم بهذه المقالة ، وكان اختيار السلام لأنه بمعنى الأمان من كل مايخاف . فكأنه يقال لهم : قد أصبحتم بأمن من كل المخاوف ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون . وقوله : « بما صبرتم » إنما خص الصبر بالذكر لما قدمنا لك من أن الصبر عماد التكاليف كلها وقطب دائرتها ، فما من تكليف إلا ومرجعه إلى الصبر على عمل شاق ، أو الصبر عن مشتهى تميل اليه النفس . « فنعم عقبى الدار » ثناء أجل ثناء على ما فازوا به بما صبروا .

أما النوع الثانى : وهم المشركون ، فقد ذكر الله عز وجل لهم صفات هى فى غالب أمرها تناقض صفات المؤمنين ، ولا يخفى عليك مغزاها ولا معناها . وهكذا لما ذكر تعالى صفات السعداء وذكر ما يترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية ، أتبعها بذكر أحوال الأشقياء وذكر ما يترتب عليها من

الأحوال المخزية الأليمة وأتبع الوعد بالوعيد ، والثواب بالعقاب ، ليكون البيان كاملا ؛ فقال تعالى « والذين ينقضون عهد الله » أى فيعملون بخلاف موجبه ، والنقض التفريق « من بعد ميثاقه » أى الذى أوثقه الله عليهم من الإقرار والقبول « ويقطعون ما » أى الذى « أمر الله به أن يوصل » وذلك فى مقابلة « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل ، والمراد به قطع ما يوجب الله تعالى وصله لما له من المحاسن الجلية والخفية التى هى عين الصلاح ، ويدخل فى ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بالموالاة والمعاونة ، ووصل المؤمنين ، ووصل الأرحام ، ووصل سائر من له حق « ويفسدون » أى يوقعون الفساد « فى الأرض » أى فى أى جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعاء إلى غير دين الله تعالى « أولئك » أى البعداء البغضاء « لهم اللعنة » أى الطرد والبعد « ولهم سوء الدار » والدار لهم هى جهنم ، وليس لهم فيها إلا ما يسوء الصائر لها ، ولما حكم تعالى على من نقضوا عهده فى قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة ، فكأنه قيل : لو كانوا أعداء الله لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات فى الدنيا ، فأجاب الله تعالى بقوله « الله يبسط الرزق » أى يوسعه « لمن يشاء ويقدر » أى يضيقه لمن يشاء سواء فى ذلك الطائع والعاصى ، ولا تعلق لذلك بالكفر والإيمان ، فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن موسعا عليه دون الكافر ، فالدنيا دار امتحان ؛ ولما كانت السعة مظنة الفرح إلا عند من وفقه الله تعالى .. قال الله تعالى « وفرحوا » أى كفار مكة فرح بطر « بالحياة الدنيا » أى بما نالوه فيها لا فرح سرور بفضل الله والعافية عليهم ، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة « وما الحياة الدنيا » أى بكمالها « فى الآخرة » أى فى جنبها « إلا متاع » أى حقير فإنه يتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهى ما يتعجله من ثمرات أو شربة ماء سويق أو نحو ذلك .

٢٧ — وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ

إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ .

٢٨ — الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .

٢٩ — الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ .

٣٠ — كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ .

٣١ — وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

٣٢ — وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ .

٣٣ — أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ .

٣٤ — لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ .

يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة : « ويقول الذين كفروا » من أهل مكة « لولا » أى هلا « أنزل عليه » أى على هذا الرسول « آية » أى علامة بينة « من ربه » أى المحسن إليه ، كالعصا واليد لموسى ، والناقة لصالح ، أى لنهتدى به فنؤمن به ؛ وقد أمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله « قل » أى لهؤلاء المعاندين « إن الله يضل من يشاء » إضلاله فلا تغنى عنه الآيات شيئا وإن ترك كل آية « ويهدى » أى يرشد « إليه » أى إلى دينه « من أناب » أى رجع إليه ، كأبى بكر الصديق وغيره ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم ، ولو حصلت آية واحدة فلا تشتغلوا بطلب الآيات ، ولكن تضرعوا إلى الله تعالى فى طلب الهدايات ، وقوله تعالى « الذين آمنوا » بدل من « أناب » ، أو خبر مبتدأ محذوف « وتطمئن » أى تسكن « قلوبهم بذكر الله » أى أنسا به واعتماداً عليه ورجاء منه ؛ أو بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته ؛ وبذكر دلائله الدالة على وجوده ، أو بالقرآن الذى هو أقوى المعجزات ، وقال ابن عباس : يريد : حين سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت ، وقد قال الله تعالى فى سورة الأنفال « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ، والوجل ضد الاطمئنان فكيف الجمع بين هاتين الآيتين ؟ أجيب بأنهم إنما ذكروا العقاب ولم يأمنوا أن يقدموا على المعاصى فهناك يحصل الوجل ، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم إلى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما « ألا بذكر الله » أى الذى له الجلال « تطمئن » أى تسكن « القلوب » ويثبت اليقين فيها « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم » اختلف العلماء فى تفسير « طوبى » ، فقال ابن عباس : فرح لهم وقرة عين ، وقال عكرمة : نعمة لهم ، وقال قتادة : حسنى لهم ، وقال النخعى : خير لهم وكرامة ، وقال سعيد بن جبير : طوبى اسم الجنة بالحبشية ،

قال الرازى : وهذا القول ضعيف لأنه ليس فى القرآن إلا العربى لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر ؛ وعن أبى هريرة وأبى الدرداء : طوبى شجرة فى الجنة ، وهو مثل القول الأول ، وفى رواية عن أبى هريرة أنه قال : إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، وقيل : طوبى فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا لضمه ما قبلها ، مصدر لطاب كبشرى وزلفى ، ومعنى طوبى لك « وحسن مآب » أى حين المنقلب أصبت خيراً وطيبا « كذلك » أى مثل إرسال الرسل الذى قدمنا الإشارة إليهم فى آخر سورة يوسف وفى غيرها « أرسلناك فى أمة » أى جماعة كثيرة « قد خلت من قبلها » أى تقدمتها « أمم » طال أذاهم لأنبيائهم ومن آمن بهم ؛ واستهزاؤهم بهم فى عدم الإجابة حتى كأنهم تواصوا بهذا القول ، فليس ببدع إرسالك إليها « لتتلو » أى لتقرأ « عليهم » أى على أمتك « الذى أوحينا إليك » من القرآن وشرائع الدين « وهم » أى والحال أنهم « يكفرون بالرحمن » أى بالبليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شىء ، وقال قتادة : هذه الآية مدنية نزلت فى صلح الحديبية ، وذلك أن سهل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فقال سهل بن عمرو : لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنى مسيلمة الكذاب ، اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ، فهذا معنى قوله « وهم يكفرون بالرحمن » أى إنهم يكفرونه ويجحدونه ، قال البغوى : والمعروف أن الآية مكية ، وسبب نزولها أن أبا جهل سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الحجر يدعو يا ألله يا رحمن ، فرجع إلى المشركين فقال : إن محمداً يدعو الله ويدعو إلها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى : قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى ؛ وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟ قال : الله تعالى « قل » لهم يا محمد إن الرحمن الذى أنكرتم معرفته « هو ربى لا إله إلا هو

عليه توكلت » أى اعتمدت عليه فى أمورى كلها « وإليه متاب » أى مرجعى ومرجعكم ، وروى أن أهل مكة قعدوا فى فناء الكعبة فأتاهم النبى صلى الله عليه وسلم وعرض الإسلام عليهم ، فقال له عبد الله بن أمية المخزومى : سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا ، واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها ، وأحى لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أم باطل ؟ فقد كان عيسى يحيى الموتى ، وسخر لنا الريح حتى نركبها إلى البلاد ، فقد كانت الريح مسخرة لسليمان ، فلست بأهون على ربك من سليمان ؛ فنزل قوله تعالى « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال » أى نقلت عن أماكنها « أو قطعت » أى شققت « به الأرض » من خشية الله تعالى عند قراءته وجعلت أنهاراً وعيونا « أو كلم به الموتى » أى بأن يحيوا ، وجواب لو محذوف أى لكان هذا القرآن فى غاية ما يكون من الصحة واكتفى بمعرفة السامعين مراده ، وهذا معنى قول قتادة ، قال : لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم ، وقيل تقديره : لما آمنوا ، ونقل عن الفراء أن جواب لو هى الجملة من قوله « وهم يكفرون بالرحمن » ، أى لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى كفروا بالرحمن ولم يؤمنوا بما سبق من علمنا فيهم ، وحذفت التاء فى قوله تعالى « أو كلم به الموتى » وثبتت فى الفعلين قبله لأنه من باب التغليب ، لأن الموت يشمل المذكر والمؤنث « بل لله الأمر » أى القدرة على كل شىء « جميعا » وهذا إضراب عما تضمنته « لو » من معنى النفى أى بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآية ، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى بأنه لا يلين قلوبهم ، ويؤيد ذلك قوله تعالى « أفلم ييأس الذين آمنوا » عن إيمانهم ما رأوا من أحوالهم ؛ وذهب أكثرهم إلى أن معناه : أفلم يعلم الذين آمنوا « أن » أى بأنه « لو يشاء الله » أى الذى له صفات الكمال « لهدى الناس جميعا » أى بالإيمان من غير آية « ولا يزال الذين كفروا » أى جميع الكفار « تصيبهم بما » أى بسبب ما « صنعوا قارعة » أى نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا : تارة بالجدب ، وتارة بالسلب ، وتارة بالقتل ، وتارة بالأسر ،

وغير ذلك ، واختلف فى الكفار على قولين : قيل : أراد به جميع الكفار لأن الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من ذلك أوجبت حصول الغم فى قلب الكل ، وقيل : المراد بالكفار من أهل مكة ، والألف واللام للمعهود السابق ، ويدل لهذا قول ابن عباس : أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها إليهم « أو تحل » أى تنزل نزولا ثابتاً تلك القارعة « قريباً من دارهم » أى فتوهن أمرهم ، وقيل معناه : أو تحل أنت يا محمد بجيشك قريبا من دارهم بمكة كما حل بالحديبية « حتى يأتى وعد الله » أى بالنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة ، أو بالنصر على جميع الكفرة فى زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك لأنه لا يبقى على الأرض كافر ، وقيل : أراد بوعد الله يوم القيامة لأن الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم « إن الله لا يخلف الميعاد » لامتناع الكذب فى كلامه تعالى ، ولما كان الكفار سألوا هذه الآيات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تعالى تسلية له وتصبرا له على سفاهة قومه « ولقد استهزىء برسل من قبلك » كما استهزىء بك « فأمليت للذين كفروا » أى أطلت المدة بتأخير العقوبة « ثم أخذتهم » بالعقوبة « فكيف كان عقاب » أى هو واقع موقعه فكذلك افعل بمن استهزأ بك ، والإملاء الإمهال ، وهذا استفهام معناه التعجب وفى ضمنه وعيد شديد لهم ، وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ، ثم إنه تعالى أورد على المشركين ما يجرى مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال تعالى « أفمن هو قائم » أى رقيب « على كل نفس بما كسبت » أى علمت من خير وشر ، وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات ، ولا بد لهذا الكلام من جواب فإن (من) موصولة صلتها هو قائم والموصول مرفوع بالابتداء وخبره محذوف تقديره : كمن ليس بهذه الصفة وهى الأصنام

التي لا تنفع ولا تضر ، ودل على هذا المحذوف قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء » ونظيره قوله تعالى « أفمن شرح الله صدره للإسلام » الآية .. تقديره : كمن قسا قلبه ، يدل عليه : فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وقد جاء مبينا كقوله تعالى : أفمن يخلق كمن لا يخلق ، وقوله تعالى : «قل سموهم» فيه تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستعجلونها ، والمعنى : سموهم بأسمائهم الحقيقية ، فإنه إذا عرفت حقائقهم أنها حجارة وغير ذلك مما هو مركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول ، ثم قل : أرجعتم عن ذلك إلى الإقرار بأنهم من جملة عبيده ؟ « أم تنبئونه » أى تخبرونه « بما لا يعلم » وعلمه محيط بكل شيء « فى الأرض » من كونها آلهة ببرهان قاطع « أم » تسمونهم شركاء « بظاهر من القول » أى بحجة إقناعية تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشيء ، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادى على نفسه بالإعجاز ، ولما كان التقدير : ليس لهم على شيء من هذا برهان قاطع ولا قول ظاهر بنى عليه قوله تعالى : « بل زين » أى وقع التزيين « للذين كفروا مكرهم » أى أمرهم الذى أرادوا به ما يراد بالمكر من إظهار شيء وإبطال غيره ، وذلك أنهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك ، وليس لهم فى الباطل إلا تقليد الآباء ، وأظهروا أنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ولتشفع لهم وهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا ، فصار كل ذلك من فعلهم فعل الماكر « وصدوا » غيرهم « عن السبيل » أى طريق الهدى الذى لا يقال لغيره سبيل ، فإن غيره عدم بل العدم خير منه ، فهم لم يسلكوا السبيل ولا تركوا غيرهم يسلكه فضلوا وأضلوا ، وليس ذلك بعجيب فإن الله أضلهم « ومن يضلل الله » الذى له الأمر كله بإرادة إضلاله « فماله من هاد » ولما أخبر الله بتلك الأمور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى : « لهم عذاب فى الحياة الدنيا » بالقتل والأسر والذم والإهانة وغنيمة المسلمين لأموالهم وباللعن ونحو ذلك مما فيه غيظهم « ولعذاب الآخرة أشق » أى أشد فى المشقة بسبب القوة والشدة وكثرة الأنواع والدوام وعدم الانقطاع ؛

ثم بين تعالى أن أحداً لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى : « وما لهم من الله من واق » أى مانع يمنعهم إذا أراد بهم سوءاً فى الدنيا وفى الآخرة .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثالث من سورة الرعد ، وقد تضمن ماتضمن من وصف للمؤمنين والكافرين ـ ومن رد على المشركين وتوبيخ لهم ، وإشادة بالمؤمنين ومدح لإيمانهم وبيان لحسن عاقبتهم ، ومن إلزام للرسول بدعوة الكافرين إلى الجادة ، وتنويه بشأن القرآن كتاب الرسالة ودستورها ، وبيان لعاقبة المكذبين برسالات الرسل ، ومصيرهم ، وبشرك المشركين وضلالهم والعذاب الشديد الذى سوف ينزل بهم فى الآخرة والأولى .

الربع الرابع من سورة الرعد

٣٥ — مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ .

٣٦ — وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ .

٣٧ — وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ .

٣٨ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ .

٣٩ — يَمْحُو ٱللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ .

٤٠ — وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ .

٤١ — أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

٤٢ — وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ .

٤٣ — وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ .

تسع آيات كريمة ، اشتملت على وصف ثواب المؤمنين فى الآخرة ، وعلى وصف عقاب الكافرين ، كما اشتملت على وصف فرح فريق بنزول القرآن الكريم واكتئاب فريق آخر ، وعلى تلخيص جميل لرسالة محمد صلوات الله عليه فى قوله تعالى : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب » . . ثم يصف الله عز وجل القرآن الكريم بأنه أنزل حكما عربيا ، وعلى أمر الله عز وجل لرسوله الكريم بالوقوف فى صلابة فى وجه المشركين ، وعدم الخضوع لأهوائهم ، فلئن اتبع أهواءهم ما كان له من عذاب الله من واق ولا حافظ . . . كما ترد الآيات على المشركين فى مزاعمهم التى احتجوا بها ، من تعييرهم الرسول بكثرة النساء ، ومن اقتراحهم عليه أن يأتى بآيات يؤمنون برسالته من أجلها . . . ثم يتحدث الله عز وجل عن النسخ الذى كان فى بعض الآيات وأن ذلك لحكمة أرادها الله . . . وتبين الآيات أن الله عز وجل لو أجاب طلب المشركين الذين

استعجلوا العذاب فأنزل بهم العذاب وذاقوا مرارته ، أو توفاهم ليلقوا حسابهم عند الله ، لندموا غاية الندم .. وعلى الرسول البلاغ وعلى الله الحساب ، ثم بين الله عز وجل لهم الدليل ساطعا واضحا على صدق رسالة محمد وحقيتها ، وهو هذه الفتوحات المتتالية التى نصر الله عز وجل فيها رسوله الكريم على الكفر والكافرين ، فاستولى على الكثير من بلادهم ... ومهما مكر الكافرون والمشركون فقد كان من قبلهم من الأمم السابقة أشد مكرا ، فمكر الله بهم ودمرهم ، ولله المكر جميعا ، إنه القادر على كل شىء ، القادر على نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، القادر على أن يجعل المؤمنين يرثون الأرض ومن عليها ، ويجعل لهم عاقبة الدار .. إن الشاكين فى رسالة محمد حسبهم الله ، وكفى بالله شهيداً بينهم وبين رسوله ، بل كفى بأهل الكتاب شهيداً يشهد بصدق محمد فى رسالته ، وبأنه خاتم الأنبياء والمرسلين جميعا ... صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .. يقول الله عز وجل ، وتبارك وتعالى ، فى هذه الآيات « مثل الجنة التى وعد المتقون » التقدير : فيما قصصنا عليكم مثل الجنة ، أو التقدير مثل الجنة التى وعد المتقون جنة تجرى من تحتها الأنهار ، ويصح أن يكون « مثل الجنة .. تجرى من تحتها الأنهار » جملة مكونة من مبتدأ وخبر ، أو الجملة هى : « مثل الجنة .. أكلها دائم » ، والأكل : هو المأكول ، ودوام الأكل لأنه خارج عن العادة ، فقد وصف الله تعالى الجنة بصفات ثلاث : الأول أنها تجرى من تحتها أى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ، والثانى : أن أكلها دائم لا ينقطع أبدا بخلاف جنة الدنيا ، والثالث قوله تعالى : « وظلها » أى دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس ولا غيرها إذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ، ثم أنه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث بين تعالى أنها للمتقين بقوله تعالى : « تلك » أى الجنة العالية الأوصاف « عقبى » أى آخر أمر « الذين اتقوا » أى الشرك ، كرر الوعيد للكافرين بقوله تعالى : « وعقبى » أى منتهى « الكافرين النار » أى يخلدون فيها ، واختلف فى قوله تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب » على قولين :

الأول : أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالكتاب القرآن . « يفرحون بما أنزل إليك » من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والأحكام والقصص « ومن الأحزاب » أى الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار « من ينكر بعضه » وهذا قول الحسن وقتادة ، فإن قيل : الأحزاب ينكرون كل القرآن أجيب بأنهم لا ينكرون كل ما فى القرآن لأنه ورد فيه إثبات الله تعالى وإثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الأنبياء ، والأحزاب لا ينكرون كل هذه الأشياء .

والقول الثانى : أن المراد بالكتاب : التوراة ، وبأهله : الذين أسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا بنجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من الحبشة ، وفرحوا بالقرآن لأنهم آمنوا به وصدقوه ، والأحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين .

وقيل : كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء ، فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره فى القرآن فرحوا به ، فأنزل الله تعالى: والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ، يعنى مشركى مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتاب الصلح : « بسم الله الرحمن الرحيم قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعنى مسيلمة، فأنزل الله تعالى : وهم بذكر الرحمن هم كافرون ؛ ثم إنه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج إليه المرء فى معرفة المبدأ والمعاد وبينه بألفاظ قليلة فقال : «قل» أى يا أكرم الخلق على الله تعالى « إنما أمرت » أى وقع إلى الأمر الجازم الذى لا شك فيه ولا تغيير ممن له الأمر كله « أن أعبد الله » أى أوحده ولذلك قال : « ولا أشرك به » شيئا « إليه » وحده « أدعو وإليه مآب » أى مرجعى للجزاء إلا إلى غيره « وكذلك » أى كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم كذلك « أنزلناه » أى القرآن « حكما » والحكم فصل الأمر على الحق « عربيا » بلسانك ولسان قومك ، وإنما سمى القرآن حكما لأن فيه جميع التكاليف والحلال

والحرام والنقض والإبرام ، فلما كان سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة ؛ وروى أن المشركين كانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملة آبائه فحذره منهم ومن دعواتهم « ولئن اتبعت أهواءهم » أى الكفار فيما يدعونك إليه من ملتهم « بعد ما جاءك من العلم » أى بأنك على الحق وإن قبلتك هى الكعبة « مالك من الله من ولى » أى ناصر « ولا واق » أى مانع من عذابه ، قال ابن عباس : الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد أمته .

ونزل لما عير النبيَّ صلى الله عليه وسلم الكفارُ بكثرة النساء : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا » أى نساء ينكحوهن ، فكان لسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية، وكان لداود عليه السلام مائة امرأة « وذرية » أى أولادا فأنت مثلهم.. وكانوا يقولون أيضاً: لو كان رسولا من عند الله لكان أى شيء طلبناه منه من المعجزات أتى به ، فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى : « وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » أى بإرادته ؛ لأن المعجزة الواحدة كافية فى إزالة العذر والعلة ، وفى إظهار الحجة والبينة ، وأما الزائد عليها فهو مفوض إلى مشيئة الله تعالى إن شاء أظهرها وإن لم يشأ لم يظهرها ، لا اعتراض لأحد عليه فى ذلك .

ولما توعدهم صلى الله عليه وسلم نزول العذاب وظهور النصر له ولقومه وساءهم ذلك .. قالوا : لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه ، فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى : « لكل أجل » أى مدة « كتاب » أى مكتوب قد أثبت فيه أن أمر كذا يكون فى وقت كذا من الثواب والعقاب والأحكام ، والإتيان بالآيات وغيرها إثباتا ونسخا على ما تقتضيه الحكمة ، ولما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمر بخلافه غدا ، وما سبب ذلك إلا أنه يقول من تلقاء نفسه.. رد الله تعالى عليهم بقوله تعالى : « يمحو الله مايشاء » محوه من الشرائع والأحكام وغيرها بالنسخ غير رفعه « ويثبت » مايشاء إثباته من ذلك بأن يقره ويمضى فيه حكمه كقوله تعالى :

« ما ننسخ من آية » إلى قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » ...
وفى هذه الآية قولان :

أحدهما أنها عامة فى كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ ، وهذا مذهب عمرو ابن مسعود وغيرهما قالوا : إن الله يمحو من الرزق ويزيد فيه ، وكذا القول فى الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر ، وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول : اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها ، وإن كنت كتبتنى على الشقاوة فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة ، فإنك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، ومثله عن ابن مسعود ، وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى بعض الآثار أن الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيرد الله عمره إلى ثلاثة أيام ، والرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيرد إليه ثلاثين سنة ، وروى أن الله تعالى يترك أمره فى آخر ثلاث ساعات تبقى من الليل فينظر فى الساعة منهن فى أم الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو مايشاء ويثبت .

والقول الثانى أن هذه الآية خاصة فى بعض الأشياء دون بعض ، واختلف على هذا القول : فقال سعيد بن جبير وقتادة : يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت مايشاء منها فلا ينسخه ، وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة ، واستدل لهذا بما رواه حذيفة بن أسيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك ، ثم يقول الملك : يارب رزقه ، فيقضى ربك مايشاء ويكتب الملك ، ثم يقول الملك : يارب شقى أم سعيد ؟ فيكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص ، وقال عطية عن ابن عباس : هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يرجع لمعصية الله فيموت على ضلالة ، فهو الذى يمحو والذى يثبت ،

يعمل الرجل بطاعة الله فيموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت ، وقال الحسن : يمحو ما يشاء أى من أجله يذهب به ويثبت من لم يجىء أجله إلى أجله ، وعن سعيد بن جبير قال : يمحو مايشاء من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت مايشاء فلا يغفرها ، وقال عكرمة : يمحو الله مايشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال الله تعالى « فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات » ، وقال السدى : يمحو الله مايشاء يعنى القمر ويثبت مايشاء يعنى الشمس ، بيانه قوله تعالى « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » ، وقال الربيع : هذا فى الأرواح يقبضها الله تعالى عند النوم ، فمن أراد موته أمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه ، بيانه قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الآية . وقيل : إن الله تعالى يثبت فى أول كل سنة حكمها فإذا مضت السنة محاه، وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة ، وقيل: يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة ، وقيل: إن الحفظة يكتبون أعمال بنى آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ماليس فيه ثواب ولا عقاب ، وقيل : هذا فى المحسن والصائب فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة « وعنده » تعالى « أم الكتاب » أى أصل الكتب ، والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشىء أما ، ومنه أم الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة ، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى ، فكذلك « أم الكتاب » هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب ، وفيه قولان :

الأول أنه اللوح المحفوظ الذى لايغير ولا يبدل وجميع حوادث العالم العلوى والسفلى مثبتة فيه ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان الله ولا شىء ، ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق إلى قيام الساعة .

والقول الثانى : أن أم الكتاب أصله الذى لايغير منه شىء ، وهو الذى كتب فى الأزل .

وقال ابن عباس فى رواية عكرمة : هما كتابان : كتاب سوى أم الكتاب يمحو مايشاء منه ويثبت وعنده أم الكتاب لايغير منه شىء ، وعلى هذا فالكتاب

الذى يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذى تكتبه الملائكة على الخلق ، وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال : علم الله ماهو خالق وماخلقه .

ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استعجال السيئة مما توعدوا به ، قال تعالى « وإما نرينك » يامحمد وأكده بتأكيد الأعلام لأنه لاحرج عليه فى ضلال من ضل بعد إبلاغه «بعض الذى نعدهم» أى من العذاب ، وسمى الوعيد وعدا لتنزيلهم إياه فى طلب نزوله منزلة الوعد « أو نتوفينك » أى قبل أن نريك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب « فإنما عليك البلاغ » أى ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم وليس عليك أن تجازيهم ولا أن تأتيهم بالمقترحات ، والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ « وعلينا الحساب » أى علينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم فلا تحفل بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم ، والتقدير : وإما نرينك بعض الذى نعدهم فذلك شافيك من أعدائك ، وإن نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب .

ولما وعد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يريه بعض ما يعده أو يتوفاه قبل ذلك ، بين تعالى أن آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى : « أو لم يروا » أى كفار مكة « أنا نأت الأرض » أى نقصد أرض هؤلاء الكفرة « ننقصها من أطرافها » بما يفتح الله تعالى على المسلمين من ديار الشرك أرضا بعد أرض حوالى أرضهم ، هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة ، وقال مجاهد : هو خراب الأرض وقبض أهلها ، وعن عكرمة قال: هو قبض الناس، وعن الشعبى مثله ، وعن عطاء وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ، ويؤيد هذا ما رواه عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فيسألون فيفتون بغير علم فضلوا وأضلوا ، وقال الحسن : قال عبد الله بن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يقبض ، وقبضه ذهاب أهله ، وقال على : إنما مثل الفقهاء

كمثل الأنف إذا قطعت لم تعد ، وقال سليمان : لا يزال الناس بخير ما بقى الأول حتى يتعلم الآخر ، وإذ أهلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس ، وقيل لسعيد بن جبير : ما علامة هلاك الناس ، قال : هلاك علمائهم ثم أثبت تعالى لنفسه أمراً جليلا ، فقال : « والله » أى الملك الأعلى « يحكم » فى خلقه بما يريد لأنه « لا معقب » أى راد لأن التعقيب رد الشيء بعد فصله « لحكمه » وقد حكم للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار ، وذلك كائن لا يمكن تغييره والمعنى : والله يحكم نافذا حكمه « وهو » عز وجل مع تمام القدرة « سريع الحساب » فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والإجلاء فى الدنيا ، وقال ابن عباس : يريد : سريع الانتقام يعنى حسابه للمجازاة بالخير والشر ، فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بإيصال الثواب إليهم « وقد مكر الذين من قبلهم » أى كفار الأمم الماضية ، قيل : مكروا بأنبيائهم مثل نمروذ مكر بإبراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى ، وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم « فلله المكر جميعا » أى أن مكر جميع الماكرين حاصل بخلقه وإرادته لأنه تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد ، فالمكر لا يضر إلا بإذنه ولا يؤثر إلا بتقديره ، وفيه أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم ، فكأنه قيل : إذا كان حدوث المكر من الله وتأثيره فى الممكور به من الله وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى لا من أحد من المخلوقين ، وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى ، فلله جزاء المكر ، وذلك أنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم « يعلم ما تكسب كل نفس » أى من خير أو شر ، وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك ، فكان الكل من الله فيجازيهم على أعمالهم وفى ذلك وعد وتهديد للكفار الماكرين ، ثم أنه تعالى أكد ذلك التهديد بقوله تعالى « وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » أى العاقبة الممدوحة فى الدار الآخرة ، ألهم أم للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ قال ابن عباس : يريد أبا جهل ، « ويقول الذين كفروا لست مرسلا » أى لكونه لا يأتى بمقترحاتهم مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما أنه قادر عليها ، فكأنه قيل : فما أقول

لهم؟ فقال تعالى : « قل » لهم : « كفى بالله » أى الذى له الإحاطة الكاملة « شهيداً » أى بليغ العلم فى شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن « بينى وبينكم » ليشهدوا بتأييد رسالتى وتصحيح مقالتى لما أظهر لى من الآيات وأوضح من الدلالات ، ويشهد بتكذيبكم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزا ، وهذا أعلى مراتب الشهادة لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الأمر كما شهد به ، والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله ، واختلف فى قوله تعالى : « ومن عنده علم الكتاب » : فعن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى، أى أن كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالإنجيل علم أن محمدا مرسل من عند الله ، لما يجد من الدلائل الدالات على نبوته فيها ، شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم . . وقيل: من الذين آمنوا وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وتميم الدارى ، وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير : ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى ، قال الحسن : لا والله لا يعنى إلا الله ، والمعنى : كفى بالله - الذى لا يستحق العبادة والذى لا يعلم علم ما فى اللوح إلا هو - شهيداً بينى وبينكم وهذا أظهر ، وقيل معناه: إن علم أن القرآن الذى جئتم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والإخبار عن الغيوب وعن الأمم الماضية ؛ فمن علمه بهذه الصفة كان شهيدا بينى وبينكم ، والله أعلم بمراده .

* * *

وبهذا تنتهى سورة الرعد ، وينتهى بانتهائها الآيات التسع التى ذكرت فى الربع الرابع من السورة ، وفى هذه الآيات ما فيها من بيان لعاقبة المؤمنين والكافرين ، ومن وصف لحقيقة الرسالة والقرآن الكريم ، ومن رد على المشركين ومزاعمهم الباطلة وبيان مصيرهم الأليم فى الدنيا والآخرة ، ومكر الله بهم ، ورده على أكاذيبهم ومزاعمهم الباطلة المفتراة ، والاستشهاد على صدق الرسول فيما بلغ به عن ربه بالله عز وجل وبأهل الكتاب الذين يعرفون أن رسالته حق وصدق لامراء فيها .

نظرة عامة فى سورة الرعد

(١)

هذه هى سورة الرعد ، التى نوه الله فيها بالقرآن الكريم ، وبين أن منزله هو الله عز وجل الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، هو الله الذى قدرته فى السموات والأرض ، هو الله الذى شملت قدرته كل شىء ، والذى يحيى ويميت ، والذى تنتظم قدرته بعث الأموات من قبورهم ، كما انتظمت خلقهم لأول مرة .. وهنا يرد الله عز وجل على المشركين والجاحدين والكافرين بالبعث ردا بليغا قويا ، ويرد عليهم فى مزاعمهم الباطلة ، واقتراحاتهم الكاذبة ، ويشرح عقيدة التوحيد شرحا وافيا ، وينعى على المشركين شركهم بالله ، ويضرب الأمثال للمؤمنين والكافرين ، ويبين عاقبة كل من المؤمنين والكافرين .وجزاء كل من المؤمنين والمشركين ، ويصف المؤمنين بأوصافهم ، والمشركين بصفاتهم ، ويؤكد أمر التوحيد ويدعو إليه ، ويبين سفه الشرك وينعى على من أشرك بالله . إلى آخر ما انتظمته السورة من معان جليلة ، ومن دفاع عن التوحيد ليس بعده من دفاع ، ومن نفى للشرك وتقريع عليه . وتسفيه للمشركين وتحذير وإيعـاد لهم .

(٢)

وقد سميت السورة باسم الرعـد ، باسم ظاهرة ضخمة ، من أروع ظواهر الطبيعة التى خلقها الله .. باسم العواصف الرعدية ، التى تحدث من تفريغ كهربائى فى طبقات الجو العليا ، خلال المطر وبين السحب ؛ .. والعواصف الرعدية تبلغ قوتها أكثر من ثلاثة ملايين « فولت » بينما تبلغ قوة الكهرباء العادية التى نستعملها ١٢٠ « فولتا » ، وهذه العواصف الرعدية قادرة على أن تدمر المدن والأشجار والغابات والمزارع . . وكثيراً ما تدمر الطائرات وهى طائرة فى السماء . . وهى أكثر تأثيرا من القنابل الذرية

والهيدروجينية ، وبالعاصفة الرعدية أهلكت ثمود قوم صالح عليه السلام ، الذين ذكرت قصتهم فى سورة هود عليه السلام . .

(٣)

والله الذى يقدر على تسخير العواصف الرعدية فى الجو كيفما يشاء ، قادر على إنزال القرآن وعلى بعث الموتى من القبور ، وكذلك هو قادر على إرسال الرسل إلى الناس مبشرين ومنذرين .

إن سورة الرعد من أجلّ السور المكية ، وأروعها بلاغة وسحرا وبيانا وتأثيراً .. وهى دفاع عن التوحيد مابعده من دفاع .

(١٤)

ســـورة إبراهـــيم

تمهيد

(١)

سورة إبراهيم عليه السلام من السور المكية ، وهى اثنتان وخمسون آية ، وتلى فى ترتيب المصحف سورة الرعد المكية على الراجح أو المدنية على رأى ، والتى تبلغ ثلاثاً وأربعين آية . . وقد سميت هذه السورة باسم إبراهيم عليه السلام ، لأنها اشتملت على ذكر دعوات إبراهيم عليه السلام فى البيت الحرام (الآيات ٣٥ — ٤١) ، كما سميت سورة الرعد باسم الرعد لأنها اشتملت على ذكر الرعد وامتثاله لأمر الله ، وتصريفه بإرادته (الآية ١٣ من سورة الرعد) .

وسورة إبراهيم مكية ما عدا الآيتين : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، « جهنم يصلونها وبئس القرار » ، وآياتها اثنتان وخمسون آية ، وقد نزلت بعد سورة نوح ، ونزلت نوح بعد النحل ، وهى من السور التى نزلت بعد الإسراء بمكة ، فيكون نزولها مثلها بعد الإسراء ، وقبيل الهجرة ، وعلى هذا تكون من السور المكية ، وقيل : إنها من السور المدنية ، وقال الرازى : اعلم أن الكلام فى أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقة الآحاد ، ومتى لم يكن فى السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية ، فنزولها بمكة أو بالمدينة سواء ، إنما يختلف الغرض فى ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ ، فيكون فيه فائدة عظيمة .

(٢)

وهذه السورة تشبه سورة الرعد فى غرضها وفى افتتاحها بالحروف التى افتتحت بها ، وقد جاءت عقب سورة الرعد . . وتحتوى فيما تحتوى عليه على ذكر قصة إبراهيم بمكة ، وفى مطلعها تنويه بالقرآن الكريم وبيان للغرض من نزوله ، وتحتوى على تحذير للمشركين ما بعده من تحذير .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة إبراهيم

١ — الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

٢ — اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

٣ — الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ .

٤ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

هذه الآيات من مطلع سورة إبراهيم ، إلى قوله تعالى : « وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » ، ليست ربعاً على الحقيقة ، إنما هى تكملة للربع الأخير من سورة الرعد ، الذى يبدأ بقوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون » ، ولكننا أطلقنا على ما هنا « ربعاً » على سبيل التجاوز .

والآيات الأربع التى معنا فيها تمجيد للقرآن الكريم ، وتنويه به ، وتعظيم لهدايته للناس ، وفيها كذلك تعظيم لرب القرآن ، وبيان لمظاهر قدرته فى السموات وفى الأرض ، وفيها كذلك تعجب من شأن الكافرين بالله وبرسالة محمد عليه السلام ، ممن آثروا الدنيا على الآخرة ، وصدوا عن سبيل الله ،

وابتغوا طريق الضلال والبهتان يسيرون فيها ، فهؤلاء فى ضلال شديد ، بمعن فى التيه والحيرة والظلم .. وعجب لأمر هؤلاء ، الذين لم يؤمنوا برسالة محمد عليه السلام ، مع أنه منهم ، ويخاطبهم بلغتهم ، وكل الرسل اختيروا من الأمة التى بعثوا إليها ليكونوا أقدر على اقتناعها ودعوتها إلى رسالة السماء ؛ وكذلك كان القرآن بلسان عربى مبين ، ليفهمه العرب الذين كانوا أول من دعوا إلى الإيمان به من البشر .. وقد دعا محمد صلوات الله وسلامه عليه العرب إلى الإيمان برسالته ، وبين لهم طريق الهدى وطرق الضلال ، ولكن الله يضل من يشاء ممن لا يستجيبون إلى الحق ، ولا يؤمنون به ، وكذلك يهدى الله من يشاء ممن يسمعون ويطيعون ولا يعصون .. والله هو العزيز الحكيم ..

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربهم ، إلى صراط العزيز الحميد » بدأت السورة بتمجيد القرآن ، ووصف بصفاته اللائقة به ، الصفات التى هى صفاته ، من كونه منزلا من الله ، وكونه نزل لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الجهل والشر والجمود والرجعية والإقطاع إلى نور العلم والخير والتقدم والتحرر ، والمعنى : هذا القرآن كتاب ، وأى كتاب ؟ كتاب عظيم من بين الكتب السماوية المقدسة التى نزل بها الوحى .. والخطاب هنا لمحمد عليه السلام .. والناس هنا المراد بهم جميع أمة محمد عليه السلام وغيرها ، والمراد من الظلمات الكفر والشرك وأنواع الضلالات ، والمراد من النور الإيمان والهدى . وطرق الكفر والضلال كثيرة ، وطريق الحق واحد ، ولذلك جمع الله عز وجل الظلمات ولم يجمع النور ، والقائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها إلا من تعليم الرسول احتجوا بهذه الآية ، وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى مصدرها التعليم .. وقوله تعالى : « بإذن ربهم » متعلق بالإخراج أى بتوفيقه وتسهيله « إلى صراط » أى طريق « العزيز » أى الغالب « الحميد » أى المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد « الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » أى ملكا وخلقا و(الله) جار مجرى

الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالى ، وذهب قوم آخرون إلى أنه لفظ مشتق ؛ قال الرازى : والحق عندنا هو الأول لأن الأمة لما اجتمعت على أن قولنا لا إله إلا الله يوجب التوحيد المحض ، علمنا أن قولنا : الله جار مجرى الاسم العلم ، وقد قال تعالى « هل تعلم له سميا » ؟ أى هل تعلم من اسم الله غير الله ، وذلك يدل على أن قولنا الله اسم لذاته المخصوصة ، والآية تفيد حصر ما فى السموات وما فى الأرض له لا لغيره ، وذلك يدل على أنه لا مالك إلا الله ولا حاكم إلا الله « وويل للكافرين » أى الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وعبدوا من لا يملك شيئا البتة ، بل هو مملوك لله لأنه من جملة ما فى السموات وما فى الأرض « من عذاب شديد » أى فى الآخرة « الذين يستحبون » أى يختارون « الحياة الدنيا على الآخرة » أى يؤثرونها عليها « ويصدون عن سبيل الله » أى يمنعون الناس عن قبول دين الله « ويبغونها » أى السبيل « عوجا » أى معوجة والأصل : ويبغون لها زيغا وميلا « أولئك » أى الموصوفون بهذه الصفات « فى ضلال بعيد » أى عن الحق « وما أرسلنا من رسول » أى فى زمن من الأزمان « إلا بلسان » أى لغة « قومه » أما بالنسبة إلى الرسول فلأنه تعالى بين أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة ، وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة البشر ، وكان هذا الإنعام فى حقك أكمل وأفضل ، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولا إلا بلسان أولئك القوم « ليبين لهم » ما أمروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة ، لأن ذلك أسهل لفهم أسرار تلك الشريعة والوقوف على حقائقها وأبعد .. هذا وقد تمسكت طائفة من الجاحدين يقال لهم العيسوية بهذه الآية على أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرسل لغير العرب من وجهين :

الأول : أن القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب ، وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا عليهم .

الثانى : أن قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » المراد بذلك اللسان لسان العرب ، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط . .

ورد عليهم بأن المراد بالقوم أهل دعوته ، والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » ، ثم بين سبحانه وتعالى أن الإضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى : « فيضل الله من يشاء » إضلاله « ويهدى من يشاء » هدايته ؛ فإنه تعالى هو المضل الهادى وليس على الرسل إلا التبليغ والبيان ، والله تعالى هو الهادى المضل يفعل ما يشاء « وهو العزيز » فى ملكه فلا راد له عن مشيئته « الحكيم » فى صنعه فلا يهدى ولا يضل إلا لحكمة ، ولما بين تعالى أنه إنما أرسل محمداً عليه الصلاة والسلام إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وذكر كال إنعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الإرسال وفى تلك البعثة ، أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى قومهم وكيفية معاملة أقوامهم لهم ، ليكون ذلك مواساة له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وإرشاداً له إلى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم ..

٥ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

٦ — وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ .

٧ — وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ .

٨ — وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ .

فى هذه الآيات الأربع إشارة إلى جوانب من قصة موسى مع فرعون للعبرة والعظة ، وليعرف مشركو مكة مصيرهم لو أصروا على الكفر ، فليسوا هم بأكرم على الله من الأمم السالفة . . وقد طوى الله عز وجل ذكر مصير فرعون وقومه لاستفاضة شهرته ، ولذكره إجمالا فى مصير جميع الأمم التى كفرت برسالات أنبيائها فى الآيات الآتية .

يقول الله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا » أى من مثل العصا واليد وانفجار العيون من الصخر وإنزال المن والسلوى ، وفلق البحر وإظلال الجبل، وسائر معجزاته . . « أن أخرج قومك » أى بنى إسرائيل . . « من الظلمات » أى الكفر والضلال . . « إلى النور » أى الإيمان والهدى . . والتقدير : بأن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، ويصح أن تكون « أن » فى «أن أخرج» مفسرة للرسالة ، بمعنى أى ، والتقدير : أى أخرج قومك الخ أى قلنا له : أخرج قومك . . «وذكرهم بأيام الله » قال ابن عباس : أى بنعم الله ، وقال مقاتل : بالأحداث العظيمة ووقائع الله فى الأمم السالفة ، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى بوقائعهم وحروبهم ، والمعنى : عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، وذكرهم بما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الأيام ، وكذلك ذكرهم بعذاب الله وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من الأيام ، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ، ليرغبوا فى الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب ، وقيل : بأيام الله فى حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والبلاء ، حين كانوا تحت أيدى القبط يسومونهم سوء العذاب ، فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد أن كانوا مملوكين « إن فى ذلك » أى التذكير العظيم « لآيات » على وحدانيته تعالى وعظمته « لكل صبار » أى كثير الصبر على الطاعة وعن المعصية

« شكور » أى كثير الشكر للنعم ، وإنما خص الصبور والشكور بالاعتبار بالآيات وإن كان فيها عبرة للكل لأنهم المنتفعون بها دون غيرهم ، فلهذا خصهم بالآيات فكأنها ليست لغيرهم ، فهو كقوله تعالى : « هدى للمتقين » فإن الانتفاع لا يمكن حصوله إلا لمن يكون صابراً شاكراً أما من لا يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة ، ولما أمر الله تعالى موسى أن يذكرهم بأيام الله حكى عنه أن ذكرهم بها بقوله تعالى : « وإذا قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم » وقوله : « إذ أنجاكم من آل فرعون » ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أى اذكروا إنعام الله عليكم فى ذلك الوقت « يسومونكم سوء العذاب » بالاستعباد « ويذبحون » أى تذبيحاً كثيراً « أبناءكم » أى المولودين « ويستحيون » أى يستبقون « نساءكم » أحياء ، وذلك لقول بعض الكهنة : إن مولودا يولد فى بنى إسرائيل يكون سبب زوال ملك فرعون . . وقد ذكر الله تعالى فى سورة البقرة « يذبحون » بغير واو ، وذكره هنا مع الواو لأنها إنما حذفت فى سورة البقرة لأنها تفسير لقوله : يسومونكم سوء العذاب وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو . وهنا أدخل الواو فيه لأنه نوع آخر ، لأنهم كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح ، فليس تفسيراً للعذاب « وفى ذلكم بلاء » أى إنعام وابتلاء « من ربكم عظيم » لأن الابتلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً ، ومنه قوله تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، فإن قيل : تذبيح الأبناء فيه بلاء وأما استحياء النساء فكيف يكون فيه ابتلاء ؟ أجيب بأنهم كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالإماء ، فكان ذلك ابتلاء « وإذ » أى واذكروا إذ « تأذن ربكم » هو أيضا من كلام موسى عليه السلام ، وتأذن بمعنى آذن ـ غير أنه أبلغ لما فى التفعل من التكليف والمبالغة « لئن شكرتم » يا بنى إسرائيل نعمتى بالتوحيد والطاعة « لأزيدنكم » نعمة إلى نعمة ، والشكر عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة ، وأما الزيادة فى النعمة فهى قسمين روحانية وجسمانية ، فالأولى هى أن الشاكر يكون أبدا فى مطالعة أقسام نعمة الله تعالى وأنواع فضله وكرمه ، وأما الثانية فلأن

الاستقرار دال على أن كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله إليه أكثر ؛ نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة ، حتى يزيدنا من فضله وكرمه وإحسانه .. « ولئن كفرتم » أى جحدتم النعمة بالكفر والمعصية وحذف الجواب ، وهو لأعذبنكم ، لأنه دل عليه قوله تعالى : « إن عذابى لشديد » أى لمن كفر نعمتى ولم يشكرها ، وهكذا ذكر الله عز وجل الوعد ومعه الوعيد .. ولما بين موسى أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات فى الدنيا والآخرة ، والاشتغال بكفران النعمة يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات فى الدنيا والآخرة ، بين الله تعالى بعد ذلك أن منافع الشكر ومضار كفران النعمة لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وإلى الكافر بالنعمة ، وأما الله عز وجل فإنه غنى عن الشاكرين والكافرين . . فقال عز وجل على لسان موسى : « وقال موسى إن تكفروا أنتم » يا بنى إسرائيل . . . « ومن فى الأرض » أى كلهم ، ولذلك أكد الله عز وجل ذلك بقوله : « جميعا » أى من الثقلين « فإن الله لغنى » عن جميع خلقه ، فلا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين . . . « حميد » أى محمود فى جميع أفعاله لأنه فيها متفضل عادل .

٩ — أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ .

فى هذه الآية الكريمة لفت لنظر مشركى مكة إلى مصائر الأمم البائدة ، من مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم التى جاءت بعدهم ، ممن كذبوا برسالات أنبيائهم ، وكفروا بهداية السماء .

يقول الله عزوجل فى هذه الآيات الكريمة . . « ألم يأتكم » يابنى إسرائيل « نبأ » أى خبر « الذين من قبلكم قوم نوح » وكانوا ملء الأرض « و » نبأ « عاد » قوم هود ، وكانوا أشد الناس أبدانا « و » نبأ « ثمود » قوم صالح ، وكانوا أقدر الناس على نحت الصخور وبناء القصور ـ يحتمل أن يكون من كلام موسى أو كلام مبتدأ من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو استفهام تقرير « والذين من بعدهم » أى بعد هؤلاء الأمم الثلاثة « لا يعلمهم إلا الله » فيه قولان :

الأول : أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله تعالى ، لأن المذكور فى القرآن جملة ؛ فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل .

والقول الثانى : أن المراد ذكر أقوام ما بلغونا أصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم أصلا ولا يعلمهم إلا الله ، ولذلك كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسابون ، يعنى أنهم يدعون علم الأنساب إلى آدم ؛ وقد نفى الله علمها عن العباد ، وعن ابن عباس أنه قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ، ونظيره هذه الآية قوله تعالى : « وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا » ، وقوله تعالى : « منهم من قصصنا عليك » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق ، قال الرازى : والقول الثانى أقرب ولما « جاءتهم » أى هؤلاء الأقوام الذين تقدم ذكرهم « رسلهم بالبينات » أى الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات أتوا بأمور : أولها ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى : « فردوا » أى الأمم « أيديهم فى أفواههم » وفى ذلك احتمالات :

الأول : أن الكفار ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى : « عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

الثانى : أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية

فعند ذلك ردوا أيديهم فى أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فيضع يده على فيه .

والثالث : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث .

والرابع : أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلموا به من قولهم من الكفر، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى : «وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به » أى من النبوة والرسالة هو الأمر الثانى الذى أتوا به ، وقيل : الضمير فى « ردوا » راجع للرسل عليهم السلام ، وفيه وجهان : أحدهما أن الكفار أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوا ويقطعوا الكلام ، والثانى أن الرسل لما أيسوا عنهم سكتوا ووضعوا أيدى أنفسهم على أفواه أنفسهم، فإن من ذكر كلاماً عند قوم وأنكروه وخافهم ، فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفه أنه لا يعود إلى ذلك الكلام البتة « وإنا لفى شك مما تدعوننا » أيها الرسل « إليه » أى من الدين « مريب » أى موجب الريبة أو موقع فى الريبة ، والريبة التهمة وقلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر الذى تشك فيه ؛ فإن قيل: إنهم قالوا أولا: إنا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانياً : وإنا لفى شك ؟ والشك دون الكفر. وأجيب بأنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كلهم حصل لهم شبه توجب الشك لهم ، فقالوا : إن لم ندع الجزم واليقين فى كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم ، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الأول من سورة إبراهيم الذى احتوى على تمجيد القرآن وهدايته ، وتعظيم الله منزل القرآن والتنويه بقدرته ، واشتمل كذلك على التعجب من شأن الكافرين ، الذين كفروا بالله وبالقرآن ، مع ظهور الدلائل ، ووضوح الشواهد على وجوب الإيمان بالله وبكتابه . . كما احتوى على التنويه بعربية القرآن ومحمد ، تلميحا إلى أنه كان من الواجب على العرب

أن يؤمنوا بها ، ثم قص الله عز وجل أطرافا من قصة موسى مع فرعون ، بيانا لأن على الخلق أن يؤمنوا بالله الذى خلقهم وأرشدهم إلى سواء السبيل ، لأنهم هم الذين سينتفعون بالإيمان ، والله عز وجل لن ينتفع بشيء من ذلك ، لأنه هو الغنى الحميد . . ويلفت الله عز وجل نظر مشركى مكة إلى وجوب تمثل قصص الأمم السالفة مع رسلهم ، لأن من تأمل ذلك جدير بأن يبعث فى قلبه العظة والعبرة والحسرة جميعا .

١٠ — قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ .

١١ — قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

١٢ — وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .

١٣ — وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ .

١٤ — وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ .

١٥ — وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

١٦ — مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ .

١٧ — يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ .

١٨ — مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ .

١٩ — أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .

٢٠ — وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .

٢١ — وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ .

٢٢ — وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي

كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٢٣ — وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ.

فى هذه الآيات الكريمة بيان لحجاج رسل الله مع الذين أرسلوا إليهم ولجدالهم معهم فى وجود الله ووحدانيته ووجوب إخلاص العبادة له تعالى ، وتعاظم الكافرين على الأنبياء والمرسلين ، وتهديدهم لهم ، وبيان مصير هذه الأمم الكافرة فى الدنيا من الهلاك والخزى والدمار ، وفى الآخرة من العذاب الشديد . . فلا ينتفعون بشىء من ثمرة علمهم فى الدنيا ، كأنه رماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف فلم يبق منه شىء ، وهكذا هؤلاء لاينتفعون بشىء من أعمالهم لكفرهم وشركهم . . والله قادر على أن يهلك مشركى مكة كما أهلك من قبلهم من الأمم البائدة ، ويأتى بدلهم بأقوام آخرين يؤمنون بالله ويوحدونه ، وماذلك على الله بعزيز . والعجب كل العجب من موقف الكافرين فى الآخرة ، حيث يدور الحجاج والجدال بينهم وبين زعمائهم فى الشرك وقادتهم فى الضلال ، وتنصل كل فريق منهم من المسئولية ، ثم بين الله عزوجل ضحك الشيطان على هؤلاء وهؤلاء ، لأنه أغوى الجميع وأضلهم وأعمى أبصارهم . . . هذا هو موقف الكافرين برسالات الأنبياء ، أما المؤمنون الطائعون فلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ، وتحيتهم فيها سلام . . وبهذا يتضح الأمر ، ويتجلى الفرق بين الكافرين والمؤمنين ، ويظهر منزلة كل منهما عند الله فى الدنيا والآخرة . . وصدق الله ، ومن أصدق من الله حديثا . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « قالت رسلهم » أى قالت لهم رسلهم مجيبين لهم . « أفى الله شك ؟ » أى هل تشكون

فى الله وهو استفهام إنكارى ، أى لاشك فى وجوده ووحدانيته ، للدلائل الظاهرة عليه . . وكيف يشك فى وجوده ووحدانيته وهو « فاطر السموات والأرض » أى وما فيهما من الأنفس والأرواح والأرزاق ، وهذا من أعظم الأدلة على وجود الله ، ثم وصفوا الله بكمال الرحمة فقالوا « يدعوكم ليغفر لكم » أى يدعوكم إلى الإيمان بملتنا لأجل غفران ذنوبكم أو يدعوكم إلى غفران ذنوبكم ، « من ذنوبكم » من زائدة ، أى ليغفر لكم ذنوبكم ، أو بمعنى بعض ، أى ليغفر لكم بعض ذنوبكم ، أى ما يتعلق بحق الله لا بحق العباد . . والرازى ـ ونحن نوافقه ـ يرى أنه ليس فى كلام الله كلمة يصح أن توصف بأنها زائدة . . ويقول الزمخشرى : إن خطاب الله المشركين فى القرآن كثيرا ما ترد فيه « من » قبل الذنوب ، وقد وردت هذه الجملة « يغفر لكم من ذنوبكم » فى آيات كثيرة فى خطاب الكافرين ، أما خطاب الله للمؤمنين فيأتى بدون « من » ، « يغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم » أى ولا يفعل بكم فعل من تعهدون من الملوك فى المعاجلة فى الإهلاك لمن خالفهم بل يؤخركم « إلى أجل مسمى » أى إلى وقت قد سماه وبين مقداره « قالوا » أى الأمم مجيبين الرسل « إن » أى ما « أنتم » أيها الرسل « إلا بشر مثلنا » أى لا فضل لكم علينا فلم تختصون بالنبوة دوننا ؟ ولو أرسل الله تعالى إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أرقى من البشر فى زعم القائلين وهم الملائكة « تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا » أى ما تريدون بقولكم هذا إلا صدنا عن آلهتنا التى كان آباؤنا يعبدونها « فأتونا بسلطان مبين » أى بحجة ظاهرة على صدقكم ، ولما حكى الله تعالى على الكفار شبهاتهم فى الطعن فى النبوة ، حكى عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى : « قالت لهم رسلهم » مجيبين لهم « أن » أى ما « نحن إلا بشر مثلكم » كما قلتم ، فسلموا أن الأمر كذلك لكنهم بينوا أن التماثل فى البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوة بقولهم « ولكن الله يمن » أى يتفضل « على من يشاء من عباده » بالنبوة والرسالة فيصطفى من يشاء من عباده بهذا المنصب العظيم الشريف كما

قال تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالاته » وما كان » أى صح واستقام « لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » أى إلا بأمره ، فليس لنا الإتيان بالآيات ولا هو فى استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه ، وإنما هو أمر متعلق بمشيئة الله تعالى ، فله أن يخص كل نبى بنوع من الآيات « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فإن توكلنا على الله واعتمادنا على فعل الله « وما لنا أن لا نتوكل على الله » أى أى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه « وقد هدانا سبلنا » أى وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فإن من فاز بشرف العبودية ووصل إلى مقام الإخلاص والمكاشفة يقبح عليه أن يرجع فى أمر من الأمور إلى غير الحق ؛ وفى هذه الآية دلالة على أنه تعالى يعصم أولياءه والمخلصين فى عبوديته عن كيد أعدائهم ومكرهم « ولنصبرن على ما آذيتمونا » فإن الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات ، والحق لابد وأن يصير غالبا قاهراً ، والباطل لابد وأن يصير مغلوبا مقهوراً « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » التوكل الأول لاستحداث التوكل . والثانى طلب دوامه ، أى فليثبت المتوكلون على ما احدثوه من توكلهم المسبب عن إيمانهم . ولما حكى الله تعالى عن الأنبياء أنهم اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته ، حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة بقوله تعالى : « وقال الذين كفروا لرسلهم » فى جواب كلامهم المشفق الناصح « لنخرجنكم من أرضنا » أى التى لنا الآن الغلبة عليها « أو لتعودن فى ملتنا » حلفوا ليكونن أحداً لأمرين : إما إخراجكم أيها الرسل وإما عودكم إلى ملتنا أى ديننا . . وقد يفهم هذا بظاهره أنهم كانوا على ملتهم قبل ذلك ، ويجاب عن ذلك بأن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب . . وقد أجمعت الأمة على أن الرسل من أول الأمر إنما نشأوا على التوحيد لا يعرفون غيره ، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه فغلبوا الجماعات على الواحد ، وقيل : أو لتعودن فى ملتنا إلى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عند ذكر معايبه ، وعدم التعرض له بالطعن والقدح « فأوحى إليهم » أى الرسل « ربهم » أى ألهمهم الله الواحد الأحد

« لنهلكن الظالمين » أى الكافرين أى قائلا لهم ذلك ؛ أو الكلام على إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه « ولنسكننكم الأرض » أى أرضهم « من بعدهم » أى بعد هلاكهم ، ونظيره قوله تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » وقوله تعالى : « وأورثكم أرضهم وديارهم » قال الزمخشرى : وعن النبى صلى الله عليه وسلم : من أذى جاره ورثه الله داره ، قال : ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة كان لى جار يظلمه عظيم القرية التى أنا فيها ويؤذينى فيه ، فمات ذلك العظيم ، وملكنى الله ضيعته ، فنظرت يوما إلى أبناء خالى يترددون فيها ويأمرون وينهون ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به ، وسجدنا شكرا لله تعالى « ذلك » أى النصر وإيراث الأرض « لمن خاف مقامى » أى موقفى وهو موقف الحساب ، لأن ذلك الموقف موقف الله الذى يقف فيه عباده يوم القيامة ، ونظيره « وأما من خاف مقام ربه » وقوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » وقيل : ذلك لمن خاف مقامى أى خافنى ، فالمقام مقحم مثل ما يقال ، سلام على المجلس والمراد السلام على واحد من أهل المجلس « وخاف وعيد » قال ابن عباس : ما أوعدته من العذاب « واستفتحوا » فيها قولان : أحدهما : طلبوا الفتح أى واستنصروا الله على أعدائهم ، وهو كقوله تعالى : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » ، والثانى : الفتح الحكم والقضاء أى واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم ، وهو مأخوذ من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » فعلى القول الأول المستفتح هم الرسل لأنهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من إيمانهم ، قال نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » وقال موسى « ربنا اطمس على أموالهم » ، وقال لوط « انصرنى على القوم المفسدين » وعلى القول الثانى : قال الرازى : فالأولى أن يكون المستفتح هم الأمم وذلك أنهم قالوا : اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ، ومنه قول كفار قريش : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » ، وكقول آخرين :

ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . « وخاب » أى خسر وهلك « كل جبار » أى متكبر عن طاعة الله ، وقيل : هو الذى لا يرى فوقه أحدا ، وقيل : هو المتعظم فى نفسه المتكبر على إقرانه « عنيد » قال مجاهد : معاند للحق ومجانبه ، وقال ابن عباس : هو المعرض عن الحق ، وقال مقاتل : هو المتكبر ، وقال قتادة : هو الذى يأبى أن يقول لا إله إلا الله ، وقيل : هو المعجب بما عنده ؛ ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ووضعه بكونه جبارا عنيدا وصف كيفية عذابه بأمور :

الأول : قوله تعالى : « من ورائه » أى أمامه « جهنم » أى هو صائر إليها ؛ قال أبو عبيدة : هو من الأضداد ، وقال الشاعر :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه   يكون وراءه فرج قريب

ويقول أيضاً : الموت وراء كل أحد ، وقال تعالى : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » أى أمامهم ، وقال ثعلب : هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك أم قدامك ؛ فيصح إطلاق لفظ الوراء على خلف وقدام ، وقال ابن الأنبارى : وراء بمعنى بعد . ومعنى الآية على هذا أن الكافر بعد الخيبة يدخل جهنم .

الأمر الثانى ما ذكره تعالى بقوله : « ويسقى » أى فى جهنم « من ماء صديد » وهو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطا بالقيح والدم ، جعل ذلك شراب أهل النار ، وهو عطف على محذوف تقديره : من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى من ماء صديد « يتجرعه » أى يتكلف أن يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه « ولا يكاد يسيغه » أى ولا يقدر على ابتلاعه ، قال الزمخشرى : كاد للمبالغة يعنى ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة ، لقوله تعالى : « لم يكد يراها » أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ؟ فإن قيل : كيف الجمع على هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه أجيب بجوابين : أحدهما أن المعنى : ولا يسيغ جميعه كأنه يتجرع البعض وما أساغ الجميع . . والثانى أن الدليل

الذى ذكر إنما دل على وصول ذلك الشراب إلى جوف ذلك الكافر لا أن ذلك ليس بإساغة ، لأن الإساغة فى اللغة إجراء الشراب فى الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه أى لا يستطيبه ولا يشربه شربا مرة واحدة ؛ وعلى هذين الوجهين يصح حمل « لا يكاد » على نفى المقاربة .

الأمر الثالث ماذكره تعالى بقوله : « ويأتيه الموت » أى أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب « من كل مكان » أى من سائر الجهات وقيل : من مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجله « وما هو بميت » أى حتى يستريح .

الأمر الرابع ما ذكره تعالى بقوله : « ومن ورائه » أى ومن بين يديه بعد ذلك العذاب « عذاب غليظ » أى شديد كل وقت ، وقيل : هو الخلود فى النار ، وقيل : هو قطع الأنفاس وحبسها فى الأجساد .

ولما ذكر تعالى أنواع عذابهم بين بعده أن سائر أعمالهم تصير باطلة ضائعة وذلك هو الخسران الشديد ، فقال تعالى «مثل» أى صفة « الذين كفروا بربهم أعمالهم » أى الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك أسير وإقراء ضيف وبر والد فى عدم الانتفاع بها « كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » أى شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثوراً لا يقدر عليه ، كما قال تعالى « لا يقدرون » أى الكفار يوم الجزاء « مما كسبوا » أى عملوا فى الدنيا « على شىء » أى لا يجدون لهم ثواباً لفقد شرطه وهو الإيمان « وذلك » إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون « هو الضلال البعيد » أى الخسران الكبير ، لأن أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها وتقدير الكلام : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا .. وتكون الجملة من قوله تعالى « أعمالهم كرماد » مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم ؟ فقيل : أعمالهم كرماد ، ومذهب الفراء أن التقدير : مثل أعمال الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ، فحذف المضاف اعتماداً

على ذكره بعد المضاف إليه وهو قوله تعالى : أعمالهم ، ومثله قوله تعالى « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » .. وقيل : التقدير: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول .. وقيل : أعمالهم بدلا من قوله « مثل الذين كفروا » والتقدير: مثل أعمالهم، وقوله تعالى كرماد هو الخبر ، وقيل : غير ذلك « ألم تر » خطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به أمته وكل واحد من الكفرة على الالتفات « أن الله خلق السموات » على عظمها وارتفاعها « والأرض » على تباعد أقطارها واتساعها « بالحق » أي بالحكمة والوجه الذي يحق أن يخلق عليه متعلق بخلق « إن يشأ يذهبكم » أيها الناس « ويأت » بدلكم « بخلق جديد » أطوع منكم ، رتب ذلك على كونه خالق السموات والأرض استدلالا به عليه ، فإن من خلق أصولهم قادر أن يبدلهم بخلق آخر « وما ذلك على الله بعزيز » أي بممتنع ، فإنه تعالى قادر بذاته ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، ومن هذا شأنه كان حقيقا أن يؤمن به رجاء ثوابه وخوفا من عقابه يوم الحساب ؛ ولما ذكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفار وذكر عقبه أن أعمالهم تصير باطلة ، ذكر كيفية مجادلتهم عند تمسك أتباعهم بهم وكيفية اختصاصهم عندهم بقوله تعالى « وبرزوا » أي الخلائق من قبورهم « لله جميعا » والتعبير فيه وفيما يأتي بالماضي وإن كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه ، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة ، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ، ونظيره « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » ، والبروز في اللغة الظهور بعد الاستتار وهو في حق الله تعالى محال فلا بد من تأويله ، وهو على وجهين : الأول أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم وعلموا أن الله تعالى لا يخفى عليه خافية ، الثاني : أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله تعالى وحكمته ؛ ثم حكى الله تعالى عنهم أن الضعفاء يقولون للرؤساء : هل تقدرون على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى « فقال الضعفاء » أي

الأتباع جمع ضعيف يريدون به ضعفاء الرأى « للذين استكبروا » أى المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه فاستبقوهم به حتى تكبروا على الرسل « إنا كنا لكم تبعا » جمع تابع أى تابعين لكم فى تكذيب الرسل فكنتم سبب ضلالنا ، وقد جرت عادة الأكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم « فهل أنتم » أى فى هذا اليوم « مغنون » أى دافعون « عنا من عذاب الله » أى من انتقامه « من شىء » والفرق بين (من) فى عذاب الله وبين (من) فى شىء أن الأولى للتبيين والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشىء الذى هو من بعض عذاب الله ، ويجوز أن يكونا للتبعيض معا ، والمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شىء هو بعض عقاب الله ؟ وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم « قالوا لو هدانا الله » أى الذى له صفات الكمال « لهديناكم » أى لو أرشدنا الله تعالى لأرشدناكم ودعوناكم إلى الهدى ، ولكنه لم يهدنا فضللنا وكنتم لنا تبعا فأضللناكم ، ولما كان من الموجب لقولهم الجزع قالوا « سواء علينا » أى نحن وأنتم « أجزعنا أم صبرنا » أى مستويان علينا الجزع والصبر ، والجزع أبلغ من الحزن لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه « مالنا من محيص » أى منجى ومهرب مما نحرب فيه من العقاب ، ويحتمل أن يكون هذا من كلام المتبوعين وأن يكون من كلام الفريقين ، ويؤيد الثانى ما روى أنهم يتألمون فى النار فقالوا : نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع ، فيقولون : تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر ، فعند ذلك يقولون ذلك ، وقال محمد بن كعب القرظى : بلغنى أن أهل النار استعانوا بالخزنة كما قال الله تعالى : وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب، فردت الخزنة عليهم : أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى، فردت الخزنة عليهم : ادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ، فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا : يا مالك ليقض علينا ربك .. سألوا الموت فلا يجيبهم ، ثم يجيبهم بقوله : إنكم ماكثون، فلما أيسوا مما عنده : قال بعضهم لبعض ذلك ، ولما ذكر تعالى المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والأتباع

من كفرة الإنس أردفها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين أتباعه بقوله تعالى « وقال الشيطان » الذى هو أول المتبوعين فى الضلال ورأس المضلين والمستكبرين « لما قضى الأمر » أى أحكم وفرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وأخذ أهل النار فى لوم إبليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيباً ، قال مقاتل : يوضع له منبر من نار فيجتمع أهل النار إليه يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله تعالى بقوله : « إن الله وعدكم وعد الحق » أى بالبعث والجزاء على الأعمال فصدقكم « ووعدتكم » أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب « فأخلفتكم » أى الوعد فلم أقل شيئاً إلا كان زيفا فاتبعتمونى مع كونى عدوكم وتركتم ربكم وهو وليكم ، والتقدير : إن الله وعدكم وعد الحق فصدقكم كما تقدم تقديره ووعدتكم فأخلفتكم ، وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لأنهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ، ولأنه ذكر فى وعد الشيطان الإخلاف فدل ذلك على الصدق فى وعد الله تعالى . وقيل : إن قوله : ووعدتكم فأخلفتكم - الوعد يقتضى مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم به، والتقدير : ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ؛ ولما بين غروره بين سهولة اغترارهم زيادة فى تعذيبهم فقال « وما كان لى عليكم من سلطان » أى سلطان أى قوة وقدرة أقهركم بها على الكفر والمعاصى والحكم على متابعتى « إلا أن دعوتكم » المعنى على الاستئناف ، أى لكن دعوتكم « فاستجبتم لى » محكمين الشهوات ، لأن النفس تدعو إلى هذه الأحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الأخروية والكمالات الإنسانية ، والله يدعو إليها ويرغب فيها كما قال : والآخرة خير وأبقى ، قال الرازى : وعندى أنه يمكن أن يقال كلمة « إلا » ههنا استثناء حقيقى لأن قدرة الإنسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة يكون بالقهر والعسر وتارة يكون بتقوية الدواعى فى قلبه بإلقاء الوساوس إليه ؛ فهذا نوع من أنواع التسليط « فلا تلومونى » أى لأنه ما كان منى إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة « ولوموا أنفسكم » لأنكم سمعتم دلائل الله تعالى وجاءتكم الرسل ، فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا إلى ولا تسمعوا قولى ،

فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى بإجابتى ومتابعتى من غير حجة ولا دليل ، وقال الشيطان : « فلا تلومونى ، وهو ملوم بسبب إقدامه على تلك الوسوسة الباطلة ، لأنه أراد : لا تلومونى على فعلكم « ولوموا أنفسكم » عليه ، لأنكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم « ما أنا بمصرخكم » أى بمغيثكم ولا بمخلصكم من العذاب « وما أنتم بمصرخى » أى بمغيثى فيما يخلصنى منه « إنى كفرت بما أشركتمون من قبل » أى كفرتم اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا ، كقوله تعالى « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » ومعنى كفره بإشراكهم إياه استنكاره له كقوله « أنا براء منكم وبما تعبدون من دون الله كفرنا بكم » روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة ، يقول عيسى : ذلك النبى الأمى فيأتون ، فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ريح شمها أحد حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل فى نوراً من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكفار : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : ما هو غير الشيطان الذى أضلنا فيأتونه فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، قم أنت فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيقوم فيثور مجلسه من أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم لهبهم ويقول ذلك .. إن الله وعدكم وعد الحق الآية ... « إن الظالمين » أى الكاذبين « لهم عذاب أليم » أى مؤلم ، وهو من كلام الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس ، وإنما حكى الله تعالى ما سيقول فى ذلك الوقت ليكون دعوة للسامعين إلى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لابد لهم من الوصول إليه ، وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم ؛ ولما بالغ سبحانه وتعالى فى شرح حال الأشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والأجر الجزيل ، وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم ، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى : « وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » وهو حال مقدرة ، والتعظيم حصل لهم من

وجهين : أحدهما قوله تعالى « بإذن ربهم » لأن تلك المنافع إنما كانت تفضيلا من الله تعالى وإنعاما ؛ والثانى قوله تعالى « تحيتهم فيها سلام » لأن بعضهم يحيى بعضا بهذه الكلمة ، والملائكة يحيونهم بها كما قال تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » والرب يحييهم أيضا بهذه الكلمة كما قال تعالى: سلام قولا من رب رحيم ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات الدنيا وحسراتها وفنون آلامها وأسقامها وأنواع همومها وغمومها ، لأن السلام مشتق من السلامة .

٢٤ — أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ .

٢٥ — تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

٢٦ — وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ .

٢٧ — يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ .

فى هذه الآيات الأربع ضرب الله عز وجل المثل رائعا بليغا لكلمة الإسلام ولكلمة الكفر ، فجعل الأولى كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وجعل كلمة الكفر الخبيثة كشجرة خبيثة قطعت من فوق الأرض ما لها من أصل راسخ ، وهكذا يهدى الله المؤمنين إلى كلمة الإيمان ، ويضل الكافرين ويرديهم فى النار .

يقول الله تعالى : « ألم تر » أى تنظر ، والخطاب يحتمل أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره ، وأن يكون لكل فرد من الناس ، أى ألم تر أيها الإنسان «كيف ضرب الله » أى المحيط بكل شىء علما وقدرة «مثلا» أى سائرا يعم نفعه ؛ والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثانى بالأول ، ثم بينه بقوله تعالى : «كلمة طيبة » ، قال ابن عباس وأكثر المفسرين : هى « لا إله إلا الله » ، «كشجرة طيبة » قال ابن مسعود وأنس : هى النخلة ، وعن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبرونى ما هى؟ قال عبد الله : فوقع الناس فى شجر البوادى وكنت صبيا فوقع فى قلبى أنها النخلة ، فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا صغير القوم ، وروى : فمنعنى مكان عمر فاستحييت ، فقال له عمر : يابنى لو كنت قلتها لكانت أحب إلى من حمر النعم ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إنها النخلة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أكرموا عمتكم، قيل : ومن عمتنا ؟ قال النخلة: « أصلها ثابت » أى فى الأرض « وفرعها » أى غصنها « فى السماء » فى جهة العلو والصعود « تؤتى » أى تعطى « أكلها » أى ثمرها «كل حين بإذن ربها » أى بإرادته ، والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير ، واختلفوا فى مقدار هذا : فقال مجاهد : الحين هنا سنة كاملة، لأن النخلة تثمر فى كل سنة مرة ، وقال قتادة : ستة أشهر يعنى من حين طلعها إلى وقت صرامها ، وقال الربيع : كل حين يعنى غدوة وعشية ، لأن ثمر النخل يؤكل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فأكلها دائم فى كل وقت ، قال العلماء : ووجه الحكمة فى تمثيل كلمة الإخلاص بالشجرة لأن الإيمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت أصل هذه الشجرة فى الأرض وعمله يصعد إلى السماء كفروعها، كما قال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » فكذلك فرع هذه عال فى السماء وتناله بركة ذلك وثوابه كل وقت، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءه بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ؛ لأن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال ، كذلك الإيمان

لا يتم إلا بثلاثة أشياء : تصديق القلب وقول اللسان وعمل الجوارح ، ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم فقال : « ويضرب الله » أى الذى له الإحاطة الكاملة « الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » أى يتعظون ، فإن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام ، وتذكير وتصوير للمعانى العقلية فيحصل الفهم التام والوصول إلى المطلوب ، ولما ذكر الله تعالى مثل السعداء أتبعه بمثل حال الأعداء فقال : « ومثل كلمة خبيثة » هى كلمة الكفر « كشجرة خبيثة » الحنظل وقيل : شجرة الشوك « اجتثت » أى استؤصلت « من فوق الأرض » أى عروقها قريبة منه « ما لها من قرار » أى لا أصل لها ولا عرق ، فكذلك الكفر بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة ، وعن عبادة أنه قيل لبعض العلماء : ما تقول فى « كلمة خبيثة » فقال : ما أعلم لها فى الأرض مستقرا ولا فى السماء مصعداً إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها يوم القيامة ... ولما وصف سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة أخبر بقوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » أنه تعالى يثبتهم بها « فى الحياة الدنيا » أى فى القبر ، وقيل : قبل الموت « وفى الآخرة » أى يوم القيامة عند البعث والحساب ، وقيل : فى القبر على القول الثانى ؛ ولما وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة أخبر بقوله تعالى : « ويضل الله الظالمين » أى الكفار .. لا يهديهم للجواب الصواب « ويفعل الله ما يشاء » أى إن شاء هدى وإن شاء أضل لا اعتراض عليه ؛ روى عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم إذا سئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله تعالى : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، وروى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم :

فيراهما جميعا ، وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى كنت أقول مايقول الناس فيه، فيقال: مادريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها منه من يليه غير الثقلين ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغنا من دفنها وانصرف الناس قال : إنه الآن يسمع خفق نعالكم ، أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيسألانه ماكان يعبد ومن نبيه فإن كان ممن يعبد الله تعالى قال : كنت أعبد الله ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه ، فذلك قوله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » فيقال له : على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ، ثم يفتح له باب إلى الجنة ويوسع له فى حفرته ، وإن كان من أهل الشك قال : لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، فيقال له : على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث ، ثم يفتح له باب إلى النار .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثانى من سورة إبراهيم عليه السلام ، وهو كله تصوير لحجاج الكفار لرسلهم فى الدنيا ، وكفرهم برسالات السماء ، وعذاب الله الشديد الذى أعده الله لهم فى الآخرة ، وحجاج الأتباع للمتبوعين وللشيطان يوم القيامة ، ووصف النعيم والرضاء الإلهى الذى يقابل به الله عز وجل المؤمنين فى الآخرة . ويضرب الله الأمثال للإيمان والكفر ، ولكلمة الإيمان وكلمة البهتان .

الربع الثالث من سورة إبراهيم

٢٨ — أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ .

٢٩ — جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ .

٣٠ — وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ .

٣١ — قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ .

٣٢ — اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَـٰرَ .

٣٣ — وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ .

٣٤ — وَءَاتَـٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ الْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

فى هذه الآيات السبع عود إلى الكفار ، وشرح لسر استحقاقهم لعذاب الله عز وجل ، ووصف لهذا العذاب وشدته .. ثم يشرح الله عز وجل منزلة المؤمنين من رضاء الله ، وتمسكهم بطاعات الله ، ويخاطبهم خطاب تكريم وتشريف ، بأن يداوموا على عبادة الله ، على أداء الصلاة وإيتاء الزكاة .. وتنتقل الآيات إلى تمجيد الله الواحد المعبود ، الذى هذه قدرته ، وتلك عظمته فيصف خلقه للسموات والأرض ، وإنزاله المطر من السحاب ، وما أخرج به من الثمرات من رزق للعباد ، وتسخير الله للشمس والقمر دائبين على السير فى الفضاء ، والليل والنهار ، وما أنعم به على الناس من نعم لا تعد ولا تحصى.. يقول الله تعالى فى هذه الآيات السبع : « ألم تر » أى تنظر « إلى الذين بدلوا »

والتبديل جعل الشيء مكان غيره « نعمة الله » أى التى أسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق وغير ذلك ، بأن جعلوا مكان شكرها « كفرا » وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان وأعلاهم همما فى الوفاء وأبعدهم عن الجفاء « وأحلوا » أى أنزلوا « قومهم » أى الذين تابعوهم فى الكفر بإضلالهم إياهم « دار البوار » أى الهلاك مع ادعائهم أنهم أذب الناس عن الجار فضلا عن الأهل . روى البخارى فى التفسير أنهم كفار أهل مكة « جهنم » عطف بيان « يصلونها » أى يدخلونها « وبئس القرار » أى المقر هى « وجعلوا لله » أى الذين يعلمون أنه لاشريك له فى خلقهم ولا رزقهم لأنه له الكمال كله « أندادا » أى شركاء « ليضلوا عن سبيله » أى عن دين الإسلام ، قرىء بفتح الياء وقرأ الباقون بضم الياء من أضل يضل ، وليس الضلال ولا الإضلال غرضهم فى اتخاذ الأنداد لكن لما كانت نتيجته ذلك جعل كالغرض ، ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأنواع الثلاثة من الأعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « قل » أى تهديداً لهم فإنهم لايشكون فى قولك وإن عاندوا « تمتعوا » بدنياكم قليلا « فإن مصيركم » أى مرجعكم « إلى النار » فى الآخرة ، ولما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة فى المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى : « قل لعبادى » فوصفهم بأشرف أوصافهم وأضافهم إلى ضميره الشريف تحبيبا لهم فيه ثم أتبع هذا الوصف بما يناسبه من إذعانهم لسيدهم بقوله تعالى « الذين آمنوا » أى أوجدوا هذا الوصف « يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم » فيه وجهان : أحدهما يصح أن يكون جوابا لأمر محذوف تقديره قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا ، يقيموا الصلاة وينفقوا ، والثانى يصح أن يكون محذوفا منه اللام أى ليقيموا ليصح تعلق القول بهما « سرا وعلانية » أى ينفقون أموالهم فى حال السر والعلانية ، وقيل : المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية إخراج الزكاة الواجبة ، وفى انتصاب سراً وعلانية وجوه ، منها أن يكون على الحال أى ذوى سر وعلانية بمعنى

مسرين ومعلنين ، أو أنه على الظرف ، أى وقت سر وعلانية ، أو على المصدر أى إنفاق سر وإنفاق علانية .

ولما أمرهم تعالى بإقامة الصلاة والإنفاق أشار إلى عدم التهاون بذلك بقوله « من قبل أن يأتى يوم » أى عظيم جدا ليس كيوم من الأيام التى تعرفونها «لا بيع فيه» فيشترى المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه « ولا خلال » أى مخالة أى صداقة تنفع فى ذلك اليوم ، قال مقاتل : إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة ، فكأنه تعالى يقول : أنفقوا أموالكم فى الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الإنفاق فى مثل هذا اليوم الذى لا يحصل فيه مبايعة ولا مخالة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة : لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ؛ ونفى المخالّة فى هاتين الآيتين مع أنه تعالى أثبتها فى قوله تعالى : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ؛ لأن الآية الدالة على نفى المخالة محمولة على نفى المخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس ، والآية الدالة على حصول الصداقة محمولة على حصول الصداقة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى . ولما طال الكلام فى وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء وكانت العمدة العظيمة والمنزلة الكبرى فى حصول السعادة معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وفى حصول الشقاوة فقدان ذلك ، ختم تعالى أحوال الفريقين بقوله تعالى « الله » أى الملك الأعلى المحيط بكل شىء ، ثم أتبعه بالدلائل الدالات على وجوده وكمال عقله وقدرته ، وذكر هنا عشرة أنواع من الدلائل :

أولها : قوله تعالى « الذى خلق السموات » .

وثانيها : قوله تعالى « والأرض » وهما أكبر خلقا منكم وأعظم شأنا .

وثالثها : قوله تعالى « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » تعيشون به وهو يشمل كل رزق ، ويصح أن يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقا من السمو والارتفاع ، وأن يكون الجرم المعهود فينزل من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض .

ورابعها : قوله تعالى « وسخر لكم الفلك » أى السفن « لتجرى فى البحر » أى بالركوب والحمل « بأمره » أى بمشيئته وإرادته .

وخامسها : قوله تعالى « وسخر لكم الأنهار » أى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم لأن ماء البحر لاينتفع به فى سقى الزرع والثمرات ولا فى الشراب، فكان ذلك نعمة من الله تعالى .

وسادسها ، وسابعها : قوله تعالى « وسخر لكم الشمس والقمر » حال كونهما « دائبين » أى جاريين فى فلكهما لا يفتران فى سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما فى إنارة الظلمة وإصلاح النبات والحيوان ، إلى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها والشمس سلطانها النهار وبها تعرف فصول السنة ، وهى أفضل من القمر لكثرة نفعها والقمر سلطانه الليل وبه يعرف انقضاء الشهور ، وكل ذلك بتسخير الله تعالى وأنعامه .

وثامنها ، وتاسعها : قوله تعالى « وسخر لكم الليل والنهار » يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة والزيادة والنقصان ، وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار لينتفعوا فيه من فضله .

وعاشرها قوله تعالى « وآتاكم من كل ما سألتموه » أى ما أنتم محتاجون إليه على حسب مصالحكم « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » أى لا تحيطون بها ولا تطيقون حصرها « إن الإنسان لظلوم » أى كثير الظلم لنفسه « كفار » أى كفور لنعم الله . . وفى سورة النحل قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » لأن المقصود هنا الحديث عن توبيخ الكافرين على كفرهم ، وهناك المقصود الحديث عن رحمة الله بعباده .

٣٥ — وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ .

٣٦ — رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

٣٧ — رَّبَّنَآ إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

٣٨ — رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ .

٣٩ — ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ .

٤٠ — رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ .

٤١ — رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ .

فى هذه الآيات السبع أيضاً ذكر لقصة إبراهيم ودعواته وابتهاله إلى الله فى مكة بعد أن ترك إسماعيل فى البلد الحرام هو وأمه .

ولما بين تعالى بالدلائل المتقدمة أن لامعبود إلا الله سبحانه وتعالى ، وأنه لا تجوز عبادة غيرالله البتة حكى عن إبراهيم عليه السلام مبالغة فى إنكار عبادة الأوثان بقوله تعالى « وإذ » أى واذكر لهم مذكرا بأيام الله خبر إبراهيم إذ « قال إبراهيم رب » أى المحسن إلى بإجابة دعائى « اجعل هذا البلد » أى مكة « آمنا » أى ذا أمن ، وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لايسفك فيه دم إنسان ولايظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولايختلى خلاه ، وفرق بين قوله: اجعل هذا بلداً آمنا وبين قوله: اجعل هذا البلد آمنا بأن المسئول فى الأول أن يجعل من

جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون . وفى الثانى أن يزيل عنها الصفة التى كانت حاصلة لها وهى الخوف ويجعل لها تلك الصفة وهى الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمنا ، وكان إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء ، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهو موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر أحد على خراب مكة ، فإن قيل : يرد على هذا ماورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : يخرب الكعبة ذوالسويقتين من الحبشة ، أجيب بأن قوله : اجعل هـــذا البلد يعنى إلى قرب القيامة وخراب الدنيا فهو عام مخصوص بقصة ذى السويقتين فلا تعارض بين النصين ، والجواب الثانى أن المراد جعل أهلها آمنين كقوله تعالى: واسأل القرية ، أى أهلها ،وهذا الجواب عليه أكثر المفسرين ، وعلى هذا قد اختص أهل مكة بزيادة الأمن فى بلدهم كما أخبر الله تعالى بقوله : ويتخطف الناس من حولهم ، وأهل مكة آمنون من ذلك حتى إن من التجأ إلى مكة أمن على نفسه وماله ، وحتى إن الوحوش إذا كانت خارجة الحرم استوحشت ، وإذا كانت داخلة الحرم استأنست لعلمها أنه لايهيجها أحد فى الحرم ، وهذا القدر من الأمن حاصل بحمدالله بمكة وحرمها « واجنبنى » أى أبعدنى « وبنى أن » أى عن أن « نعبد الأصنام » أى اجعلنا فى جانب غير جانب عبادتها ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون ، فالفائدة فى قوله : اجنبنى وبنى عن عبادة الأصنام ، أنه عليه السلام إنما سأل ذلك هضما لنفسه وإظهاراً للحاجة والفاقة إلى فضل الله فى كل المطالب ، وفى ذلك دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه إياهم ، وكفار قريش من أبنائه مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام ، فالمراد إذا من كان موجوداً حال الدعاء ، ولا شبهة أن دعوته كانت مجابة فيهم أو أن هـذا الدعاء مخصوص بالمؤمنين من أولاده ، والدليل عليه أنه قال عليه السلام فى آخر الآية « فمن تبعنى فإنه منى » وذلك يفيد أن من لم يقم على دينه فإنه ليس منه ، ونظيره قوله تعالى « إنه ليس من أهلك إنه عمـل غير صالح » والصنم المنحوت على خلقة البشر ، وما كان منحوتا على غير خلقة البشر فهو وثن ، قاله الطبرى ، ولذا لما

سئل ابن عيينة كيف عبدت الأصنام العرب؟ فقال : ماعبد أحد من بنى إسماعيل صنما ، واحتج بقوله تعالى : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » إنما كانت أنصاب الحجارة لكل قوم ، قالوا : البيت حجر فحيثما نصبنا حجرا فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر أى يطوفون به أسابيع تشبيها بالكعبة ويسمونه الدوار[1] فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت ، قال الرازى : وهذا الجواب ليس بقوى .. ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : « رب إنهن » أى الأصنام « أضللن كثيراً من الناس » بعبادتهم لها « فمن تبعنى» أى على التوحيد « فإنه منى » أى فإنه من أتباعى والمؤمنين بملتى « ومن عصانى» أى فى غير الدين « فإنك غفور رحيم» وهذا صريح فى طلب الرحمة والمغفرة لأولئك العصاة ، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة فى حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه مأمور بالاقتداء كما قال تعالى « واتبع ملة إبراهيم » وقيل : المعنى إنك قادر أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإسلام ، وقيل : المراد من هذه المغفرة أن لايعاجلهم بالعقاب حتى يتوبوا ، قال الرازى : واعلم أن هذه الأوجه ضعيفة وارتضى ما تقرر أولا ، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام فى هذا الموضع أنه طلب من الله سبعة أمور :

الأول: طلب من الله نعمة الأمان ، وهو قوله : رب اجعل هذا البلد آمنا .

الثانى : أن يرزقه الله التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله : واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام .

والمطلوب الثالث قوله : ربنا إنى أسكنت من ذريتى . أى بعض ذريتى أو ذرية من ذريتى ، وهم إسماعيل وأبناؤه « بواد غير ذى زرع » أى لايكون فيه شىء من الزرع قط « عند بيتك المحرم » أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ماحوله حرماً لمكانه ، أو لأنه لم يزل ممنعا عزيزاً يهابه كل جبار كالشىء المحرم الذى حقه أن يجتنب ، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لايحل انتهاكه ، أو لأنه حرم على الطوفان أى منع منه ، كما سمى عتيقا لأنه أعتق

---

(١) هو بضم الدال مشددة ، وقد تفتح .

منه فلم يستولى عليه ، أو لأنه أمر الصائرين إليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل .

وروى البخارى أن هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت منه إسماعيل ، فقالت سارة : كنت أريد أن يهب الله لى ولدا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتى وغارت عليهما وقالت لإبراهيم بعدهما منى وناشدته بالله أن يخرجهما من عندها فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعالى المسجد وليس بمكة أحد يومئذ وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم خف إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيعنا ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه ، وقال : ربنا إنى أسكنت من ذريتى .. حتى بلغ : يشكرون ، وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى من أحد ؟ فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أوقال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه بيدها هكذا ، قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية يأتيه السيل فيأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة

فنظروا طائرا فقالوا : إن هذا الطائر يدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ ، فقالت : نعم ولكن لا حق لكم فى الماء ، قالوا : نعم ، قال ابن عباس : قالت ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى كان بها أهل أبيات منهم ، فشب الغلام وتعلم العربية منهم وألفهم وأعجبهم حتى يفع ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ثم قال : « ربنا ليقيموا الصلاة » أى ما أسكنتهم بهذا الوادى القفر الذى لا شىء فيه إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم وليعمروه بذكرك وعبادتك متبركين بالبقعة التى شرفتها على البقاع، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة التى آثرت بها سكان حرمك.
وتكرير النداء وتوسطه للإشعار بأنها المقصود بالذات من إسكانهم هناك « فاجعل أفئدة » أى قلوبا محترقة بالأشواق « من الناس » والمعنى واجعل أفئدة بعض الناس « تهوى » أى تميل « إليهم » ويدل عليه ما روى عن مجاهد لو قال : أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند ، وقال سعيد ابن جبير : لو قال أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس ، ولكنه قال : أفئدة من الناس، فهم المسلمون، وقال ابن عباس: لو قال أفئدة الناس لحنت إليهم فارس والروم والناس كلهم ، ولما دعا لهم بالرزق فقال « وارزقهم من الثمرات » ولم يقل: وارزقهم الثمرات ، وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء إيصال بعض الثمرات إليهم ويحتمل أن يكون المراد من إيصال بعض الثمرات إليهم إيصالها إليهم على سبيل التجارة ، كما قال تعالى : تجبى إليه ثمرات كل شىء « لعلهم يشكرون » يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات ، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الطاعات وأداء الواجبات .
ولما طلب عليه السلام من الله تعالى تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم

ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهاية الأمور فى المستقبل ، فإنه تعالى هو العالم بها والمحيط بأسرارها فقال « ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن » وهذا هو المطلوب الرابع ، والمعنى إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا ، وقيل : ما نخفى من الوجد بسبب حصول الفرقة بينى وبين اسماعيل وما نعلن من البكاء ، وقيل : ما نخفى من الحزن المتمكن فى القلب وما نعلن ، يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع : إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله أكلكم، قالت : الله أمرك بهذا ؟ قال: نعم ،قالت : إذا لا يضيعنا . واختلف فى قوله تعالى « وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » فقيل : هو من تتمة قول إبراهيم عليه السلام ، يعنى وما يخفى على الله الذى هو عالم الغيب من أى شىء فى أى مكان . والأكثرون على أنه قول الله تعالى تصديقا لإبراهيم فيما قال، كقوله تعالى: وكذلك يفعلون، ولفظة (من) تفيد الاستغراق،كأنه قيل ومايخفى عليه شىء ما ، ولما أتم إبراهيم عليه السلام ما دعى به أتبعه بالحمد على ما رزقه من النعم بقوله تعالى : « الحمد لله » أى المستحق لصفات الكمال «الذى وهب لى » أى أعطانى « على الكبر » أى وهب لى وأنا كبير آيس من الولد ، قال ذلك استعظاما للنعمة وإظهاراً لما فيه من المعجزة « إسماعيل وإسحاق » قال ابن عباس : ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة ، وإبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا عندما أسكن إسماعيل وأمه فى ذلك الوادى ، وفى ذلك الوقت ما كان قد ولد إسحاق ، وهذا يقتضى أن إبرهيم إنما ذكر هذا الكلام فى زمن آخر لا عقب ما تقدم من الدعاء ، قال الرازى : ويمكن أيضا أن يقال : إنه عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء بعد كبر إسماعيل وظهور إسحاق وإن كان ظاهر الروايات بخلافه ، « إن ربى » أى المحسن إلى « لسميع الدعاء » أى لمجيبه ،والله سبحانه وتعالى يسمع كل دعاء أجابه أولم يجبه ، فيكون هذا من قولك : سمع الملك كلامى إذا اعتد به وقبله ، ومنه : سمع الله لمن حمده .

المطلوب الخامس من قوله « رب اجعلنى مقيم الصلاة » أى معداً لها مواظبا عليها . وقوله : «رب اجعلنى مقيم الصلاة » يدل على أن فعل المأمورات

لا يحصل إلا من الله تعالى، وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصراً على أن الكل من الله تعالى «ومن ذريتى» عطف على ضمير المتكلم فى «اجعلنى» أى واجعل بعض ذريتى كذلك؛ لأن كلمة «من» فى قوله «ومن ذريتى» للتبعيض.

المطلوب السادس أنه عليه السلام لما دعى الله تعالى فى المطالب المذكورة دعا الله تعالى فى أن يقبل دعاءه فقال «ربنا وتقبل دعاء». قال ابن عباس: يريد عبادتى بدليل قوله تعالى: واعتزلكم وما تدعون من دون الله، وقيل: دعائى المذكور.

المطلوب السابع قوله «ربنا» أى أيها المالك لأمورنا المدبر لنا «اغفرلى» المقصود من ذلك الالتجاء إلى الله وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه، وأشرك معه أقرب الناس إليه وأحقهم بشكره فقال: «ولوالدى» واستغفر لهما وكانا كافرين لأنه ظن كون ذلك جائزاً، أو أنه أراد بوالديه آدم وحواء، أو أن استغفاره لهما كان بشرط إسلامهما، وقال بعضهم: كانت أمه مؤمنة ولذلك خص أباه بالذكر فى قوله تعالى «فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه». «وللمؤمنين» أى بالله ورسله وكتبه «يوم يقوم الحساب» أى يوم القيامة.

٤٢ — وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ.

٤٣ — مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ.

٤٤ — وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ

تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ .

٤٥ — وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ .

٤٦ — وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ .

٤٧ — فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ .

٤٨ — يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ .

٤٩ — وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ .

٥٠ — سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ .

٥١ — لِيَجْزِيَ ٱللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

٥٢ — هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ .

فى هذه الآيات الإحدى عشرة بيان لقدرة الله على حساب الناس فى الآخرة وعلى خضوع الكافرين وذلتهم أمام جبروته يوم القيامة ، ودعوة من الله لرسوله بأن ينذر المشركين ويخوفهم عذابه ، وشرح لأعمال الكافرين الفاسدة ، وبيان لقدرة الله القادرة على البعث والحساب وقيام الساعة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يصفد الكافرون فى النار . .

وفى آخر هذه الآيات يختم الله السورة كما بدأها بالتنويه بالقرآن الكريم وبيان ما فيه من بلاغ وإنذار للناس لعلهم يؤمنون .. وليذكر أولو العقول والقلوب الصافية الواعية . يقول الله عز وجل فى هـذه الآيات الكريمة : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » لأن الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور ، وقيل : حقيقة الغفلة سهو يعترض الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ . وهذا فى حق الله تعالى محال ، والمقصود من ذلك التنبيه على أنه ينتقم للمظلوم من الظالم ، ففيه وعيد وتهديد للظالم وإعلام له بأنه لايعامله معاملة الغافل عنه ، بل ينتقم منه ولا يتركه ؛ وعن سفيان بن عيينة : فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، والخطاب للرسول والمراد به التثبت على ما كان عليه من أنه لايحسب الله غافلا كقوله : « لاتدع مع الله إلهاً آخر » أو المقصود منه بيان أنه لو لم ينتقم لـكان عدم الانتقام لأجل غفلته عن ذلك الظلم ، أو أن المراد ولا تحسبنه مامليهم معاملة الغافل عما يعملون ولـكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على كل شىء ، ويصح أن يكون هذا الـكلام خطاباً مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر إلا أنه فى الحقيقة خطاب مع الأمة ، ثم بين تعالى أنه « إنما يؤخرهم » أى عذابهم ليوم موصوف بخمس صفات :

الصفة الأولى قوله تعالى « تشخص فيه الأبصار » أى أبصارهم لا تقر مكانها من هول ماترى فى ذلك اليوم .

الصفة الثانية قوله تعالى « مهطعين » أى مسرعين إلى الداعى أو مقبلين بأبصارهم لايطرفون .. هيبة وخوفا ، وقيل : المهطع الخاضع الذليل الساكن .

الصفة الثالثة قوله تعالى « مقنعى رءوسهم » أى رافعيها إذ الإقناع رفع الرأس إلى فوق ، فأهل الموقف من صفتهم أنهم رفعوا رؤوسهم إلى السماء ، وهذا بخلاف المعتاد ؛ لأن من يتوقع البلاء يطرق ببصره إلى الأرض ، وقال الحسن : وجوه الناس يوم القيامة تشخص إلى السماء لاينظر أحد إلى أحد .

والصفة الرابعة قوله تعالى : « لايرتد إليهم طرفهم » أى بل تثبت عيونهم

مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان ، قد شغلهم مابين أيديهم .

الصفة الخامسة : قوله تعالى : « وأفئدتهم » أى قلوبهم « هواء » أى خالية من العقل لفرط الحيرة والدهشة ، واختلفوا فى وقت حصول هذه الصفات : فقيل : إنها عند المحاسبة بدليل أنه تعالى إنما ذكر هذه الصفات عقب قوله تعالى : « يوم يقوم الحساب » ، وقيل : إنها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق ، فالسعداء يذهبون إلى الجنة والأشقياء إلى النار ، وقيل : يحصل عند إجابة الداعى والقيام من القبور ، قال الرازى : والأول أولى « وأنذر الناس » يامحمد أى خوفهم يوم القيامة وهو قوله تعالى : « يوم يأتيهم العذاب » الذى تقدم وصفه بشخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعى رؤوسهم « فيقول الذين ظلموا » أى كفروا « ربنا أخرنا » أى بأن تردنا إلى الدنيا « إلى أجل قريب » أى إلى أمد واحد من الزمان قريب « نجب دعوتك » أى بالتوحيد ونتدارك مافرطنا فيه « ونتبع الرسل » فيما يدعوننا إليه ؛ فيقال لهم توبيخا « أولم تكونوا أقسمتم » أى حلفتم « من قبل » فى الدنيا « مالكم من زوال » أى مالكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور ، كما قال فى آية أخرى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » ، وكانوا يقولون : لازوال لنا من هذه الحياة إلى حياة أخرى ومن هذه الدار إلى دار الجزاء ، ثم أنه تعالى زادهم توبيخا آخر بقوله تعالى « وسكنتم » فى الدنيا « فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم » بالكفر من الأمم السابقة « وتبين لكم كيف فعلنا بهم » أى وظهر لكم — بما تشاهدون فى منازلهم من آثار — مانزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم « وضربنا » أى بينا « لكم الأمثال » فى القرآن أن عاقبتهم الوبال والخزى والنكال مما يعلم به أنه قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء ، وقادر على التعذيب المؤجل كما هو قادر على الهلاك المعجل ، وذلك فى كتاب الله تعالى كثير ، ولما ذكر الله تعالى صفة عقابهم أتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى : « وقد مكروا مكرهم » أى الشديد العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم .. واختلف فى عود الضمير فى مكروا على وجوه :

الأول : أن يعود إلى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم .

والثانى : إلى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى : « وأنذر » أى يا محمد الناس وقد مكر قومك مكرهم ، وذلك المكر هوالذى ذكره الله تعالى فى قوله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » ، « وعند الله مكرهم » أى ومكتوب عند الله فعلهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه ، وقيل: إن مكرهم لايزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو ثابت كثبوت الجبال ، وقد حكى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الآية قول آخر ، وهو أنها نزلت فى نمروذ الجبار الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ، وكان نمروذ يقول : إن كان مايقول إبراهيم حقا فلا أنتهى حتى أصعد إلى السماء فأعلم مافيها ، « وإن كان مكرهم » أى من القوة والضخامة « لتزول منه الجبال » أى من شدته وهوله وقوة تأثيره « فلا تحسبن الله » الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته « مخلف وعده رسله » من النصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين كما قال تعالى : « إنا لننصر رسلنا » ، وقال تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » ، وقدم الله عز وجل الوعد ليعلم أنه لايخلف الوعد أصلا ، كقوله تعالى : « إن الله لايخلف الميعاد » ، ثم قال : « رسله » ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته « إن الله » ذا الجلال والإكرام « عزيز » أى غالب يقدر ولايقدر عليه « ذوانتقام » أى ممن عصاه « يوم تبدل الأرض غير الأرض » بدل من « يوم يأتيهم » أو ظرف للانتقام ، والمعنى : يوم تبدل هــــذه الأرض التى تعرفونها أرضا أخرى غير هذه الأرض المعروفة ، وقوله تعالى « والسموات » عطف على الأرض وتقديره والسموات ، والتبديل : التغيير والمراد تبديل الأرض نفسها ، أوتبديل صفتها ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الأرض تغير فتبدل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتستوى ، فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وتبدل السماء بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ، ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، ونحن إذ نعيش اليوم فى عصر

الذرة والفضاء الكونى نعلم أن العلم الحديث أصبح يؤمن اليوم بما قاله القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، وقد نشر منذ أيام أن لدى بعض الدول من الأسلحة النووية ما يكفى لتدمير الأرض التى نعيش عليها أعظم تدمير .. « وبرزوا » أى خرجوا من قبورهم « لله » أى لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب « الواحد » أى الذى لا شريك له « القهار » أى الذى لا يدفعه شيء عن مراده ، كما قال تعالى « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » ، ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بكونه قهاراً بين عجزهم وذلتهم بقوله تعالى « وترى » يا محمد أى تبصر « المجرمين » أى الكافرين « يومئذ » أى يوم القيامة ، ثم ذكر تعالى من صفات عجزهم وذلتهم أمور :

الصفة الأولى قوله تعالى « مقرنين » أى مشدودين « فى الأصفاد » جمع صفد وهو القيد ، قال عطاء : هو معنى قوله تعالى « وإذا النفوس زوجت » أى قرنت ، فتقرن نفوس المؤمنين بنفوس الحور العين ، وتقرن نفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين ، وقيل : هو قرن بعض الكفار ببعض ، فتضم تلك النفوس الشقية والأرواح المظلمة بعضها إلى بعض لكونها متشاكلة متجانسة ، وتنضاف ظلمة كل واحدة منها إلى الأخرى ، وقال ابن زيد : قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال .

الصفة الثانية قوله تعالى « سرابيلهم » أى قمصهم جمع سربال وهو القميص « من قطران » هو شيء تطلى به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف ، ومن شأنه أنه يتسارع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير الطلاء كأنه سربال على أجسادهم .

الصفة الثالثة قوله تعالى « وتغشى » أى تعلو « وجوههم النار » ونظيره قوله تعالى « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب » ، وقوله تعالى « يوم يسحبون فى النار على وجوههم » ، ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم هو الرأس ، وأثر هذه الأحوال تظهر فى الوجه - خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال فى القلب : « نار الله الموقدة

التى تطلع على الأفئدة ، وقال فى الوجه : « وتغشى وجوههم النار » وقوله تعالى «ليجزى الله» متعلق ببرزوا «كل نفس ما كسبت» أى من خير أو شر ، وهذا أولى من قول الواحدى أن المراد منه أنفس الكفار ؛ لأن ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لأهل الإيمان، ولما كان حساب كل نفس جديراً بأن يستعظم قال «إن الله سريع الحساب» أى لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى ولا شأن عن شأن ، وقوله تعالى «هذا» إشارة إلى القرآن الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور نزل منزلة الحاضر ، وقيل: إلى السورة «بلاغ» أى كاف غاية الكفاية فى الإيصال «للناس» والموعظة لهم «ولينذروا» أى وليخوفوا «به» وهو عطف على محذوف ، والتقدير : لينصحوا ولينذروا، وقيل : الواو مزيدة ولينذروا متعلق ببلاغ «وليعلموا» أى بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى «أنما هو» أى الله «إله واحد» فيستدلون بذلك على أن الله واحد لا شريك له «وليذكر» أى يتعظ «أولو الألباب» أى أصحاب العقول الصافية من الأكدار والأفهام الصحيحة ، فإنه موعظة لمن اتعظ . . هذا وقد ذكر الله سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد مستفادة من قوله تعالى «لينذروا به» وما تلاه . والحكمة فى إنزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمالهم القوة النظرية التى منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية التى هى التدرع بلباس التقوى .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الثالث من سورة إبراهيم الذى تضمن التنديد بالكفار ، ودعوة الله للمؤمنين إلى طاعته وامتثال أوامره وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ كما تضمن التنويه بعظمة الله وقدرته فى السماء والأرض ، ودعوات أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام فى مكة إلى الله وابتهالاته .. والتنديد بالكفار وجرائمهم وتحذيرهم من عذاب يوم القيامة .. وقد وصف الله عز وجل مطلع يوم القيامة بأسلوب بليغ ، فذكر تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وسوى ذلك .. وفى آخر السورة يمجد الله عز وجل القرآن الكريم ، وينوه به ، ويصفه بأنه بلاغ للناس أى إعلان للإنسانية كلها ، يتضمن شريعة التوحيد والسلام ..

نظرة عامة فى سورة إبراهيم

(١)

سورة إبراهيم من السور المكية ، وكذلك سورة الرعد قبلها على ما رجحناه من أنها مكية ، وقدسميت سورة إبراهيم باسم إبراهيم عليه السلام نبي التوحيد ، وواضع أساس أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله .

(٢)

وسورة إبراهيم اثنان وخمسون آية ، وقد بدأت — كما ختمت — بتمجيد القرآن الكريم والتنويه به وبعظمة هدايته للناس ، وتتحدث السورة عن الكافرين وما أعده الله لهم من عذاب شديد ، وسبب استحقاقهم لهذا العذاب ، ويبين الله عز وجل هلاك فرعون بسبب كفرهم بآيات الله وبرسالة نبيهم موسى عليه السلام . . ثم يخاطب الله عز وجل مشركى مكة يطلب إليهم أن يتدبروا قصص الأمم البائدة مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . . ثم يذكر حجاج الكافرين مع رسلهم فى الدنيا وعذاب الله الذى أعده لهم فى الآخرة ، وحجاج الأتباع والمتبوعين فى الآخرة . . كما يذكر القرآن الكريم ما أعده الله عز وجل للمؤمنين من جنات ونعيم ، ويضرب المثل رائعا لكلمة التوحيد وكلمة الكفر . . ويعود إلى حديث الكفار والمضللين الذين ضللوا قومهم وشعوبهم ، وصرفوهم عن الحق وعن الصراط المستقيم والعذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة ، ويدعو الله عز وجل المؤمنين إلى طاعته وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ويذكرهم بقدرته فى السماء والأرض ، وينوه بشأن نبي التوحيد إبراهيم عليه السلام ، أول الداعين إلى رسالة التوحيد والحنيفية البيضاء ، ويذكر دعواته وابتهالاته إلى الله فى مكة . .

ثم يصف الله عذاب يوم القيامة وشدائده وأهواله ، وما يحدث للأرض والسماء حين يجيء المصير المحتوم .

(٣)

وهكذا نجد السورة كلها حديثا عن الكافرين وكفرهم وضلالهم وعذاب الله لهم فى الدنيا والآخرة ، وبجانب هذا يذكر الله عز وجل المؤمنين ويثنى عليهم ويبين رضاءه عنهم ، ونعيمه الذى أعده لهم فى الآخرة .

والآية الكريمة « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » من روائع الآيات الجامعة الدالة على قدرة الله عز وجل .. وقد أيد العلم الحديث إمكان ذلك ؛ فنحن ـ وإن كنا لانزال فى أول العصر الذرى والهيدروجينى وفى أول عصر الفضاء الكونى ـ لانجد مشقة فى فهم معنى هذه الآية الكريمة ، فقد ثبت أن قوة القنبلة الذرية والهيدروجينية ، وقوة الأسلحة النووية كافية لتدمير الأرض وتسيير الجبال وتسجير البحار ، والله القادر على كل شىء ، وقد جعل لكل شىء سببا فأتبع سببا .

(١٥)

ســـورة الحجر

تمهيد

(١)

سورة الحجر مكية نزلت بعد سورة يوسف ، وقد نزلت يوسف بعد الإسراء قبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الحجر فى ذلك التاريخ أيضاً . وسميت بهذا الإسم لأنها قد ذكر فيها قصة أصحاب الحجر ، وهم ثمود قوم صالح عليه السلام .

وكانت مدينة « حجر » مقر ثمود الرئيسى ، وتقع على الطريق القديم بين الحجاز وسوريا ، وتسمى « حجر » الآن « مدائن صالح » نسبة إلى النبى صالح عليه السلام . وقد ارتفع شأن ثمود بعد فناء عاد ، وكانوا قوما أقوياء ، يسكنون شمال بلاد العرب ، كما كانوا كقوم عاد بنائين مهرة ، دأبهم إقامة البيوت والقصور والقبور من الحجارة فى الجبال ، وقد انتهت ثمود قبل مبعث موسى عليه السلام ، وعهد دولتهم من ١٨٠٠ — ١٦٠٠ ق م . . وكانت ثمود تعبد الكواكب والنجوم . . . وقد خلفهم أهل مدين الذين عاصروا موسى ثم جاءت بعدهم ثمود الثانية ولم يكونوا على شيء من القوة ، فاستولى الرومان على البطراء العربية فى شمال جزيرة العرب وهى على مقربة من أرضهم ، واستولى ملك أشور سرجون الثانى (٧٣٢ — ٧٠٥ ق م) على شمال بلاد العرب وخضعت له ثمود الثانية . . . وقد خلف أهل مدين ثموداً وكانوا معاصرين لموسى عليه السلام .

(٢)

وآيات السورة تسع وتسعون آية ، وقد تضمنت ذكر القرآن الكريم والتنويه به ، وإثبات تنزيله من الله ، كما تضمنت ما تضمنت من الترهيب والتحذير للمشركين وتذكيرهم بما حصل للأمم السالفة قبلهم .

(٣)

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة إبراهيم لأنها تشبهها فى الغرض المقصود منها ، كما تشبهها فى الحروف التى افتتحت بها ، ولأنها تتحد معها فى عصر نزولها ، وفى كونهما من السور المكية .

وسورة الحجر تتصل بسورة إبراهيم بصلات وثيقة ، ففى مطلع كل من السورتين تمجيد للقرآن الكريم ، وفى كل من السورتين إنذار للكافرين وتحذير لهم ، وبيان لعظم العذاب الذى ينتظرهم يوم القيامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة الحجر

١ – الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ .

٢ – رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ .

٣ – ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

٤ – وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ .

٥ – مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ .

هذه الآيات الخمس هى مطلع سورة الحجر ، وفيها ما فيها من معان كريمة ، وعظات بالغة . . فنى الآية الأولى تنويه بالقرآن الكريم وعظمته ، وفى الآية الثانية بيان لندم الكافرين يوم القيامة وتمنيهم لو كانوا قد أسلموا فى الدنيا ، وآمنوا برسالة الإسلام . . وفى الآية الثالثة تهديد للكافرين ، وبيان لعاقبة لهوهم وباطلهم . . وفى الآية الرابعة تقرير لأن مصارع الأمم لها أجل معلوم ، وأسباب تدعو إليها . . وفى الآية الخامسة بيان لأن نهايات الدول محددة ، وأسبابها كذلك معلومة ، فلا تسبق أمة أجلها وما يستأخرون . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « الر » هو من مطالع سور القرآن الكريم التى شرحناها وشرحنا الآراء فيها فى مواطن كثيرة « تلك » إشارة إلى آيات هذه السورة أى هذه الآيات « آيات الكتاب » أى القرآن « وقرآن مبين » أى مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة ، وقيل : المراد بالكتاب التوراة والإنجيل وبالقرآن ، هذا الكتاب . . ثم بين سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى : « ربما يود » أى يتمنى « الذين كفروا » إذا عاينوا

حالهم وحال المسلمين فى ذلك اليوم « لو كانوا مسلمين » وقيل: حين يعاينون حال المسلمين عند نزول النصر وحلول الموت ، ورب للتكثير فإنه يكثر منهم ذلك ، وقيل : للتقليل فإن الأهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك إلا فى أحيان قليلة ، وقد دخلت هنا رب على المضارع مع أنهم أبوا دخولها إلا على الماضى ، لأن المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحقيقه ، فكأنه قيل: ربما ودوا ، وتخفيف « ربما » لغة أهل الحجاز، وقيس وبكر يثقلونها . ولما تمادوا فى طغيانهم قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « ذرهم » أى دعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة واتركهم « يأكلوا ويتمتعوا » بدنياهم والتلذذ بشهواتهم ، والتمتع هو التلذذ وهو طلب اللذة حالا بعد حال ، كالتقرب فى أنه طلب القرب حالا بعد حال « ويلههم الأمل » أى ويشغلهم توقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن أخذ حظهم من السعادة وعن الاستعداد للمعاد ، ولما كان هذا أمرا لا يشتغل به إلا أحمق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى « فسوف يعلمون » أى ما يحل بهم بعد ما فسحنا لهم فى زمن التمتع من سوء صنيعهم ، وهذا قبل الأمر بالقتال ، وفى الآية دليل على أن إيثار التلذذ والتنعم فى الدنيا من أخلاق الهالكين ، والأخبار فى ذم الأمل كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر ، وعن على رضى الله تعالى عنه : إنما أخشى عليكم اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى ؛ فإن طول الأمل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق . . ولما هددهم الله تعالى بآية التمتع وإلهاء الأمل أتبعه بما يؤكد الزجر بقوله تعالى « وما أهلكنا من قرية » أى من القرى والمراد أهلها ومن مزيدة ، والمعنى : وما أهلكنا من أمة « إلا ولها كتاب معلوم » أى أجل مضروب محدود مكتوب فى اللوح المحفوظ لهلاكها . . ثم بين الله تعالى الآية السابقة بقوله تعالى « ما تسبق » وأكد الاستغراق بقوله تعالى « من أمة » وقيل من مزيدة كقوله : ما جاءنى من أحد . . كما بين أن المراد بالكتاب الأجل بقوله تعالى « أجلها » أى الذى قدرناه لها ، « وما يستأخرون » أى عنه ؛ وقد أنث الأمة أولا حملا على اللفظ ، ثم أعاد الضمير عليها ثانيا حملا على المعنى .

٦ — وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

٧ — لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

٨ — مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ .

٩ — إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

١٠ — وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ .

١١ — وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

١٢ — كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ .

١٣ — لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

١٤ — وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ .

١٥ — لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ .

في هذه الآيات العشر بيان لجدل المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورميهم له بالجنون وطلبهم نزول الملائكة مصدقة له ، ورد الله عز وجل عليهم وعلى اقتراحاتهم الآثمة .. ويذكر الله عز وجل أن الله عز وجل الذى نزل القرآن هو الذى سيحفظه ، سيحفظ دعوته إلى البشر لتبقى أبد الآباد منيرة هادية ، وسيحفظه هو ليظل كتاب البشر والبشرية جمعاء على مر العصور واختلاف الأجيال . . . ثم يذكر الله عز وجل أن الله تعالى أرسل رسلا كثيرين قبله إلى الأمم السالفة يدعونهم إلى الهدى والتوحيد والطهر والخير والسلام والمحبة ، وكانت الأمم تقابل رسلها بالاستهزاء والسخرية والتكذيب .. ويذكر الله عز وجل أن المشركين مهما جحدوا القرآن ورسالة الإسلام ، فإن دعوة القرآن وبلاغته تنفذ إلى قلوب المشركين فتدمر معنوياتهم،

وتنسف أباطيلهم ، وتبعث فى قلوبهم الشك والريبة والحيرة ، ومع ذلك فهم لا يؤمنون به ، مع علمهم بسنة الله فى الأمم البائدة ، إذ حكم عليها بالهلاك حين كذبت رسلها ، وهؤلاء المشركون لو صعدبهم الله إلى السماء ليروا عجائب قدرة الله عز وجل لما آمنوا ، ولظلوا فى طغيانهم يعمهون .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر » أى القرآن فى زعمه « إنك لمجنون » إنما نسبوه إلى الجنون . إما لأنهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله ؛ لأن الرجل إذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال : به جنون ، وإما لأنه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه عند نزول الوحى حالة شبيهة بالغشى فظنوا أنها جنون ، ويدل عليه قوله تعالى « أو لم يتفكروا مابصاحبهم من جنة » ثم أتبعوه مازعموا أنه دليل على قولهم فقالوا « لوما » أى هلا « تأتينا بالملائكة » أى يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقا « إن كنت من الصادقين » فى ادعائك بالرسالة وأن هذا القرآن من عند الله ، ولما كان فى قولهم أمران أجاب الله تعالى عن قولهم الثانى لأنه أقرب بقوله تعالى « ماننزل الملائكة إلا بالحق » أى لا ننزلها إلا ملتبسين بالحكمة والمصلحة ولا حكمة فى أن نأتى بهم عيانا يشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ، ومثله قوله تعالى: «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق» وقيل : الحق الوحى أو العذاب « وما كانوا » أى الكفار « إذا » أى إذ تأتيهم الملائكة « منظرين » أى لزال عنهم الإمهال وعذبوا فى الحال إن لم يؤمنوا ويصدقوا ، وكان حينئذ يفوت ماقضينا به من تأخيرهم وإخراج من أردنا إيمانه من أصلابهم ، ثم أجاب تعالى عن الأول بقوله تعالى مؤكدا لتكذيبهم « إنا نحن » بما لنا من العظمة والقدرة « نزلنا » أى بالتدريج على لسان جبريل عليه السلام « الذكر » أى القرآن « وإنا له لحافظون » أى من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان ، ونظيره قوله تعالى « لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لا يقدر

أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه أو ينقص منه كلمة واحدة أو حرفا واحدا، وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها التحريف والزيادة والنقصان .. وقد اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف، وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه؛ لأن جمعهم القرآن في المصحف كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه، فإنه تعالى لما أراد حفظه أقامهم لذلك، قال أصحابنا: في الآية دلالة قوية على كون البسملة آية من أول كل سورة، لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصونا من الزيادة والنقصان، فلو لم تكن البسملة آية من القرآن لما كان القرآن مصونا من التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة، ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا جاز أيضا أن يظن بهم النقصان، وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة، وقيل: الضمير في قوله «له» راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى: وإنا لمحمد لحافظون ممن أراد به سوءا، فهو كقوله تعالى «والله يعصمك من الناس»، ولما أساء الكفار إليه صلى الله عليه وسلم في الأحوال وخاطبوه بالسفاهة وقالوا: إنك لمجنون. وكان ذلك عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء، قال سبحانه وتعالى تسلية له على وجه الرد عليهم «ولقد أرسلنا من قبلك» أي رسلا فحذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه، وقوله تعالى «في شيع» أي فرق «الأولين» من باب إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله تعالى «حق اليقين» سموا شيعا لمتابعة بعضهم بعضا في الأحوال التي يجتمعون عليها في الزمن الواحد، والشيع جمع شيعة وهي الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة، وقال الفراء: الشيعة الأتباع وشيعة الرجل أتباعه، وقيل: الشيعة من يتقوى بهم الإنسان، «وما يأتيهم» عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية إذ (ما) لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال، والأصل: وما كان يأتيهم «من رسول» أي على أي وجه كان «إلا كانوا به» جبلة وطبعا «يستهزئون» كاستهزاء قومك فصبروا فاصبر كما صبروا «كذلك»

أى مثل إدخالنا التكذيب فى قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل « نسلكه » أى ندخله « فى قلوب المجرمين » أى كفار مكة المستهزئين « لا يؤمنون به » أى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : بالقرآن ، وفى الآية دليل على أن الله تعالى يخلق الباطل فى قلوب الكفار ، والسلك : إدخال الشىء فى الشىء كالخيط فى المخيط ، ومنه قوله تعالى « ما سلككم فى سقر » ، وقيل : الضمير فى نسلكه يعود للذكر كما أن الضمير فى به يعود إليه ، وجملة «لا يؤمنون به» حال من ذلك الضمير ، والمعنى على هذا : مثل ذلك السلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين مكذبا غير مؤمن به « وقد خلت سنة الأولين » أى سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم ، وفيه وعيد شديد لكفار مكة بأنه ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية المكذبة ، وقال الزجاج : قد مضت سنة الله فى أن يسلك الكفر والضلال فى قلوبهم ، قال الرازى : وهذا أليق بظاهر اللفظ «ولو فتحنا عليهم بابا من السماء » الآية هو المراد فى سورة الأنعام فى قوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس » الآية أى إن الذين يقولون : لو ما تأتينا بالملائكة ، فلو أنزلنا الملائكة « فظلوا فيه » أى فظلت الملائكة « يعرجون » أى يصعدون فى الباب وهم يرونها عيانا « لقالوا » أى من عتوهم فى الكفر « إنما سكرت أبصارنا » أى سدت عن الإبصار بالسحر أو من السكر ، ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف أو حيرت من السكر ، ويدل عليه قراءة الباقين بالتشديد « بل نحن قوم مسحورون » أى قد سحرنا محمد بذلك كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات كانشقاق القمر وما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يو قيل يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله ، : الضمير فى « يعرجون » يعود على المشركين ، أى لو ظل المشركون يصعدون فى ذلك الباب ، فينظرون فى ملكوت السموات وما فيها من العجائب ، لما آمنوا لعنادهم وكفرهم ، وقالوا : إنا سحرنا .

١٦ — وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ .

١٧ — وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ .

١٨ — إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ .

١٩ — وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ .

٢٠ — وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ .

٢١ — وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ .

٢٢ — وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ .

٢٣ — وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ .

٢٤ — وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ .

٢٥ — وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

فى هذه الآيات العشر ذكر لكمال قدرة الله فى السماء والأرض ، تأكيداً لقدرته العظيمة على البعث والجزاء ، وعلى إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية ، وفى طليعتها القرآن الكريم .. ولما أجاب الله تعالى عن شبهة منكرى النبوة ، والقول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد ، ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية ، وبدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال عز وجل فى كتابه الحكيم : « ولقد جعلنا ، بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة ، فى السماء بروجا ، قال الليث : البروج واحدها برج من بروج الفلك ، والبروج هى النجوم الكبار مأخوذة من الظهور ، يقال : تبرجت المرأة إذا ظهرت ، وأراد بها المنازل التى

تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة ، قال ابن عباس فى هذه الآية : يريد بروج الشمس والقمر يعنى منازلها ، وقال مجاهد : هى النجوم العظام ، قال أبو إسحاق : يريد نجوم هذه البروج « وزيناها » أى السماء بالشمس والقمر والنجوم والأشكال والهيئات البهية « للناظرين » أى المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذى أوجد كل شىء وخلقه وصوره « وحفظناها من كل شيطان رجيم » أى مرجوم ، وقيل : ملعون ، قال ابن عباس : كانت الشياطين لايحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة ، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ، ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمى بشهاب ، فلما منعوا تلك المقاصد ذكروا لإبليس فقال : لقد حدث فى الأرض حدث ؛ فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن ، فقالوا : والله هذا حدث « وقوله تعالى « إلا من استرق السمع » بدل من شيطان رجيم ، وقيل : استثناء منقطع أى لكن من استرق السمع ، واستراق السمع : اختلاسه ، قال ابن عباس : يريد الخطفة اليسيرة ، وذلك أن الشياطين كانوا يصعدون إلى سماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى : « فأتبعه بشهاب مبين » الشهاب : شعلة من نار ساطعة ، وقد تطلق على الكواكب لما فيها من البريق .

ولما شرح الله تعالى الدلائل السماوية فى تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الأرضية وهى أنواع :

النوع الأول: قوله تعالى « والأرض مددناها » قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء ، والأرض هى كرة فى غاية العظمة ، والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوى .

النوع الثانى: قوله تعالى « وألقينا فيها رواسى » أى جبالا ثوابت ، واحدها

راسى والجمع راسية وجمع الجمع رواسى ، وهو كقوله تعالى « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » ، قال ابن عباس : لما بسط الله الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة ، فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكى لا تميد بأهلها .

النوع الثالث قوله تعالى « وأنبتنا فيها » واختلف فى عود الضمير فى فيها فقيل : يعود إلى الأرض لأن أنواع النبات المنتفع به يكون فى الأرض ، وقيل : إلى الجبال لأنها أقرب مذكور ، ولقوله تعالى « من كل شىء موزون » وإنما يوزن ما يتولد من الجبال ، والأولى عوده لهما ، واختلفوا فى المراد بالموزون ، فقال ابن عباس : أى معلوم ، وقال مجاهد : أى مقدار معين تقتضيه حكمته ، وقال الحسن: أعنى به الشىء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن ، والأولى أنه جميع ما ينبت فى الأرض والجبال لأن ذلك نوعان : أحدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون ، والثانى النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع إلى الوزن لأن الصاع والمد مقدران بالوزن « وجعلنا لكم فيها » أى إنعاما وتفضلا عليكم « معايش » جمع معيشة وهى ما يعيش به الإنسان مدة حياته فى الدنيا من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها « و » جعلنا لكم « من لستم له برازقين » من العبيد والأنعام والدواب والطير ، فإنكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين ، لأن رزق جميع الخلق على الله تعالى . والله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك ، لأنه تعالى خلق الأطعمة والاشربة وأعطى القوة ، فإن قيل: صيغة (من) مختصة بمن يعقل ، فالجواب أنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقاً على الله حيث قال : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » فغلب من يعقل على غيره .

ولما بين سبحانه وتعالى أنه أنبت لهم كل شىء موزون وجعل لهم معايش أشعر بذكر ما هو السبب لذلك فقال تعالى : « وإن » أى وما « من شىء » أى مما ذكر وغيره من الأشياء الممكنة وهى لا نهاية لها « إلا عندنا خزائنه » أى قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه ، فضرب الخزائن مثلا

لاقتداره على كل مقدور ، وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : فى العرش تمثال جميع ما خلق الله فى البحر والبر ، والخزائن جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه للحفظ ؛ وقيل : أراد مفاتيح الخزائن ، وقيل : المطر لأنه سبب الأرزاق لبنى آدم والوحش والطير والدواب ، ومعنى عندنا أى فى حكمه تعالى وتصرفه وأمره وتدبيره « وما ننزله إلا بقدر معلوم » أى على حسب المصالح ؛ وقيل : إن لكل أرض حداً ومقداراً من المطر ، يقال: لا ينزل من السماء قطرة مطر إلا ومعها ملك يسوقها إلى حيث يشاء الله.

ولما تم ما أراد من آيات السماء والأرض وختمه بشمول قدرته لكل شىء ، أتبعه بما ينشأ عنهما مما هو بينهما مودعا فى خزائن قدرته ، بقوله تعالى : « وأرسلنا الرياح » جمع ريح « لواقح » أى حوامل لأنها تحمل الماء إلى السحاب فهى لاقحة، يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد ، وقال عبيد بن عمير : يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاما ، ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر ، وعن ابن عباس قال : ما هبت ريح قط إلا جثا النبى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحا ، وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا عصفت الريح قال : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، وفى الآية معجزة علمية جليلة ، وهى تثبت صدق محمد فيما بلغ به عن ربه ، إذ من ذا الذى كان فى عصر محمد يعلم أن الرياح تحمل اللقاح من بعض الأشجار فتلقح به أشجارا أخرى ؟ « فأنزلنا » أى بعظمتنا بسبب تلك السحائب التى حملتها الريح «من السماء» أى الحقيقية أوجهتها أو السحاب«ماء «فأسقيناكموه» أى جعلناه لكم سقيا ، يقال : سقيته مايشرب به وأسقيته أى مكنته منه ليسقى به ما شيته ومن يريد ، ونفى سبحانه وتعالى عن غيره ما أثبته أولا لنفسه بقوله : « وما أنتم له » أى لذلك الماء « بخازنين » أى ليست خزائنه بأيديكم ، والخزن وضع الشىء فى مكان معين للحفظ ، فثبت أن القادر عليه

واحد مختار . ومن دليل التوحيد الإحياء والإماتة كما قال تعالى : « وإنا لنحن نحيي » أى لنا هـذه الصفة على وجه العظمة فنحيي بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن النبات بالنمو « ونميت » أى لنا هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء « ونحن الوارثون » أى الإرث التام إذا مات الخلائق ، فنحن الباقون بعد كل شيء كما كنا ولا شيء ، فليس لأحد تصرف بإماتة ولا إحياء ، فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة إلا بالعلم قال تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم » وهو من قضينا بموته أولا من لدن آدم ، فيكون فى موته كأنه يسارع إلى التقدم إليه « ولقد علمنا المستأخرين » أى الذين نمد فى أعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كأنهم يسابقون إلى ذلك ، وقال ابن عباس : أراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء ، وقال عكرمة : المستقدمين من خلق الله والمستأخرين من لم يخلق ، وقال الحسن : المستقدمين فى الطاعة والخير والمستأخرين المتبطئون ، وقيـل : المستقدمين من القرون الأولى والمستأخرين أمة محمد صلى الله عليه وسـلم ، وقيل : المستقدمين فى الصفوف والمستأخرين فيها ، وذلك أن النساء كن يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان فى الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة، فتتقدم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها . وفى سبب نزول هذه الآية قولان: أحدهما أن امرأة حسناء كانت تصلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يتقدم حتى يكون فى أول صف حتى لا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون فى آخر صف ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه فنزلت ، والثانى أن النبي صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الأول فازدحموا عليه ، وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد : لنبيعن دورنا ولنشترين دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المتقدم فنزلت « وإن ربك هو يحشرهم » أى المستقدمين والمستأخرين للجزاء ، وذكر « هو » للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم

لاغيره ، وتصدير الجملة بأن لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ماسبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى « إنه حكيم » أى باهر الحكمة . جميع أفعاله هى مثال الإتقان والكمال ، « عليم » يسع علمه كل شىء .

٢٦ — وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .

٢٧ — وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ .

٢٨ — وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .

٢٩ — فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ .

٣٠ — فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .

٣١ — إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ .

٣٢ — قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ .

٣٣ — قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ

٣٤ — قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .

٣٥ — وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ .

٣٦ — قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

٣٧ — قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ .

٣٨ — إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ .

٣٩ — قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

٤٠ — إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ .

٤١ — قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ .

٤٢ — إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ .

٤٣ — وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ .

٤٤ — لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ .

٤٥ — إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ .

٤٦ — ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ .

٤٧ — وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ .

٤٨ — لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ .

فى هذه الآيات الثلاث والعشرين استدلال على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، كذلك بخلقه تعالى ابتداء للإنسان ، وبتفضيل الله عز وجل له ، وبذكر الله عز وجل أمره الملائكة بالسجود لآدم ، وامتثالهم لهذا الأمر جميعا ماعدا إبليس الذى خرج من رحمة الله وأغوى الناس إلا عباد الله المخلصين ، وبين الله عز وجل ماأعده من العقاب للغاوين ، ومن النعيم للمتقين .

ولما استدل سبحانه وتعالى بقدرته فى السماء والأرض على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بقدرته فى خلق الإنسان على هذا المطلوب فقال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان » قال الرازى والمفسرون : اجمعوا على

أن المراد منه آدم عليه السلام ، ونقل فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر أنه قال: قد انقضى قبل آدم الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر ، سمى إنسانا لظهوره وإدراك البصر إياه ، وقيل : من النسيان لأنه عهد إليه فنسى « من صلصال » أى من الطين الشديد اليابس الذى لم تصبه نار ، إذا نقرته سمعت له صلصلة أى صوتا ، وقال ابن عباس : هو الطين إذا انصب عليه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع ، وقال مجاهد : هو الطين المنتن، واختاره الكسائى وقال الفراء : هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره ، وقال الرازى: قال المفسرون : خلق الله تعالى آدم من طين فصوره وتركه فى الشمس أربعين سنة فصار صلصالا لايدرى أحد مايراد به ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح « من حمأ » أى طين أسود منتن « مسنون » أى مصور بصورة الآدمى ، وقال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن ، وقال مجاهد: هو المنتن المتغير .

ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الإنسان ذكر ماخلقه قبله من الجان فقال تعالى « والجان » قال ابن عباس هو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر وإبليس أبو الشياطين ، وفى الجن مسلمون وكافرون ، يشربون ويأكلون ويحييون ويموتون كبنى آدم ، وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات إبليس ، وقال وهب : إن من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هو بمنزلة الريح ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين، والأصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاستتار، وسموا جناً لتواريهم واستتارهم عن الأعين ، من قولهم: جن الليل إذا استتر، والشيطان هو العاتى المتمرد الكافر ، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر « خلقناه من قبل » أى قبل خلق الإنسان « من نار السموم » أى من ريح حارة تدخل مسام الإنسان فتقتله من قوة حرارتها ، ويقال : السموم بالنهار والحرور بالليل ، وقال الكلبى عن أبى صالح : السموم نار لادخان لها والصواعق تكون منها وهى نار تكون فى وسط السماء ، وعن الضحاك عن

ابن عباس : كان إبليس من حى من الملائكة يقال لهم : الجن، خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار ، وأما الملائكة فخلقوا من النور .

ولما ذكر الله تعالى حدوث الإنسان الأول ، واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار ، ذكر موقف إبليس منه بقوله : « إذ » أى واذكر يا محمد قول ربك عز وجل إذ « قال ربك » أى المحسن إليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام « للملائكة أنى خالق بشرا » المراد ملائكة السماء أو ملائكة الأرض من «صلصال من حمأ مسنون» تقدم تفسيره « فإذا سويته » أى عدلته وأتممته وهيأته لنفخ الروح فيه « ونفخت فيه من روحى » أى خلقت الحياة فيه ، وليس نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل، وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً كما يقال : بيت الله، وهو ما يصير به الروح عالما وأشرف منه ما يصير به العالم عاملا خاشعا « فقعوا » أى اسقطوا « له » تعظيما حال كونهم « ساجدين » كسجود الصلاة ، وقيل : هو سجود انحناء أو غيره « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » قال سيبويه تأكيد بعد تأكيد ، وسئل المبرد عن ذلك فقال : لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال(كلهم) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم عند هذا بقى احتمال، وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد فى وقت غير وقت سجود الآخر ، فلما قال: أجمعون ظهر أن سجدوا دفعة واحدة ، قال الزجاج : وقول سيبويه أجود لأن أجمعين معرفة الكل فلا يكون حالا « إلا إبليس » أجمعوا على أن إبليس كان مأمورا بالسجود لآدم، واختلفوا فى أنه هل كان من الملائكة أم لا؟ وقد سبقت هذه المسألة « أبى أن يكون مع الساجدين » أى لآدم ، وهو على تقدير أن قائلا قال : هل سجد ؟ فقيل : أبى ذلك واستكبر عنه « قال » الله تعالى له « يا إبليس مالك أن لا تكون » أى أن تكون ، و(لا) مزيدة أى ما منعك أن تكون «مع الساجدين» لآدم « قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » وهو أخس العناصر ، وخلقتنى من نار وهى أشرفها ، قال بعض المتكلمين : إنه تعالى

أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله ، وأجيب بأن مكالمة الله تعالى إنما تكون منصبا عاليا إذا كانت على سبيل الإكرام والإعظام فإذا كانت على سبيل الإهانة والإذلال فلا « قال » الله تعالى له « فاخرج منها » أى من الجنة، وقيل : من السموات ، وقيل : من زمرة الملائكة «فإنك رجيم»أى مطرود من الخير والكرامة ، فان من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان رجيم بالشهب ، وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته « وإن عليك اللعنة » أى هذا الطرد والإبعاد « إلى يوم الدين » قال ابن عباس: يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم مثل قوله تعالى« مالك يوم الدين » فإن قيل :كلمة إلى تفيد حصر انتهاء الغاية فهذا يفيد بأن اللعنة لا تحصل إلا إلى يوم الدين وعند القيامة يزول اللعن ، أجيب بجوابين : الأول : أن المراد التأبيد ، وذكر القيامة أبعد غاية ذكرها الناس فى كلامهم كقولهم ما دامت السموات والأرض فى التأبيد ، والثانى أنه مذموم مدعو عليه باللعن فى السموات والأرض إلى يوم القيامة من غير أن يعذب ، فإذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يقترن اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه ، ولما جعله الله تعالى رجيما ملعونا إلى يوم القيامة فكان قائلا يقول : فماذا قال ؟ فقيل : « قال رب » فاعترف بالعبودية والإحسان إليه « فأنظرنى » أى أخرنى والإنظار تأخير المحتاج للنظر فى أمره والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه : فاخرج منها فإنك رجيم «إلى يوم يبعثون» أى الناس أى لعله يجد فسحة فى الأمر أو نجاة من الموت إذ لا موت بعد وقت البعث « قال » الله تعالى مجيبا للأول دون الثانى بقوله تعالى « فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » وهو المسمى فيه أجلك عند الله وهو النفخة الأولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن فى دار الخلد ؛ فإن قيل :كيف أجابه الله تعالى إلى ذلك الإمهال ؟ أجيب بأنه إنما أجابه لذلك زيادة فى بلائه وشقائه وعذابه لا لإكرامه ورفع مرتبته ، ولما أجيب لذلك كأنه قيل : فماذا قال ؟ فقيل : « قال رب » أى أيها الموجد والمدبر لى وقوله « بما أغويتنى » أى خيبتنى من رحمتك ،

« لأزين » أى أقسم بإغوائك إياى لأزين « لهم فى الأرض » حب الدنيا ومعاصيك كقوله تعالى : فبعزتك لأغوينهم أجمعين .. « ولأغوينهم » أى بالإضلال عن الطريق الحميد بإلقاء الوسوسة فى قلوبهم ولأحملنهم « أجمعين » على الغواية ، وقوله « إلا عبادك منهم المخلصين » قراءة ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام أى الذين أخلصو دينك عن الشوائب ، وقرأ الباقون بفتحها أى الذين أخلصهم الله تعالى بالهداية ، وإنما استثنى من إبليس المخلصين لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه ، والإخلاص فى العمل سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ، وذكر القشيرى وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : سألت جبريل عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سر استودعته قلب من أحب من عبادى ، ولما ذكر إبليس أنه يغوى بنى آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه ، وتضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى الله تعالى وإلى إرادته « قال » تعالى « هذا » أى الذى ذكرته « صراط » أى طريق « على مستقيم » أى لا انحراف عنه لأنى قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل أنت ، ولما قال إبليس : لأزين لهم فى الأرض إلا عبادك منهم المخلصين أوهم هذا أن له سلطانا على عباد الله غير المخلصين ، فبين تعالى كذبه وأنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين ، بل ومن تبع إبليس منهم باختياره صار تبعاً له ، ولكن تلك المتابعات أيضاً ليس لأجل إبليس ، وأوهم أن له على عباد الله سلطانا ، فبين تعالى كذبه ، وذكر تعالى أنه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلا بقوله تعالى « إن عبادى » أى المؤمنين كلهم « ليس لك » أى بوجه من الوجوه « عليهم سلطان » أى لتردهم كلهم كما يرضينى ، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » ، وقال تعالى فى آية أخرى : « ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » « إلا من اتبعك »

أى بتعمد منه ورغبة فى اتباعك « من الغاوين » أى ومات عن غير توبة فإنى جعلت لك عليهم سلطانا بالتزيين والإغواء ، سئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية قال : معناها ليس عليهم سلطان يلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى ، وقيل: إن الإضافة للتشريف فلا تشمل إلا الخلص « وإن جهنم لموعدهم » أى الغاوين وهم إبليس ومن تبعه « أجمعين » ثم بين تعالى أنهم متفاوتون فيها بقوله تعالى « لها » أى لجهنم « سبعة أبواب » أى سبع طبقات ، قال على رضى الله عنه : أتدرون كيف أبواب النار؟ هى هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى أى سبعة أبواب بعضها فوق بعض ، وأن الله تعالى وضع الجنات على العرش ووضع النيران بعضها على بعض ، فأهل النار سبع فرق ، وقيل : جعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لأنها مصادر السيئات فكانت مواردها الأبواب السبعة . . ولما كانت هى بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية إعمال القلب زادت الأعضاء واحدا فجعلت أبواب الجنة ثمانية ، قال تعالى « لكل باب » أى منها « منهم » أى من الغاوين خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم « جزء » أى نصيب « مقسوم » أى معلوم ، قال الضحاك : فى الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون ، وفى الثانية النصارى ، وفى الثالثة اليهود ، وفى الرابعة الصابئون ، وفى الخامسة المجوس ، وفى السادسة أهل الشرك ، وفى السابعة المنافقون فذلك قوله تعالى : إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتى ـ أوقال على أمة محمد .

ولما شرح الله تعالى أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا لإنكار المكذبين بالبعث « إن المتقين » أى الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه وتعالى كما قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لأن المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة ، كما أن القاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة ، فكما أنه ليس من شرط صدق الوصف كونه آتيا بجميع أنواع الضرب

والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى ، لأن الآتى بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيا بالتقوى ؛ لأن كل فرد من أفراد الماهية يجب كونه مشتملا على تلك الماهية « فى جنات » أى بساتين ، قال الرازى : أما الجنات فأربعة لقوله تعالى : ولمن خاف مقام ربه جنتان، ثم قال : ومن دونهما جنتان فيكون المجموع أربعة وقوله : ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ يؤكد ما قلنا ، لأن من آمن بالله لاينفك قلبه من الخوف من الله تعالى، وقوله تعالى : ولمن خاف ـ يكفى فى صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله تعالى « وعيون » قال الرازى : يحتمل أن يكون منها ما ذكره الله تعالى فى قوله « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى، ويحتمل أن يكون المراد : من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الأنهار .

ولما كان المنزل لا يحسن إلا بالسلامة والأنس قال تعالى : « ادخلوها » أى يقال لهم ذلك « بسلام » أى سالمين من كل آفة مرحبا بكم « آمنين » من ذلك دائما . ولما كان الأنس لايكمل إلا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى : « ونزعنا » أى بما لنا من العظمة والقدرة « مافى صدورهم من غل » أى حقد كامن فى القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والحسد والبغضاء ؛ فكل هذه الخصال المذمومة داخلة فى الغل لأنها كامنة فى القلب ، يروى أن المؤمنين يحبسون على أبواب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم إلى الجنة وقد نقى قلوبهم من الغل والحقد والحسد حالة كونهم « إخوانا » أى متصافين حال كونهم « على سرر » جمع سرير وهو مجلس رفيع وهو موطن للسرور ومأخوذ منه لأنه مجلس سرور « متقابلين » والتقابل التواجه وهو نقيض التدابر، ولا شك أن المواجهة أشرف الأحوال ، وليس المراد الأخوة فى النسب بل المراد الأخوة فى المودة والمخالطة ، كما قال تعالى « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ، وعن الجنيد أنه قال :

ما أحلى الاجتماع مع الأصحاب وما أمرّ الاجتماع مع الأضداد . . وقوله تعالى « لا يمسهم فيها نصب أي إعياء وتعب وجهد ومشقة ، وقوله تعالى « وما هم منها بمخرجين » المراد به خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان .

وبهذا ينتهى الربع الأول من سورة الحجر ، الذى تضمن تنويها بالقرآن الكريم وتحذيراً وتخويفا للكافرين ، وتلميحا لمصارع الأمم وآجالها ، وذكرا لما كان يقابل المشركون به رسول الله من استهزاء وسخرية ، واقتراحهم عليه أن ينزل الآيات لتشهد له بصدقه فيما أخبر به من الرسالة والوحى . . كما حدث للمرسلين من قبل من تكذيب أممهم لهم ، وكفرهم بهم وسخريتهم منهم . . ويشرح الله عز وجل مظاهر قدرته فى السماء والأرض وفى خلق الإنسان ليؤيد بذلك قدرته على البعث والجزاء وعلى إهلاك الأمم الضالة ، وعلى إرسال الرسل وإنزال الوحى والكتب السماوية ، وفى مقدمتها القرآن الكريم على الأنبياء والمرسلين ، ويبين تكريمه تعالى للإنسان وكيف خلقه وأمر الملائكة بالسجود له ، وسجود الملائكة لآدم وعصيان إبليس ، وطرد الله له من رحمته ، وإغواءه للناس ، والجزاء الذى أعده الله عز وجل للغاوين وللمتقين . . ويدل هنا على أن إبليس من الجان أن الله عز وجل ذكر أنه خلق الإنسان من صلصال ، وخلق الجان من نار ، ثم ذكر أمره للملائكة بالسجود لآدم ، وامتثالهم له أجمعين ، ثم ذكر إبليس عاصياً متمردا . . مما يدل على أنه من الجان . واستثناؤه من الملائكة ليس دليلا على أنه منهم لجواز أن يكون الاستثناء منقطعا . .

وفى هذا الربع إعجاز علمى جليل فى قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » وهذا مما يدل على صدق محمد فيما بلغ به عن الله ، وهو دليل على عظمة القرآن وأنه رسالة من الله نزل بها الوحى الأمين على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وفى الآيات القرآنية المتقدمة كثير من الحقائق التى لم يعلمها العلماء إلا بعد

مرور نحو ألف وأربعمائة سنة على الدين الإسلامى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

هذه الآيات تجيب بصراحة على أربعة أسئلة ما فتىء الإنسان ، الجاهل والفيلسوف ، يبحثان عنها كل منهما على قدر عقله :

١ — كيف بدىء الخلق أى كيف خلق أول إنسان ، وكيف يخلق باقى المخلوقات ؟

٢ — حياة الإنسان على الأرض وبعد الموت .

٣ — النشأة الثانية أو البعث والحساب .

١ — بدأ الله الخلق من طين ، ولم تتقدم العلوم لتثبت ذلك ، وسيأتى الوقت الذى يثبت فيه هذا حتما « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » وكل ما يقال عن مذهب النشوء والارتقاء ومذهب « دارون » الخ ، لايزال فى دور التجربة ، ولم يثبت منه شىء بصفة قاطعة أبدا ، ومما يسهل فهمه أن خلق أول المخلوقات هو من نفس المادة التى يخلق الله منها جميع المخلوقات، وقد أخبرنا القرآن أنها ثلاثة أشياء :

١ — مما تنبت الأرض .

٢ — من أنفسهم .

٣ — مما لا يعلمون .

١ — فالجسم الحى ينمو بأن يحول مايأكله إلى جزء حى من جسمه ، وهذه هى أهم مميزات الحى ، وما يأكله الطفل حتى يصير رجلا لايخرج عن كونه مأخوذاً من الحيوان أو النبات . والحيوان أصله من النبات ، فالكل مأخوذ من النبات الذى ينمو من مواد الأرض والهواء . وهكذا يكون جسم الإنسان كله من الطين الذى يتحول بقوة الحياة فيه كما يتحول الماء إلى بخار بقوة الحرارة .

٢ — « من أنفسهم » أي من النطفة التي تمنى .

٣ — « مما لا يعلمون » تفسرها سورة السجدة « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » فهناك شيء آخر هو « الروح » وهو خارج عن الطين ، وقد تقدمت علوم المادة حتى ظن العلماء أن المخ والغدد ذات الإفرازات الداخلية تفسر كل أفعال الإنسان ، ولكن كثيراً منهم أخذ يعترف بأن هذا لا يكفي ، وذهب فريق إلى أن بعض الأشعة الكونية النائية قد يكون له تأثير في المادة المخية، وما زلنا لا نعلم كثيراً مما يقع بين علماء المادة ، وعلماء الروح من سوء تفاهم ؛ فيقول الأولون : إن المخ إذا أصيب بمرض تأثرت القوى العقلية بل الأخلاق وغيرها الخ . وهذا دليل على أن المادة هي كل شيء ، ومن المدهش أن من أكبر العلماء من يحتج بذلك على أنه لا وجود للروح ، مثل « كيث وسمث » وغيرهما ، والحقيقة أن المادة ضرورية لإظهار شيء خفي عنا ، ومثلها مثل عدة المسرة « التليفون » فإنها ضرورية لسماع صوت من يتكلم ، وإذا أصيبت المسرة بضرر اختل الكلام ووقف ، ولكن المسرة ليست منشأ الكلام مطلقاً ، وقد أقنع شرلوك هلمس كثيرين من معارضيه بذلك . وهذا لا يثبت طبعاً وجود الروح ، ولكن يجعله ممكناً ، وهذه هي آخر درجة معرفتنا ، أو بالأحرى « جهلنا » والمهم أنه لم يظهر شيء للآن يتنافى مع هذه الآيات . والله جلت قدرته يخاطبنا على قدر عقولنا ، ويتكلم عن النشأة الأولى وعن بدء الخلق ، كأنه تعالى قد اختص ببدء الخلق فقط مع أن الله بدأ الخلق وسن السنن الإلهية الطبيعية ، « ومنها خلق الكون كله » التي لا تبديل فيها أبداً لكي تكفل وجود النوع الإنساني ما دامت السموات والأرض . وهكذا يكون معنى خلق آدم عليه السلام بعد خلق السموات والأرض والسنن الإلهية ، خلق العالم كله إلى النهاية التي أرادها الخالق وقت بدئها ، وإذا كان صانع « السيارة » عندما يأتي بالمواد الخام التي يستعملها يتصور في مخيلته شكل السيارة النهائي وسرعتها الخ مع أنه لا يتحكم في الحوادث التي قد تطرأ عليه ، ويجهل كثيرا منها ، أفلا يعلم الخالق الأول كل ما سيكون عند بدء الخلق

مع أنه واضع السنن كلها ، وهذه السنن لاتتغير أبداً ، فالحقيقة أن الله بدأ الخلق ، والله خلق كل شيء ، وهذا هو معنى الآيات « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » و « يخلقكم فى بطون أمهاتكم » الآية .

ويمكنك أن تعلم بالإضافة إلى ذلك كيف تقوم القيامة وقدرة الله على قيام الساعة ، إذا قرأت أو شاهدت هذه الصورة المرعبة لنيويورك وهى تتلاشى من الوجود فى ١٥ دقيقة لو ألقيت عليها قنبلة من السلاح الجديد « ج الغازى » الذى ينتجه الآن الجيش الأمريكى ، ويقول عنه الخبراء : إنه أقوى وأخطر من الصواريخ والقذائف الموجهة عابرة القارات ! . والذى كتب الوصف التفصيلى للرعب الذى قد يجتاح نيويورك فى يوم من الأيام هو الجنرال روتشيلد رئيس قسم الأبحاث البكتريولوجية والكيمائية فى الجيش الأمريكى . . وأنت لاشك لن يتملكك الرعب وأنت تقرأ السطور التالية من تقرير روتشيلد . . فالرغبة فى السلام تعيش فى كل قلب . . وربما كان تقرير روتشيلد وسيلة لنزداد تمسكنا بالسلام ! . . أنت تقف بأحد الميادين المزدحمة بنيويورك فى انتظار إشارة السير « الخضراء » . . والجو جميل . . والحياة تسير كالمعتاد . الناس تروح وتجيء تفكر فى عملها وآمالها . ولكن . . فجأة . . وبدون سابق إنذار . . تتحول الدنيا أمام ناظريك . . كل شيء من حولك تراه وقد أصابه ما هو أشد من الذهول والجنون . . السيارات تندفع — فجأة — بسرعة جنونية وبلا هدف لتصطدم بأى شيء ، المبانى تهتز وتتلوى . . الرجال والنساء والأطفال يتساقطون حيث هم على أرصفة الشوارع وقد تقلصت كل عضلة فى أجسادهم .. الهلع والرعب يرتسم على كل الوجوه التى طغى عليها سائل انبثق من الأنوف والأفواه ! . . وأنت — أيضاً — وفجأة . . تصاب بألم حاد قاتل فى معدتك وتسمع ملايين دقات الطبول وهى تطن فى رأسك . . وتحس بصدرك وهو ينطبق فى قسوة لاتدعك تتنفس . . وتشعر بساقيك ويديك وكأنما قد تحولت إلى أعمدة من الصلب ، على حين تفقد عيناك القدرة على الرؤية . . سترى فقط خليطا من الألوان . .

ستشاهد كابوسا رهيبا بالألوان الطبيعية . . ثم لا تحس إلا وأنت ترتطم بأرض الرصيف الذى كنت تقف عليه من ثوان معدودات . . وتنتهى حياتك إلى الأبد ! . . وفى أقل من ١٥ دقيقة تتوقف كل حركة ، ويسود الهدوء ، وتنتهى الحياة فى المدينة الكبيرة المزدحمة . . السيارات تقف فى سكون . . الناس تتناثر جثثهم الهامدة فى كل زاوية . . من المدينة الكبيرة ! ! والغاز الجديد الذى يتسبب فى كل هذا يقتل دون ألم . تماما كما يخلعون أسنانك . . بلا ألم ، وهو لا يشوى الأجسام ولا يشوهها .

* * *

الربع الثانى من سورة الحجر

٤٩ — نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

٥٠ — وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ .

٥١ — وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ .

٥٢ — إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ .

٥٣ — قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ .

٥٤ — قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ .

٥٥ — قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ .

٥٦ — قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ .

٥٧ — قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ .

٥٨ — قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ .

— إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ .

٦٠ — إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ .

٦١ — فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ .

٦٢ — قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ .

٦٣ — قَالُوا بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ .

٦٤ — وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ .

٦٥ — فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ .

٦٦ — وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ .

٦٧ — وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ .

٦٨ — قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ .

٦٩ — وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ .

٧٠ — قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ .

٧١ — قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ .

٧٢ — لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .

٧٣ — فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ .

٧٤ — فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ .

٧٥ — إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ .

٧٦ — وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ .

فى هذه الآيات الثانى والعشرين يخاطب الله عز وجل رسوله محمداً صلوات الله عليه ليفبىء الناس بمغفرة الله لذنوب البشر ورحمته بهم ، وعذابه الشديد للكافرين منهم ، ولينبئهم عن قصة إبراهيم مع ملائكة الله ، الذين دخلوا عليه فبشروه بإسحاق وهو شيخ كبير ، ثم بشروه بقرب إهلاك الله لقوم لوط على أيديهم ، وتمضى الآيات فتقص قصة دخول الملائكة على لوط وحديثهم إليه ، وقدوم أهل المدينة نحو لوط ونحوهم ، وجدل لوط لهم وتماديهم فى ضلالهم ، وإهلاك الله إياهم بما كانو يصنعون .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة : « نبىء » أى أخبر « عبادى » أخباراً جليلة « أنى أنا » أى وحدى « الغفور » أى للمؤمنين « الرحيم » بهم « وأن عذابى » أى وحدى للعصاة « هو العذاب الأليم » أى المؤلم .. فى هذه الآية أضاف الله سبحانه وتعالى العباد إلى نفسه ، وفى هذا تشريف عظيم مثلما تراه فى قوله تعالى «سبحان الذى أسرى بعبده » .. ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بلفظ « إنى » ، ولفظ « أنا » وبأل فى « الغفور الرحيم » ، ولما ذكر الله تعالى العذاب لم يقل أنا المعذب ، ولما وصف نفسه بذلك قال : وأن عذابى هو العذاب الأليم .. ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ إليهم هذا المعنى ، فكأنه أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة . . ولما قال: نبىء عبادى، كان معناه نبىء كل من كان مقراً بعبوديتى، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصى ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأسكن منها عنده تسعة وتسعين ، وأرسل فى خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار ؛ وعن عبادة رضى الله تعالى عنه قال : بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو يعلم العبد قدر عفو الله ماتورع من حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه إلى قتلها ، وعن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أنه مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال : أتضحكون وقد ذكر الجنة والنار بين أيديكم فنزل « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » ولما بالغ تعالى فى تقرير النبوة ، ثم أردف ذلك بذكر دلائل التوحيد ، ثم ذكر تعالى عقبه أحوال القيامة ووصف الأشقياء والسعداء أتبع ذلك بقصص الأنبياء ليكون سماعها مرغبا فى العبادة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء ، ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الأشقياء ، وافتتح من ذلك بقصة إبراهيم عليه السلام فقال تعالى « ونبئهم » أى خبر ياسيد المرسلين عبادى « عن ضيف إبراهيم » وهم ملائكة اثنا عشر ، أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل عليه السلام ، فإن قيل : الضيف هو المنضم إلى غيره لطلب القرى ، أجيب بأن هؤلاء بهذا الإسم لأنهم على صورة الضيف ، وقيل أيضا : إن من يدخل دار إنسان ويلتجىء إليه يسمى ضيفا وإن لم يأكل « إذ دخلوا عليه » أى إبراهيم وكان يكنى أبا الضيفان « فقالوا سلاما » أى نسلم عليك سلاما أو سلمت سلاما « قال » إبراهيم عليه السلام بلسان الحال أو المقال « إنا » أى أنا ومن عندى « منكم وجلون » أى خائفون ، وكان خوفهم لامتناعهم من الأكل أو لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت ، والوجل : اضطراب النفس لتوقع ماتكره « قالوا لا توجل » أى لاتخف « إنا » رسل ربك « نبشرك بغلام » أى ولد ذكر فى غاية القوة ليس كأولاد الشيوخ ضعيفا « عليم » أى ذى علم كثير هو إسحاق عليه السلام كما ذكر فى هود ، وتقدم ذكر القصة هناك بأسرها « قال » إبراهيم عليه السلام « أبشرتمونى » أى بالولد « على أن مسنى الكبر » حالا أى مع مسه إياى « فبم » أى فبأى شىء « تبشرون » أى بينوا لى ذلك بيانا شافيا فإنهم قد بينوا مابشروا به ، وفائدة هذا الاستفهام أنه أراد أن يعرف أن الله تعالى يعطيه الولد مع بقائه على صفات الشيخوخة أو يقلبه شابا ثم يعطيه الولد . والسبب فى هـذا الاستفهام أن العادة جارية أنه لايحصل الولد فى حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل فى حال الشباب ، أو أنه استفهام تعجب ، ويدل لذلك قولهم « قالوا بشرناك بالحق » قال ابن عباس : يريدون بما قضاه الله تعالى

والمعنى أن الله تعالى قضى أن يخرج من صلب إبراهيم إسحاق، ويخرج من صلب إسحاق ذرية مثل ما أخرج من صلب آدم «فلا تكن» أى بسبب تبشيرنا «من القانطين» أى الآيسين، نهى لإبراهيم عليه السلام عن القنوط، ونهى الإنسان عن الشيء لا يدل على كونه فاعلا للمنهى عنه كما فى قوله تعالى «ولا تطع الكافرين والمنافقين» ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه «قال ومن يقنط» أى ييأس «من رحمة ربه» أى الذى لم يزل إحسانه عليه «إلا الضالون» المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح فى ربهم من تمام القدرة وأن لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة، ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى إتيانهم مختفين على غير الصفة التى يأتى فيها الملك للوحى، وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بأنه ما ينزل الملك إلا بالحق، كان ذلك سببا لأن يسألهم عن أمرهم ليزول وجله كله، ولذلك «قال» عليه السلام «فما» بفاء السبب «خطبكم» أى شأنكم، قال أبو حيان: والخطب لا يكاد يقال إلا فى الأمر الشديد، وقال الرمانى: إنه الأمر الجليل «أيها المرسلون» فإنكم ما جئتم إلا لأمر عظيم يكون فصلا بين هالك وناج «قالوا إنا أرسلنا» أى أرسلنا الله العزيز الحكيم الذى أنت أعرف الناس به فى هذا الزمان «إلى» إهلاك «قوم» أى ذوى منعة «مجرمين» أى كافرين وهم قوم لوط، وقوله تعالى «إلا آل لوط» فيه وجهان: أحدهما أنه استثناء متصل على أنه مستثنى من الضمير المستكن فى مجرمين بمعنى أجرموا كلهم إلا آل لوط فإنهم لم يجرموا، ويكون معنى قوله تعالى «إنا لمنجوهم أجمعين» أى لإيمانهم، فهو استئناف إخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا. والثانى أنه استثناء منقطع لأن آل لوط لم يندرجوا فى المجرمين البتة، ولكون قوله تعالى: إنا لمنجوهم أجمعين، جرى مجرى خبر لكن فى اتصاله بآل لوط، لأن المعنى لكن آل لوط منجوهم «إلا امرأته» استثناء من آل لوط أو من ضميرهم على الأول، وعلى الثانى لا يكون إلا من ضميرهم لاختلاف الحكمين، اللهم إلا أن يجعل: إنا لمنجوهم اعتراضا، وقوله تعالى «قدرنا» قرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد «إنها لمن الغابرين» أى من الباقين فى العذاب لكفرها.

ومعنى التقدير فى اللغة جعل الشىء على مقدار غيره ، يقال : قدرهذا الشىءلهذا أى جعله على مقداره، وقدرالله تعالى الأقوات أى جعلها مقدار الكفاية، ويفسر التقدير بالقضاء فيقال: قضى الله تعالى عليه وقدره عليه أى جعله على مقدار مايكفى فى الخير والشر ،وقيل: معنى قدرنا كتبنا، وقال الزجاج: أدبرنا، وأسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله عز وجل، لأنهم إنما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى، كما تقول خاصة الحاكم: دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لاهم ، وإنما يريدون بهذا الكلام إظهار مالهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا هنا ، ولما بشر الملائكة عليهم السلام إبراهيم بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد إبراهيم إلى لوط وآله ، وهذه هى القصة الثالثة المذكورة فى هذه السورة ، قال تعالى : « فلما جاء آل لوط المرسلون » أى بلغوا مكان إقامتهم « قال » لهم لوط « إنكم قوم منكرون » لأنهم دخلوا عليه فاستنكرهم وخاف من دخولهم لأجل شر يوصلونه إليه ، ولأجل أنهم كانوا شبانا مردا حسان الوجوه ، فخاف أن يهجم قومه عليهم بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة ، وقيل : إن النكرة ضد المعرفة ، فقوله عليه السلام : إنكم قوم منكرون أى لا أعرفكم ولا أعرف من أى الأقوام أنتم ولا لأى غرض دخلتم على؛ فعند ذلك « قالوا » أى الملائكة « بل جئناك بما » أى بالعذاب الذى « كانوا » أى قومك « فيه يمترون » أى يشكون فى نزوله بهم ، والجاهل يوصف بالشك وإن كان مكذبا من جهة ما يعرض له من حيث أنه لا يرجع إلى نفسه فيما هم عليه ، ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم « وآتيناك بالحق » أى باليقين الذى لا يشك فيه ، ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم « وإنا لصادقون » أى فيما أخبرناك به « فأسر بأهلك » أى فاذهب بهم « بقطع من الليل » أى فى طائفة من الليل ، وقيل : هى آخره . . « واتبع أدبارهم » أى وكن على آثار أهلك وسر خلفهم وتطلع إلى أحوالهم « ولا يلتفت منكم أحد » أى لئلا يرى أليم ما نزل بهم من البلاء ، وقيل : جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط « وامضوا حيث تؤمرون » أى

إلى المكان الذى أمركم الله بالمضى إليه ، قال ابن عباس : هو الشام، وقيل : إلى الأردن،وقيل :إلى مصر « وقضينا » أى وأوحينا « إليه » أى إلى لوط « ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع» أى مستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد«مصبحين» حال من هؤلاء أومن الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى أى يتم استئصالهم فى الصباح « وجاء أهل المدينة » أى مدينة من مدائن قوم لوط وهى سدوم بالدال، وقيل: بالذال « يستبشرون » أى بأضياف لوط طمعا فيهم ، وليس فى الآية دليل على المكان الذى جاءوه إلا أن القضية تدل على أنهم جاءوا دار لوط ، وقيل : إن الملائكة لما كانوا فى غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط ، وقيل : إن امرأة لوط أخبرتهم بذلك ، والاستبشار إظهار السرور ، ولما وصلوا إليه « قال » لهم لوط « إن هؤلاء ضيفى » أى وحق على الرجل إكرام الضيف « فلا تفضحون » فيهم يقال فضحه يفضحه إذا أظهر من أمره ما يلزم به العار ، وإذا قصد الضيف بسوء كان ذلك إهانة لصاحب المكان « واتقوا » أى خافوا « الله » فى أمرهم « ولا تخزون » أى ولا تخجلون فيهم بقصدكم إياهم فعل الفاحشة ، من الخزاية وهى الحياء ، أو لا تذلونى بسببهم من الخزى وهو الهوان « قالوا » أى قومه فى جواب قوله لهم « أو لم ننهك عن العالمين » أى عن أن تضيف أحداً من العالمين ؟ وقيل : أو لم ننهك أن تدخل الغرباء المدينة فإنا نطلب منهم الفاحشة ؟ وقيل: أو لم ننهك أن تمنع بيننا وبينهم ؟ فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد ، وكان لوط عليه السلام يمنعهم منهم « قال » لهم : هؤلاء بناتى أو نساء القوم ، أى قال لهم : هؤلاء بناتى فانكحوهن واتركوا ضيوفى فلا تتعرضوا لهم « إن كنتم فاعلين » أى ما أقول لكم ، أو فاعلين لشهواتكم ، قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على لسان ملائكته « لعمرك » أى وحياتك : وما أقسم الله بحياة أحد غيره صلى الله عليه وسلم ، وذلك يدل على أنه أكرم الخلق عليه تعالى «إنهم لفى سكرتهم» أى شدة غفلتهم التى أزالت عقولهم «يعمهون» أى يتحيرون ، والخطاب للوط عليه السلام ، قالت له الملائكة ذلك ، أى فكيف يعقلون قولك

ويلتفتون إلى نصيحتك ؟ وتقدير الكلام: لعمرك قسمي أو يميني إنهم لفي سكرتهم.
والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقاء ، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار
الأخذ فيه ، وذلك لأن الحلف كثير الدوران على ألسنتهم « فأخذتهم الصيحة »
أي صيحة هائلة مهلكة وهي صيحة جبريل عليه السلام « مشرقين » أي داخلين
في وقت الشروق وهو بزوغ الشمس « فجعلنا » أي بما لنا من العظمة والقدرة
« عاليها » أي عالي مدينتهم « سافلها » بأن رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء
وأسقطها مقلوبة إلى الأرض « وأمطرنا عليهم » أي على أهل المدائن التي قلبت
المدائن لأجلهم « حجارة من سجيل » أي طين مطبوخ بالنار ، ودلت الآية
الكريمة على أن الله تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب : أحدها الصيحة
الهائلة المنكرة ، وثانيها أنه جعل عاليها سافلها ، وثالثها أنه أمطر عليهم حجارة
من سجيل .. وتقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة هود عليه السلام « إن في
ذلك » أي المذكور من هذه الأنواع « لآيات » أي دلالات على وحدانية
الله « للمتوسمين » أي للناظرين المعتبرين ، جمع متوسم وهو الناظر في السمة
« وإنها » أي هذه المدائن « لبسبيل » أي طريق قريش إلى الشام « مقيم » أي
لم يندرس ، بل يشاهدون ذلك ويرون أثره ، أفلا يعتبرون ؟

٧٧ — إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

٧٨ — وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ .

٧٩ — فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ .

٨٠ — وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ .

٨١ — وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ .

٨٢ — وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ .

٨٣ — فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ .

٨٤ — فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

فى هذه الآيات الثمان دعوة إلى الاعتبار بآيات الله والإيمان بها ، وذكر لأهل الأيكة وظلمهم وإهلاك الله لهم ، وهم قوم شعيب عليهم السلام ، وإشارة لقصة ثمود أهل الحجر وتكذيبهم برسالة صالح وإهلاك الله إياهم ، وقد سميت هذه السورة سورة الحجر لقوله تعالى هنا : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » - الآية ٨٠ - يقول الله عز وجل فى هذه الآيات مشيراً إلى زيادة الحث على الاعتبار بالتأكيد : « إن فى ذلك » أى فى هذا الأمر العظيم « لآية » أى علامة عظيمة فى الدلالة على وحدانيته تعالى « للمؤمنين » أى كل من آمن بالله وصدق الأنبياء والرسل عرف أن ذلك إنما كان لأجل أن الله تعالى انتقم لأنبيائه من أولئك الجهال ، أما الذين لا يؤمنون بالله فإنهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه.. ثم ذكر تعالى قصة أخرى ، وهى قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى « وإن » مخففة من الثقيلة أى وإنه « كان » أى جبلة وطبعاً « أصحاب الأيكة » وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد ذكر الله تعالى قصتهم فى سورة الشعراء ، والأيكة الشجر المتكاثف ، وقيل : الشجر الملتف ، وقال الكلبى : الأيكة غيضة شجر بقرب مدين « لظالمين » أى غريقين فى الظلم بتكذيبهم شعيباً عليه السلام « فانتقمنا منهم » أى بسبب ذلك ، قال المفسرون : اشتد الحر فيهم أياماً ثم اضطرم عليهم المكان ناراً فهلكوا عن آخرهم ، وقوله تعالى « وإنهما » فيه قولان : الأول المراد قرى قوم لوط والأيكة ، والقول الثانى أن الضمير للأيكة ومدين لأن شعيبا كان مبعوثا اليهما « لبإمام » أى طريق « مبين » أى واضح ، والإمام اسم لما يؤتم به ، وإنما جعل الطريق إماما لأنه يؤم ويتبع ، وقال ابن قتيبة لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذى يريده .

ثم ذكر تعالى قصة أخرى وهى قصة صالح عليه السلام بقوله تعالى « ولقد كذب أصحاب الحجر » وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة الشريفة والشام « المرسلين » أى كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء

المرسلين بتكذيبك ، لأن الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق ، فمن كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع ، وهم فى إثبات الرسالة والمعجزة على حد سواء «وآتيناهم» أى بما لنا من العظمة والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام «آياتنا» أى آيات الكتاب المنزل على نبيهم ، أو معجزات كالناقة وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وغزارة لبنها ، وإنما أضاف الآيات إليهم وإن كانت لنبيهم صالح عليه السلام لأنه مرسل من ربهم إليهم بهذه الآيات «فكانوا عنها» أى الآيات «معرضين» أى تاركيها غير ملتفتين إليها لا يتفكرون فيها ، ثم أخبر الله تعالى أنهم كانوا مثل هؤلاء فى الأمن من العذاب والغفلة عما يراد بهم مع أنهم كانوا أشد منهم فقال تعالى «وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين» أى يأمنون عليها من الهدم ومن عبث اللصوص ، ومن تخريب الأعداء «فأخذتهم الصيحة» أى صيحة العذاب «مصبحين» أى وقت الصبح «فما أغنى» أى مادفع «عنهم» الضرر والبلاء «ما كانوا يكسبون» أى يعملون من بناء البيوت الوثيقة المحكمة ومن الاستكثار من الجيوش والأنصار ، وعن جابر رضى الله عنه قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم ما أصاب هؤلاء ، ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها .

٨٥ — وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ .

٨٦ — إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ .

٨٧ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ .

٨٨ — لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ .

٨٩ — وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ .

٩٠ — كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ .

٩١ — الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ .

٩٢ — فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

٩٣ — عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

٩٤ — فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ

٩٥ — إِنَّا كَفَيْنَٰكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ

٩٦ — الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

٩٧ — وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ .

٩٨ — فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ .

٩٩ — وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ

فى هذه الآيات الخمس عشرة خطاب من الله عز وجل لرسوله محمد عليه السلام للتأمل فى خلق الله فى السماء والأرض ، ودعوة من الله له بالصفح الجميل ، وبالاعتزاز بما أنزل عليه من القرآن الكريم ، وبالزهد والتواضع ، وتبليغ الرسالة كاملة ، والإعراض عن المشركين والمستهزئين ، إلى آخر ما تضمنته هذه الآيات الكريمة النبيلة .. ولقد ذكر الله عز وجل هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فإنه إذا سمع أن الأمم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة ، قال تعالى : « وما خلقنا السموات » على مالها من العلو والسعة « والأرض » على مالها من المنافع والغرائب « وما بينهما » من هؤلاء المشركين المكذبين وعذابهم ، ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عن النبات وغير ذلك « إلا بالحق » أى إلا خلقا

متلبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى « وإن الساعة » أى القيامة « لآتية » لا محالة فيجازى الله تعالى كل أحد بعمله .

ثم أنه تعالى لما دعاه إلى الصبر على أذى قومه رغبه بعد ذلك فى الصفح عن سيئاتهم فقال : « فاصفح الصفح الجميل » أى أعرض عنهم إعراضا لا جزع فيه ولا تعجل بالانتقام منهم، وهذا منسوخ بآية السيف ، قال الرازى : وهو بعيد لأن مقصوده من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح ، فكيف يصير منسوخا ، والأول جرى عليه البغوى وجماعة من المفسرين ، ثم علل تعالى هذا الأمر بقوله « إن ربك » أى المحسن إليك الآمر لك بهذا « هو » أى وحده « الخلاق » أى المتكرر منه هذا الفعل « العليم » أى بكل شىء ، فليست أقوالهم وأفعالهم إلا منه سبحانه وتعالى لأنه خالقها ، وقد علمت أنه لا يضيع مثقال ذرة ، فاعتمد عليه فى أخذ حقك فإنه نعم المولى ونعم النصير ، ولما صبره الله تعالى على أذى قومه وأمره أن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خص الله تعالى رسوله بها بقوله تعالى « ولقد آتيناك » يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة والقدرة كما آتينا صالحا ما تقدم « سبعاً » هى أم القرآن الجامعة لجميع معانى القرآن التى أمرنا بتلاوتها فى كل ركعة زيادة فى حفظها وتبركا بلفظها وتذكراً لمعانيها وتخصيصا لها عن بقية الذكر الذى كلفناك بحفظه ، والسبب فى وقوع هذا الإسم على الفاتحة أنها سبع آيات وهذا ما عليه أكثر المفسرين ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال : هى السبع المثانى ، روى ذلك أبو هريرة رضى الله عنه ، وقيل : المراد سبع سور ، وهى الطوال ، واختلف فى السابعة فقيل : الأنفال وبراءة لأنهما فى حكم سورة ، ولذلك لم يفصل بينهما بآية البسملة ، وقيل : الحواميم السبع وقيل : سبع صحائف ، والأصح أن ذلك كناية عن القرآن كله « من المثانى » صفة لسبع ، وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شىء يثنى ، أى يجعل اثنين ، من قولك : أثنيت الشىء تثنيا أى عطفته وضممت إليه آخر ، ومنه يقال لركبتى الدابة ومرفقيها : مثانى ؛ لأنه يثنى بالفصد ، ومثانى الوادى معاطفه ، أما تسمية الفاتحة بالمثانى فلوجوه :

الأول : أنها تثنى فى كل صلاة بمعنى أنها تقرأ فى كل ركعة .

الثانى : أنها تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها .

الثالث : أنها قسمت من قسمين اثنين ، لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، والحديث مشهور.

الرابع : أنها قسمان اثنان : ثناء ودعاء ، وأيضا النصف الأول منها حق الربوبية وهو الثناء ، والنصف الثانى حق العبودية وهو الدعاء .

الخامس : أن كلماتها مثناة مثل: الرحمن الرحيم، إياك نعبد وإياك نستعين. إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، وأما السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ، ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى ، وكتب الله كلها مثانى لأنها تثنى عليه لما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها ، والقرآن العظيم أى الجامع لجميع معانى الكتب السماوية المتكفل بخيرى الدارين مع زيادات لا تحصى ، وفيه أوجه :

أحدها : أنه من عطف بعض الصفات على بعض ، أى الجامع بين هذين النعتين .

الثانى : أنه من عطف العام على الخاص إذ المراد بالسبع إما الفاتحة وإما الطوال ، فكأنه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجه فى العموم .

الثالث : أن الواو مقحمة .

ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله العظيم نعمه عليه وهو أنه آتاه سبعاً من المثانى والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة فى الدنيا بقوله تعالى «لا تمدن عينيك» أى لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات «إلى ما متعنا به أزواجا منهم» أى أصنافا من الكفار ، والزوج فى اللغة الصنف ، وقد أوتيت القرآن الذى فيه غنى عن كل شىء ، قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيراً ، وتأول

سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبي صلى الله عليه وسلم : ليس منا من لم يستغن بالقرآن ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : «ولا تمدن عينيك» ، أي لا تتمنى ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا ، وقيل : أتت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود قريظة والنضير فيها أنواع البر والطيب والجواهر وسائر الأمتعة ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في طاعة الله ، فقال الله تعالى : لقد أعطيتكم سبع آيات هن خير من هذه القوافل السبع ، وقرر الواحدي هذا المعنى فقال : إنما يكون مادا عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر نحوه وإدامة النظر على شيء يدل على استحسانه وتمنيه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينظر إلى ما يستحسن من متاع الدنيا ، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم « ولا تحزن عليهم » نهى له عن الالتفات إليهم إن لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار ، ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات إلى أولئك الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى «واخفض جناحك» ، أي ألن جانبك « للمؤمنين » واصبر نفسك معهم وارفق بهم . ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به إليهم فقال : « وقل إني أنا النذير » من عذاب الله أن ينزل عليكم إن لم تؤمنوا « كما أنزلنا » أي العذاب « على المقتسمين » قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه ، فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به ، وقال عكرمة : إنهم اقتسموا سور القرآن وإنما فعلوا ذلك استهزاء ، وقال مجاهد : إنهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم ببعضها ، وقال قتادة : أراد بالمقتسمين كفار قريش ، قال : سموا بذلك لأن أقوالهم تقسمت في القرآن فقال بعضهم : إنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة ، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين ، وقال ابن السائب : سموا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا طرق مكة ، وذلك أن الوليد

ابن المغيرة بعث رهطا من أهل مكة وقال لهم: كونوا حيث يمر بكم أهل الموسم فإذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم: إنه مجنون وليقل بعضكم: إنه شاعر، فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج العرب ، وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام حيث نصبوه حكما، فإذا جاءوا سألوا عما قال أولئك فيقول : صدقوا ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر.. «الذين جعلوا القرآن عضين» نعت للمقتسمين ، وقال ابن عباس: هم اليهود والنصارى جزأوا القرآن أجزاء : فآمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقي ، وقال مجاهد : قسموا كتاب الله ففرقوه وبددوه ، وقيل : كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي ، ويقول بعضهم : سورة آل عمران لي ، وقيل : اقتسموا القرآن فقال بعضهم : سحر ، وقال بعضهم : شعر ، وقال بعضهم : كذب ، وقال بعضهم : أساطير الأولين ، وقيل : هم أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض . . وعضين جمع عضة وهي الفرقة ، وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك ، وقيل: العضه السحر بلغة قريش يقولون: هو عضه وهي عاضهة ، وفي الحديث : لعن صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة أي الساحرة والمستحرة ، وقيل: هو من العضه وهو الكذب والبهتان ، وقيل: جمع عضو لأنهم جعلوا القرآن أعضاء مفرقة فقال بعضهم: سحر، وقال بعضهم: أساطير الأولين ، ثم أقسم سبحانه بنفسه على أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين بقوله تعالى «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون» فيكون الضمير عائدا على المقتسمين ، لأنه الأقرب ، ويحتمل أن يعود على جميع المكلفين لأن ذكرهم يقدم في قوله تعالى « وقل إني أنا النذير المبين » أي لجميع الخلق ، قال جماعة من المفسرين : يسألون عن لا إله إلا الله ، وقال أبو العالية : يسألون عما كانوا يعبدون وما أجابوا المرسلين ، والجمع بين قوله تعالى « فوربك لنسألنهم أجمعين » وبين قوله تعالى «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » أن النفي منصرف إلى بعض الأوقات والإثبات إلى وقت آخر، لأن يوم القيامة يوم طويل ، وفيه مواقف يسألون في بعضها ولا يسألون في بعض آخر ، ونظيره قوله تعالى : هذا يوم لا ينطقون ،

وقال فى آية أخرى « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « فاصدع » أى اجهر بعلو وشدة فارقا بين الحق والباطل « بما » أى بسبب ما « تؤمر » به ، أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية بإظهار الدعوة ، روى عن عبد الله بن عبيدة قال : كان الرسول مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه ، فنزل قوله تعالى «وأعرض» أى إعراض من لا يبالى « عن المشركين » بالصفح الجميل عن الأذى والاجتهاد فى الدعاء ، ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهارك الدعوة . قال بعض المفسرين كالبغوى: وهذا منسوخ بآية القتال ، وقال الرازى: وهو ضعيف لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا . ولما كان هذا الصدع فى غاية الشدة عليه صلى الله عليه وسلم لكثرة مايلق عليه من الأذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللا له « إنا » أى بما لنا من العظمة والقدرة « كفيناك المستهزئين » أى شر الذين هم يمعنون فى الاستهزاء وهم خمسة نفر من رؤساء قريش : الوليد ابن المغيرة والعامر بن وائل وعدى بن قيس والأسد بن عبد المطلب والأسود ابن عبد يغوث .. وصف سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله: « الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون » أى عاقبة أمرهم فى الدارين . ولما ذكر سبحانه وتعالى أن قومه يستهزئون به ، ولا سيما أولئك المقتسمون قال له تعالى : « ولقد نعلم » أى تحقق وقوع علمنا « أنك » أى مع مالك من الحلم وسعة الصدر « يضيق صدرك » أى يوجد ضيقه ويتجدد « بما يقولون » أى من الاستهزاء والتكذيب بك وبالقرآن ، لأن الطبيعة البشرية والمزاج الإنسانى يقتضى ذلك . فعند هذا قال تعالى «فسبح» متلبسا « بحمد ربك » أى نزهه عن صفات النقص ، وقال الضحاك : قل سبحان الله وبحمده ، وقال ابن عباس : فصل بأمر ربك « وكن من الساجدين » أى المصلين ، روى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .. واختلف الناس كيف صار الإقبال على الطاعات سببا لزوال ضيق القلب والحزن ؟ فقال العارفون المحققون : إذا اشتغل الإنسان بهذه الأنواع من العبادات يضيء صدره وينفسح

وينشرح، فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت إليها ، وقال بعض الحكماء: إذا نزل بالإنسان بعض المكاره ففزع إلى الطاعات فكأنه يقول: يارب يجب على عبادتك سواء أعطيتنى الخيرات اوألقيتنى فى المكروهات، فأنا عبدك بين يديك فافعل بى ما تشاء « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » قال ابن عباس: يريد الموت ، ويسمى الموت يقيناً لأنه أمر متيقن، وهذا مثل قوله تعالى فى سورة مريم « وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا » ، وروى البغوى بسنده عن ابن جبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ، ولكن أوحى الله إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين .. وفائدة هذا التوقيت ـ مع أن كل أحد يعلم أنه إذا مات سقطت عنه العبادات ـ أن المراد منه : واعبد ربك فى جميع زمان حياتك فلا تخلّ لحظة من لحظات الحياة بهذه العبادات ، وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب ابن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انظروا إلى هذا نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، ولقد رأيت عليه حلة شريت له بمائتى درهم ، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ماترون .

نظرة عامة فى سورة الحجر

(١)

تمتاز سورة الحجر المكية بآياتها القصار غالبا ، وبما تحمله من قوة فى الأسلوب ، وعذوبة فى اللفظ ، وصدق فى الأداء والتعبير ، وتوفيق فى الإقناع والجدل والحجاج .

والسورة تبتدىء بتمجيد شأن القرآن الكريم والتنويه بأمره ، ثم ببيان ندم المشركين والكافرين فى الآخرة على أنهم لم يسلموا ولم يؤمنوا برسالة نبى الإسلام ، ثم بتهديدهم والسخرية بهم ، وذكر مصارع الأمم السابقة ، وآجالها المحتومة . وذكر سخرية المشركين بالرسول ورسالته وبالكتاب الحكيم وهدايته ، واقتراحهم نزول الآيات عليه ، ورد الله عز وجل عليهم . ويفيض الله عز وجل فى شرح قدرته وعظمته :

١ — فيذكر مظاهر قدرته فى السماء والأرض وما بينهما .. ومن بينها الشهب وإنبات النبات وإرسال الرياح لواقح .

٢ — خلق الإنسان لأول مرة . . وموقف الملائكة وإبليس منه ، ومعصية إبليس لله ، وطرد الله له من رحمته ، والعذاب الشديد الذى ينتظره هو وأتباعه .

وهنا يشرح الله عز وجل جزاء الكافرين والعاصين ، والثواب الذى أعده للمؤمنين والمتقين . .

ويشير الله عز وجل إلى موقف أمم كثيرة ـ من قبل ـ من أنبيائها :

١ — فيذكر بشارة الملائكة لإبراهيم بإسحاق .

٢ — وجدال إبراهيم للملائكة فى لوط وقومه ، ودخول الملائكة على لوط وترحيبه بهم ، والأنباء الخطيرة التى سمعها منهم . وتهافت أهل المدينة

على ضيوف لوط وحواره معهم فى شأن ضيوفه ، وأخذ الله لهم أخذ عزيز مقتدر ، ونجاة لوط والمؤمنين به .

٣ — قصة شعيب مع قومه .

٤ — قصة أصحاب الحجر وإهلاكهم .

وهنا يذكر الله عز وجل أنه ما خلق الخلق إلا بالحق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، ويوجه الرسول العظيم ويرشده إلى جليل الأخلاق ، وعظيم الآداب ، ويقوى من عزمه ، ويعلن إليه فى قوة أن الله تعالى كفاه المستهزئين والساخرين ، ويطلب إليه أن يستمر فى عبادة الله وتوحيده حتى يأتيه اليقين .

(٢)

وهذه السورة كذلك وحدة متصلة فيما سيقت له من غرض، فهى متلاحمة النسج ، متآخية المعانى، متصلة الحلقات ، متقاربة الفواصل ، متوائمة الأفكار، وهى أعظم رد على الشرك والمشركين . . وقول الله عز وجل فيها « وأرسلنا الرياح لواقح » يحمل صدق محمد فى رسالته ، وأنه مبعوث من الله حقا وصدقا، فمن ذا الذى أخبر محمداً الأمى بهذه الحقيقة العلمية العجيبة، التى كشف عنها العلم الحديث فيما كشف من أسرار الله عز وجل فى الكون .

وسورة الحجر تتصل بما قبلها وما بعدها بصلات وثيقة ، فهى مع إبراهيم والنحل وحدة واحدة متصلة متآخية متآلفة الأفكار والأغراض .

(١٦)

ســــورة النحل

تمهيد

سورة النحل مكية ، وقيل : يستثنى منها الآية الكريمة : « وإن عاقبتم » إلى آخر السورة فهى مدنية ، وحكى عن بعض المفسرين أنها مدنية ، وقال آخرون : السورة من أولها إلى قوله تعالى : « كن فيكون » مدنى ، وما سوى ذلك مكى ، وعن قتادة العكس .

وتسمى سورة النحل سورة النعم ، والمقصود منها الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم فاعل لما يريد منزه عن شوائب النقص ، وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل ، لما ذكر من شأنها فى دقة الفهم فى ترتيب بيوتها وسائر أمرها ، من اختلاف ألوان ما يخرج منها من عسلها الذى جعله الله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة ، وغير ذلك . وسورة النحل مائة وثمان وعشرون آية .

وقد نزلت سورة النحل بعد سورة الكهف ، وهى من السور التى نزلت بعد «الإسراء» وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة النحل فى ذلك الحين أيضاً.

وسميت باسم «النحل» وهو اسم عجيب غريب لقوله تعالى فيها : «وأوحى ربك إلى النحل » الخ - الآية ٦٨ ، والقصد من السورة إنذار المشركين بالعذاب وإبطال شركهم ورد شبههم على القرآن والنبوة والبعث ، وقد افتتحت بآيتين سجلت فيها تلك الأغراض ، وكانا تمهيداً جليلا للأغراض المقصودة من السورة .. وختام السورة ذكر لنعمة الله على المشركين بسكنى حرمه .

وسورة النحل جاءت بعد سورة الحجر للمناسبة بين السورتين ، حيث ذكر الله عز وجل فى آخر الحجر أمره الكريم لرسوله العظيم بأن يعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، وفتحت سورة النحل بأن ما وعد به المشركون قد أتى وقته ، وحان حينه ، وجاء زمانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الربع الأول من سورة النحل

١ – أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

٢ – يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاتَّقُونِ .

آيتان جليلتان فى أولاهما وعيد وتهديد للمشركين وإنذار لهم بعذاب يوم القيامة الذى اقترب حينه ، وفى الآية الثانية منهما تأكيد لقدرة الله عز وجل على إرسال الرسل وإنزال الوحى ، وبعثة الأنبياء ، لإنذار الناس ، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وتحذيرهم من الشرك والمشركين .

يقول الله عز وجل فى هاتين الآيتين الكريمتين : « أتى أمر الله » الفعل هنا ماض فى اللفظ مستقبل فى المعنى ، إذ المراد يوم القيامة ، وأتى به فى صورة ما وقع وانقضى تحقيقاً له ، ولصدق المخبر عنه ، وقيل : إن الفعل الماضى «أتى» هنا على بابه من المضى والمراد مقدماته وأوائله ، وهو نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أى جاء أمر الله ودنا وقرب ، فإنه يقال فى الكلام المعتاد : إنه قد أتى ووقع إجراء لما يجب وقوعه مجرى الواقع . يقال لمن طلب الإعانة وقرب حصولها : جاءك الغوث ، أى أتى أمر الله وعدا « فلا تستعجلوه » أى وقوعه قبل مجيئه فإنه واقع لا محالة ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ، قال ابن عباس : كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، ولما مر جبريل بأهل السموات مبعوثا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قالوا : الله أكبر قامت الساعة ؛

وروى أنه لما نزل « اقتربت الساعة » قال الكفار بعضهم لبعض : إن هـذا أى محمداً صلى الله عليه وسلم يزعم أن القيامة قد اقتربت ، فأمسكوا عن بعض ما تقولون ، حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا : ما نرى شيئاً ، فنزلت «اقترب للناس حسابهم » فأشفقوا وانتظروا، فلما اشتدت الأيام قالوا يامحمد : ما نرى شيئاً مما تخوفنا به ، فنزل «أتى أمر الله » فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل « فلا تستعجلوه» أى فاطمأنوا ، فكان الكفار يقولون: أسلمنا لك يامحمد إلا أنا نعبد هذه الأصنام لتشفع لنا عند الله تعالى فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به ، فأجابهم الله تعالى بقوله : « سبحانه » أى تنزيها « وتعالى عما يشركون » أى تبرأ سبحانه وتعالى بالأوصاف الحميدة عن أن يكون له شريك فى ملكه، وقرىء بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب أو على أن الخطاب للمؤمنين أولهم ولغيرهم . ولما أجاب سبحانه الكفار عن شبهتهم بقوله : تنزيها لنفسه عما يشركون ، وكان الكفار يقولون : هب أن الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى آخرين بالخير ، فكيف يمكنك أن تعرف هذه الأمور التى لا يعرفها إلا الله تعالى ، وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله تعالى وأحكامه فى ملكه وملكوته ، فأجابهم الله تعالى بقوله : « ينزل الملائكة » قال ابن عباس : يريد جبريل وحده ، قال الواحدى : يسمى الواحد بالجمع إذا كان ذلك الواحد رئيسا ، وقرىء بتخفيف الزاى وقرىء بتشديدها ، والمراد « بالروح » الوحى أو القرآن فإن القلوب تحيى به من موت الجهالة ، وقوله تعالى «من أمره» أى بإرادته حال من الروح « على من يشاء من عباده » وهم الأنبياء « أن أنذروا » أى خوفوا الكافرين بالعـذاب وأعلموهم « أنه » أى الشأن « لا إله إلا أنا » أى لا إله غيرى ، وقوله تعالى « فاتقون » أى خافونى - رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود ، وفى « أن » فى قوله تعالى « أن أنذروا » ثلاثة أوجه : أحدها أنها المفسرة ، لأن الوحى فيه ضرب من القول والإنزال بالروح عبارة عن الوحى قال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » ، الثانى

أنها المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف ، والثالث أنها المصدرية التي من شأنها نصب المضارع ووصلت بالأمر كقولهم : كتب إليه بأن قم ، والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة وأن النبوة من عطائه .

٣ — خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

٤ — خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ .

٥ — وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

٦ — وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ .

٧ — وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

٨ — وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

٩ — وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ .

١٠ — هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ .

١١ — يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

١٢ — وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

١٣ — وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

١٤ — وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

١٥ — وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

١٦ — وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

١٧ — أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

١٨ — وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

١٩ — وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .

سبع عشرة آية فيها تأكيد لقدرة الله عز وجل على البعث وعلى إرسال الرسل ، بما ذكر من خلقه للسماء والأرض ، ومن خلقه للإنسان من نطفة ، وبما ذكر كذلك من خلقه الأنعام لمنفعة الناس وخيرهم ، والخيل والبغال والحمير كذلك ، وبما ذكر كذلك من قدرته على إنزال المطر من السحاب ، فيشرب منه الناس ، وتخرج به الأشجار ، وتنبت به الزروع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . . ويردف الله عز وجل ذلك ببيان قدرته فى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وبما خلق الله فى الأرض من حيوان ونبات ، وبتسخيره البحر ليأكل الناس منه لحما طريا ، وليستخرجوا منه حلية يلبسونها ، ولتجرى الفلك مواخر فيه ، وليبتغوا من فضله ، ثم يذكر الله عز وجل خلقه للجبال لتكون رواسى للأرض ، وخلقه للأنهار

والطرق يهتدى بها السائرون كما يهتدون بالعلامات وبالنجم . . هـذه بعض مظاهر قدرة الله وبعض مخلوقاته ، فهل يستوى من يخلق ومن لا يخلق . . وإن يعد النـاس نعمة الله لا يحصوها ، والله غفور لذنوب عبـاده رحيم بهم . .
وهكذا نجد أن الله عز وجل لمـا وحد نفسه ذكر الآيات الدالة على وحدانيته من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى : « خلق السموات » وهى كل ما علا وبدا فى الأفق من كواكب وسحب وأجرام وسدم « والأرض » وهى البساط المقل للناس « بالحق » أى أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصها بحكمته « تعالى عما يشركون » من الأصنام وغيرها ، ولمـا كان خلق السموات والأرض غيباً لتقدمه ، وكان خلق الإنسان على هذه الصفة شهادة فتكون أقوى فى الدلالة على وحدانيته تعالى ، قال تعالى « خلق الإنسان » أى هذا النوع « من نطفة » أى آدم عليه السلام من مطلق الماء ، ومن تفرع منه بعد زواجه حواء من ماء مقيد « فإذا هو خصيم » أى شـديد الخصومة « مبين » أى واضح الخصومة ، أو ناطق شـديد الجدل ، روى أن أبى بن خلف الجمحى ـ وكان ينـكر البعث ـ جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال : أتزعم يا محمد أن الله يحيى هـذا العظم بعد ما قد رمّ ، فنزلت هذه الآية ، ونزل فيه أيضا قوله تعالى « قال من يحيى العظام وهى رميم » ، قال الخازن فى تفسيره : والصحيح أن الآية عامة فى كل ما يقع فيه الخصومة فى الدنيا ويوم القيامة ، وحملها على العموم أولى ، ولما كان أشرف الأجسام الموجودة فى العالم السفلى بعد الإنسان سائر الحيوانات وأولاها بالذكر وبحياة العربى هى الأنعام ، ذكرها بقوله تعالى « والأنعام » أى الأزواج الثمـانية : الضأن والمعز والإبل والبقر « خلقها » قال الواحدى : تم الـكلام عند قوله والأنعام خلقها ، ثم ابتدأ وقال : « لـكم فيها دفء » أى ما يدفأ به من اللباس والأكسية ونحوها المتخذة من الأصواف والأوبار والأشعار ، ويجوز أيضا أن يكون تمام الـكلام عند قوله : والأنعام خلقها لكم

ثم ابتدأ فقال تعالى : فيها دفء ، وأحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله تعالى: خلقها ، والدليل عليه أنه عطف عليه « ولكم فيها جمال » والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال .. ولما ذكر تعالى الأنعام ذكر لنا أنواعا من المنافع :

الأول : قوله تعالى : فيها دفء .

النوع الثانى قوله تعالى : «ومنافع» أى ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الأنعام . وإنما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الأعم، لأن الدر والنسل قد ينتفع به فى الأكل وقد ينتفع به فى البيع بالنقود ، وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات ، فعبر عن جملة هذه الأقسام بلفظ المنافع وهى تتناول الأكل .

النوع الثالث قوله تعالى : « ومنها تأكلون » . ولما كان الأكل من هذه الأنعام هو الذى يعتمده الناس فى معائشهم ، وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط والأوز وصيد البر والبحر ، فليس بمعتاد فيه الأغلب ، وأكله يجرى مجرى التفكه به ، وقدم الجار والمجرور وهو «ومنها» تخرج ومنها تأكلون مخرج الغالب فى الأكل من هذه الأنعام ، ومنفعة الأكل مقدمة على منفعة اللباس . ولكن قدمت منفعة اللباس عليه لأن منفعة اللباس أكثر من منفعة الأكل ، فلهذا قدمت على الأكل « ولكم فيها جمال » أى زينة « حين تريحون » أى تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشى « وحين تسرحون » أى تخرجونها بالغداة إلى المرعى ، وقدمت الإراحة على التسريح لأن الجمال فى الإراحة أظهر إذا أقبلت وهى مملوءة البطون حافلة الضروع ثم آوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها فيفرح أهلها بها ، بخلاف تسريحها إلى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ، ثم تأخذ فى التفرق والانتشار إلى المرعى فى البرية ، فليس فى التسريح تحمل كما فى الإراحة .

النوع الرابع قوله تعالى : « وتحمل أثقالكم » جمع ثقل وهو متاع المسافر

« إلى بلد » أى غير بلدكم إذا أردتم السفر إليها « لم تكونوا بالغيه » أى غير واصلين إليها بغير الإبل « إلا بشق الأنفس » أى إلا بكلفة ومشقة، والشق بكسر الشين نصف الشيء أى لم يكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها ، وقال ابن عباس : يريد من مكة إلى اليمن وإلى الشام وإلى مصر ، قال الواحدى : والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير إبل شق عليكم ، وخص ابن عباس هذه البلاد لأن متاجر أهل مكة كانت إلى هذه البلاد ، فإن قيل : المراد من قوله تعالى : والأنعام خلقها الإبل فقط ، بدليل أنه وصفها فى آخر الآية بقوله « وتحمل أثقالكم إلى بلد » وهذا الوصف لا يليق إلا بالإبل ، أجيب بأن المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الأنعام ، فبعض تلك المنافع حاصلة فى الكل وبعضها مختص بالبعض ، والدليل عليه أن قوله « ولكم فيها جمال » حاصلة فى البقر والغنم مثل حصوله فى الإبل « إن ربكم » أى الموجد لكم والمحسن إليكم « لرؤوف » أى بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بما مر « رحيم » أى بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب . « والخيل » أى الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل « والبغال والحمير » عطف على الأنعام أى وخلق هذه الحيوانات « لتركبوها » أى لأجل أن تركبوها « وزينة » مفعول من أجله ، وإنما وصل الفعل إلى الأول باللام فى قوله تعالى : « لتركبوها » وإلى هذا بنفسه لاختلاف شرطه فى الأول وهو عدم اتحاد الفاعل ، فإن الخالق هو الله والراكب المخاطبون ، ويصح أن يكون على الحال ، وصاحب الحال إما مفعول خلقها ، وإما مفعول لتركبوها ، فهو مصدر أقيم مقام الحال ، أو أن يكون منصوبا بتقدير فعل قدره الزمخشرى بقوله : وخلقها زينة ، وقدره ابن عطية وغيره بقولهم : وجعلها زينة ، ويصح أن يكون مصدراً لفعل محذوف أى وتتزينون بها زينة ، واحتج ابن عباس والحاكم وأبو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية ، قالوا : منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب ، فلو كان أكل لحم الخيل جائز ، لكان هذا المعنى أولى بالذكر ، بحيث إنه حين لم يذكره تعالى علمنا أنه يحرم أكله ؛ لأن الله تعالى خص الأنعام بالأكل

حيث قال «ومنها تأكلون» وخص هذه بالركوب فقال : لتركبوها ، فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للأكل ، واحتج القائلون بإباحة أكل اللحم من الخيل وهم سعد بن جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعى ، بما روى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما قالت : نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة ، وبما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى الخيل ، وفى رواية : أكلنا فى زمن خيبر حمر الوحش ، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الحمار الأهلى .. هذه رواية البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود قال : ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابنا مخمصة ، فنهانا النبى صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل ، وقال الواحدى : لو دلت هذه الآية على تحريم أكل الحيوان لكان تحريم أكلها معلوما فى مكة لأجل أن هذه السورة مكية ، ولو كان الأمر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين أن لحوم الحمر الأهلية حرمت عام خيبر ، أى وذلك فى المدينة باطل ؛ لأن التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم فلم يكن لتخصيص هذا التحريم لهذه السنة فائدة ، قال الرازى : وهذا جواب حسن متين ، وقال ابن الخازن : والدليل الصحيح المعتمد عليه فى إباحة لحوم الخيل : أن السنة مبينة للكتاب ، ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الأكل مسكوتا عنه ، دار الأمر فيه على الإباحة والتحريم ، فوردت السنة بإباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير ، فأخذنا به جمعا بين النصين .

ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الأنواع من الحيوان ذكر باقيها على سبيل الإجمال بقوله تعالى : «ويخلق ما لا تعلمون» وذلك لأن أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والإحصاء .. ولما شرح الله تعالى دلائل التوحيد قال تعالى «وعلى الله» أى الذى له الإحاطة بكل شىء «قصد السبيل» أى بيان الطريق المستقيم ، وإنما ذكرت هذه الدلائل وشرحها إزاحة للعذر وإزالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ،

« ومنها » أى السبيل « جائر » أى حائد عن الاستقامة ، وهذه الآية تدل على أن الله يجب عليه الإرشاد والهداية إلى الدين وإزاحة العلل والأعذار كما قال المعتزلة ، لأنه تعالى قال «وعلى الله قصد السبيل» ... وكلمة «على» للوجوب ، قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت » ، ولكن المراد : على الله تعالى بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح ، وغير أسلوب الكلام حيث قال فى الأول : « وعلى الله قصد السبيل » ، وفى الثانى « ومنها جائر » لأن المقصود بيان سبيله وتنقسم إلى القصد والجائر ، وإنما جاء بالمعرض ، ثم قال تعالى : « ولو شاء » هدايتكم « لهداكم » إلى قصد السبيل « أجمعين » فتهتدون إليه باختيار منكم ، قال الرازى : وهذا يدل على أن الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الإيمان ، لأن كلمة (لو) تفيد انتفاء الشىء لانتفاء غيره .

ولما ذكر تعالى نعمه على عباده بخلق الحيوانات لأجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر إنزال المطر لأنه من أعظم النعم على عباده ، فقال « هو » لا غيره مما تدعى فيه الإلهية « الذى أنزل » أى بقدرته الباهرة « من السماء » إما من نفسها أو من جهتها ، أو من السحاب كما هو مشاهد « ماء » يحسونه بالذوق والبصر « لكم منه » أى من ذلك الماء « شراب » أى يشربونه ، وقد بين تعالى فى آية أخرى أن هذه النعمة جليلة فقال : وجعلنا من الماء كل شىء حى . . « ومنه » أى من الماء « شجر » أى ينبت بسببه . والشجر هنا كل نبات من الأرض حتى الكلأ ، وفى الحديث : لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت ـ يعنى الكلأ ، وقال المفسرون : فى قوله تعالى «والنجم والشجر يسجدان» المراد من النجم ما ينجم من الأرض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق ، فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط ، يقال : تشاجر القوم إذا اختلطت أصوات بعضهم ببعض ، وتشاجرت الرماح إذا اختلطت ، وقال تعالى : حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ومعنى الاختلاط حاصل فى العشب والكلأ فوجب إطلاق لفظ الشجر عليه ، ويصح أن يكون المراد بالشجر هنا ماله ساق ، لأن الإبل

تقدر على رعى ورق الأشجار الكبار ، وحينئذ فإطلاق الشجر على الكلأ مجاز « فيه » أى الشجر « تسيمون » أى ترعون مواشيكم : يقال أسمت الماشية إذا خليتها ترعى ، وسامت هى إذا رعت حيث شاءت ، قال الزجاج : أخذ ذلك من السومة وهى العلامة ؛ لأنها تؤثر فى الأرض برعيها علامات ، وقال غيره : لأنها تعلم الإرسال فى المرعى .

ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا وإجمالا بقوله تعالى: « ينبت » أى الله « لكم به » أى بذلك الماء « الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات» فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذى يقتات به كالحنطة والشعير والأرز لأن به قوام البدن، وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن وبارك فيه ، وثلث بذكر النخيل لأن ثمرها غذاء وفاكهة ، وختم بذكر الأعناب لأنه شبيه النخيل فى المنفعة من التفكه والأغذية ، ثم ذكر تعالى سائر الثمار إجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده ؛ لأن الحبة الواحدة تقع فى الطين فإذا مضى عليها مقدار معين من الوقت خرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الأرض إلى الهواء ، ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة فى جوف الأرض ، وهى المسماة بعروق الشجرة، ثم إن تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ، ثم يخرج منها الأوراق والأزهار والأكمام والثمار ، ثم إن تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب . وفى ذلك الإشارة بقوله تعالى « إن فى ذلك لآية » بينة على أن فاعل ذلك تام القدرة يقدر على بعث الخلق « لقوم يتفكرون » أى فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته فيؤمنون ، ثم ذكر سبحانه وتعالى أشياء تدل على أنه الفاعل المختار بقوله تعالى «وسخر لكم» أى أيها الناس لإصلاح أحوالكم « الليل » للسكنى « والنهار » للمعاش، ثم ذكر آية النهار فقال: «والشمس» أى لمنافع اختصاصها ثم آية الليل والنهار «والقمر» لأمور علقها به « والنجوم » أى الآيات نصبها لها ، ثم نبه على تغيرها بقوله تعالى « مسخرات » أى بأنواع التغير لما خلقها له على أوضاع دبرها « بأمره » أى بإرادته دلالة على وحدانيته تعالى وفعله تعالى بالاختيار ، ولو شاء تعالى لأقام

أسبابا غيرها أو أغنى عن الأسباب ، ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الأشياء وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله « إن فى ذلك » أى التسخير العظيم «لآيات» أى دلالات متعددة كثيرة عظيمة «لقوم يعقلون» أى يتدبرون فيعلمون أن جميع الخلق تحت قدره وقدرته وتسخيره لما أراد منهم «وماذرأ» أى خلق « لكم فى الأرض » هذا معطوف على الليل أى وسخر لكم ماخلق لكم فيها من حيوان ونبات ، وقيل : إنه فى موضع نصب بفعل محذوف أى وخلق «مختلفا» حال منه « ألوانه» أى فى الخلقة والهيئة والكيفية ، وهو فاعل مختلف « إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » أى يتعقلون ، وختم الله تعالى الآية الأولى بالتفكر لأن فيها مايحتاج إلى تأمل ونظر ، وختم الثانية بالعقل لأن مدار ماتقدم عليه ، وختم الثالثة بالتذكر لأنه نتيجة ماتقدم ، وجمع الآيات فى الثانية دون الأولى والثالثة لأن مانيط بها أكثر ، ولذلك ذكر معها العقل .

ولما استدل سبحانه وتعالى على إثبات الإله أولا بأجرام السموات والأرض وثانيا ببدن الإنسان ، وثالثا بعجائب خلقة الحيوان ، ورابعا بعجائب النبات ، ذكر خامسا عجائب العناصر ، وبدأ بالاستدلال بعنصر الماء بقوله تعالى: «وهو» أى لاغيره «الذى سخر البحر» أى ذلله وهيأه لعيش مافيه من الحيوان وتكون الجواهر وغير ذلك ، ومن تسخير البحار تهيئتها للانتفاع بها بالركوب وبالغوص وبغير ذلك ، فمنافع البحار كثيرة ، وذكر سبحانه وتعالى منها ثلاث منافع :

الأولى : قوله تعالى: «لتأكلوا منه» أى بالاصطياد وغيره من لحوم الأسماك « لحما طريا » لاتجد أنعم منه ولا ألين منه ؛ فنى ذلك دلالة على قدرته تعالى .

الثانية : قوله تعالى : « وتستخرجوا منه » أى بجهدكم فى الغوص ومايتبعه « حلية » أى اللؤلؤ والمرجان ؛ كما قال تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان.. « تلبسونها » أى نساؤكم ، وهن بعضكم فكأن اللابس أنتم ، ولأن زينة النساء بالحلى إنما هو لأجل الرجال فكان ذلك زينة للجميع .

المنفعة الثالثة قوله تعالى: « وترى الفلك » أى السفن «مواخر» أى تمخر

الماء تشقه بجريها « فيه » أي مقبلة ومدبرة ، وذلك أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر بريح واحدة ، وقال مجاهد : تمخر السفن يعنى أنها إذا جرت يسمع لها صوت ، وقال الحسن : مواخر يعنى مملوءة متاعا « ولتبتغوا » أي لتطلبوا - عطف على تأكلوا ومابينهما اعتراض،وقيل : عطف على محذوف تقديره لتبتغوا بذلك ولتبتغوا « من فضله » أي من سعة رزقه بركوبها للتجارة وللوصول إلى البلدان « ولعلكم تشكرون » الله على هذه النعم التى أنتم عاجزون عنها لولا تسخيره ، ثم أنه ذكر بعض النعم التى خلقها الله تعالى فى الأرض بقوله تعالى: « وألقى فى الأرض رواسى » أى جبالا ثوابت « أن تميد » أى كراهة أن تميل وتضطرب « بكم » ، وقيل : لئلا تميل بكم، والأول قدره البصريون ، والثانى قدره الكوفيون « وأنهارا » عطف على رواسى لأن الإلقاء بمعنى الخلق والجعل ، ألا ترى أنه تعالى قال فى آية أخرى : « وجعل فيها رواسى من فوقها » . وقال تعالى : « وألقيت عليك محبة منى » ، وذكر تعالى الأنهار بعد الجبال لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال « و » جعل لكم فيها « سبلا » أى طرقا مختلفة تسلكون فيها فى أسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد إلى بلد ومن مكان إلى مكان « لعلكم تهتدون » أى بتلك السبل إلى مقاصدكم وإلى معرفة الله تعالى فلا تضلون «و» جعل لكم فيها «علامات» أى من الجبال وغيرها ، جمع علامة ، تهتدون بها فى أسفاركم ، ولما كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأوضحها براً وبحراً ليلا ونهاراً ، نبه على عظمها بالالتفات إلى مقام الغيبة لإفهام العموم ، لئلا يظن أن المخاطب مخصوص والأمر لايتعداه ، فقال تعالى : « وبالنجم هم » أى أهل الأرض كلهم، وأولى الناس بذلك المخاطبون وهم قريش ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم « يهتدون » ، وقدم الجار تنبيها على أن دلالة غيره بالنسبة إليه أقل من هذه الدلالة ، وقيل : الضمير لقريش لأنهم كانوا كثيرى الأسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء فى سيرهم بالنجوم .

ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب قدرته وبديع خلقه ماذكر على الترتيب

الأحسن والنظم الأكمل ، وكانت هذه الأشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته ، وأنه تعالى المنفرد بخلقها كافة ، قال - على سبيل الإنكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة الأصنام العاجزة التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شىء - : « أفمن يخلق » أى هذه الأشياء الموجودة وغيرها «كمن لايخلق» شيئا من ذلك بل على إيجاد شىء ما ، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادة من لا يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى ، فإن قيل : ذلك الزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيها بالله ، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال: أفمن يخلقك كمن لا يخلق ، أجيب بأنهم لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى فى تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيها بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله تعالى : أفمن يخلق كمن لا يخلق ، فإن قيل : من لا يخلق إن أريد به جميع ما عبد من دون الله كان ورود « من » واضحا ، لأن العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ، ولو جىء أيضا بما لجاز ؛ وإن أريد به الأصنام يكون التعبير بمن الذى هو لأولى العلم لأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم ، ألا ترى إلى قوله تعالى : على أثره: « والذين يدعون من دونه لايخلقون شيئا وهم يخلقون » وقيل : للمشاكلة بينه وبين من يخلق ، وقيل : المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بمن لا علم عنده كقوله تعالى: «ألهم أرجل يمشون بها» يعنى الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب ، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة ، إلا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا ، ولما كان هذا القدر ظاهرا غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه تدقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل ، ختم تعالى ذلك بقوله تعالى: « أفلا تذكرون » بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه فتؤمنون ؟ ! « وإن تعدوا » كلكم « نعمة الله » أى إنعام الملك الأعظم الذى لارب غيره عليكم من صحة البدن وعافية الجسم وإعطاء النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين

ومشى الرجلين ، إلى غير ذلك مما أنعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون إليه من أمر الدنيا ، حتى لو رام أحدكم معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عنها وعن معرفتها وحصرها « لاتحصوها » أى لاتضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم مع كفركم وإعراضكم جملة عن شكرها ، والعبد وإن أتعب نفسه فى القيام بالطاعة والعبادات وبالغ فى شكر نعم الله تعالى فإنه يكون مقصراً ؛ لأن نعم الله كثيرة وأقسامها عظيمة ، وعقل الخلق قاصر عن الإحاطة بعبادتها فضلا عن غاياتها ، لكن الطريق إلى ذلك أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها « إن الله لغفور » أى لتقصيركم فى القيام بشكر النعمة كما يجب عليكم « رحيم » بكم فيوسع عليكم النعم ولا يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى « والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » فيه وجهان : الأول أن الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ماكانوا يمكرون بالنبى صلى الله عليه وسلم وما يعلنون من إيذائه صلى الله عليه وسلم ، فأخبر الله تعالى بأنه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها ، لا يخفى عليه خافية وإن دقت وخفيت ، والوجه الثانى أنه تعالى لما ذكر الأصنام وذكر عجزها فى الآية المتقدمة ، ذكر فى هذه الآية أن الإله الذى يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها ، وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة .

٢٠ — وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

٢١ — أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ .

٢٢ — إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ .

٢٣ — لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ .

٢٤ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

٢٥ — لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ .

٢٦ — قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

٢٧ — ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ .

٢٨ — ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

٢٩ — فَٱدْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ .

فى هذه الآيات العشر حملة شديدة على الشرك والمشركين ، والكفر والكافرين ، ورد عنيف على الذين يشككون فى رسالة محمد ، وينكرون دينه الحق ، وتأييد قوى لدعوة التوحيد ، وإنذار شديد للضالين عن سبيل الله ، وتحذير لهم ، وإنذار بمثل مصارع الأمم السابقة ، وتخويف لهم من نتائج عصيانهم والعذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات : « والذين تدعون » أى تعبدون

« من دون الله » أى الأصنام ، وتعتقدون أنها آلهة . . وقرىء « تدعون » بالتاء وبالياء « لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون » أى يصوَّرون من الحجارة وغيرها ، وقوله تعالى فى الآية المتقدمة « أفمن يخلق كمن لا يخلق » يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئاً وهم يخلقون ، وهذا هو المعنى المذكور فى تلك الآية المذكورة ؛ ففائدة هذا التكرار أن المعنى المذكور فى الآية المتقدمة أنهم لايخلقون شيئا فقط ، والمذكور فى هذه الآية أنهم لايخلقون شيئا وهم يخلقون كغيرهم ، فكان هذا زيادة فى المعنى وهو فائدة التكرار ، فكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم فى ذواتهم وصفاتهم ؛ فبين أولا أنها لا تخلق شيئا ، ثم بين ثانيا أنها لا تخلق غيرها بل هى مخلوقة كغيرها .

الصفة الثانية قوله تعالى: «أموات» أى جمادات لا روح لها « غير أحياء » إذ الإله الذى يستحق أن يعبد هو الحى الذى لا يموت ، وعلم من قوله « أموات » أنها غير أحياء ، فالفائدة فى ذكره أن من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا وأجساد الحيوانات التى تبعث بعد موتها ، وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة ، وذلك أعرق فى موتها ، وقيل : ذكر للتأكيد ، لأن الكلام مع الكفار الذين يعبدون الأوثان وهم فى نهاية الجهالة والضلالة ، ومن تكلم مع الجاهل الغبى فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة ، وغرضه الإعلام بكون المخاطب فى غاية الغباوة فى أنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة .

الصفة الثالثة قوله تعالى: « وما يشعرون » أى الأصنام « أيان » أى وقت « يبعثون » أى وما تعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكما بحالها ، لأن شعور الجماد محال ، فكيف بشعور مالا يعلمه حى إلا الحى القيوم سبحانه وتعالى؟ وقيل :الضمير راجع للأصنام ، قال ابن عباس : إن الله يبعث الأصنام ومعها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار ، وقيل : المراد بقوله تعالى «والذين تدعون من دون الله » الملائكة ـ وكان ناس من الكفار يعبدونهم ـ فقال الله تعالى :

إنهم أموات . أى لابد لهم من الموت ، غير أحياء أى باقية حياتهم ومايشعرون أى لا علم بوقت بعثهم .

ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الأوثان وبين فساد مذهبهم ، قال تعالى : « إلهكم » أى أيها الخلق جميعا المعبود بحق « إله » أى متصف بالإلهية على الإطلاق بالنسبة إلى كل أوان وكل زمان وكل مكان « واحد » لا يقبل التعدد الذى هو مثار النقص بوجه من الوجوه « فالذين » أى فتسبب عن هذا أن الذين « لا يؤمنون بالآخرة » أى دار الجزاء ومحل إظهار الحكم الذى هو ثمرة الملك ، والعدل الذى هو مدار العظمة « قلوبهم منكرة » أى جاحدة للوحدانية « وهم » أى والحال أنهم بسبب إنكارذلك « مستكبرون » أى متكبرون عن الإيمان بها « لا جرم » أى حقا « أن الله يعلم ما يسرون » أى يخفون مطلقا أو بالنسبة إلى بعض الناس « وما يعلنون » أى يظهرون فيجازيهم بذلك ، ولما كان فى ذلك معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى « إنه » أى العالم بالسر والعلن « لايحب المستكبرين » أى على خلقه فما بالك بالمستكبر على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعنى محبتهم أنه يعاقبهم ، وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل يا رسول الله : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص الناس ، ومعنى بطر الحق أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله ، ومعنى غمص الناس : استنقاصهم وازدراؤهم .

ولما بالغ سبحانه وتعالى بالدلائل القاهرة فى إبطال مذهب عبدة الأصنام قال تعالى : « وإذا قيل لهم » أى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة « ماذا » ، ما استفهامية و « ذا » موصولة أى ما الذى « أنزل ربكم » على محمد صلى الله عليه وسلم ، واختلف فى قائل هذا القول ، فقيل : هو كلام بعضهم لبعض ، وقيل : قول المسلمين لهم ، وقيل : قول المقتسمين الذين اقتسموا

مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم « قالوا » مكابرين فى إنزال القرآن هو « أساطير » أى أكاذيب « الأولين » مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضة أقصر سورة منه ، مع علمهم بأنهم أفصح الناس ، وأنه لا يكون من أحد من الناس متقدم أو متأخر قول إلا قالوا أبلغ منه ، وهذا كلام متناقض لأنه لا يكون منزلا من ربهم وأساطير ، وأجيب بأنهم قالوا على سبيل السخرية كقولهم: إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، واللام فى قوله تعالى « ليحملوا » لام العاقبة كما فى قوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » ، وذلك لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين ، كأن عاقبتهم بذلك أن يحملوا « أوزارهم » أى ذنوب أنفسهم « كاملة » لئلا يتوهم أنه يكفر عنهم شىء بسبب البلايا التى أصابتهم فى الدنيا وأعمال البر التى عملوها فى الدنيا بل يعاقبون بكل أوزارهم « يوم القيامة » الذى لا شك فيه ولا محيص عن إتيانه ، قال الرازى : وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين ، إذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة « و » ليحملوا أيضا « من » جنس « أوزار » الجهلة الضعفاء « الذين يضلونهم بغير علم » حال من مفعول يضلونهم أى يضلون من لا يعلم أنهم ضلال ، أو من الفاعل ، وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم ، لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل ، وإنما حصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الإيمان مثل أوزار الأتباع ، لأنهم دعوا إلى الضلال فأبقوهم فاشتركوا فى الإثم ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعى إلى الضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » أخرجه مسلم ، ومعنى الآية والحديث : أن الرئيس والكبير إذا سن سنة حسنة أو سيئة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فإن الله تعالى يعطيهم

ثوابه وعقابه ، حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع الذين عملوا بالسنة الحسنة أو القبيحة ، وليس المراد أن الله يوصل جميع الثواب والعقاب الذى استحقه الأتباع إلى الرؤساء ، ويدل لذلك قوله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وقوله تعالى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » و « من » فى قوله تعالى « ومن أوزار » للجنس كما قدرت ذلك فى الآية الكريمة ، أى ليحملوا من جنس أوزار الأتباع ، وقيل : إنها للتبعيض وجرى عليه البيضاوى تبعاً للزمخشرى .. « ألا ساء » أى بئس « ما يزرون » أى يحملون حملهم هذا ، وفى هذا وعيد وتهديد لهم ، وهذه الشبهة عن القوم قد حكاها الله تعالى ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد ، والسبب فى ذلك أنه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين :

الأول: أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم تارة بكل القرآن، وثانيا بعشر سور، وثالثا بسورة ، ورابعا بحديث واحد ، فعجزوا عن المعارضة ، وذلك يدل على كونه معجزاً .

الثانى : أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها فى آية أخرى وهى قوله تعالى : « اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » وأبطلها بقوله تعالى : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض » ومعناه أن القرآن يشتمل على الأخبار بالغيوب ، وذلك لا يأتى إلا ممن يكون عالما بأسرار السموات والأرض .

ولما ثبت كون القرآن معجزاً بهذين الطريقين ، وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة ، لاجرم اقتصر فى هذه الآية على مجرد الوعيد ولم يذكر الجواب عن هذه الشبهة ، ثم أنه سبحانه وتعالى بالغ فى وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى « قد مكر الذين من قبلهم » أى من رأوا آثارهم وخلوا ديارهم « فأتى الله » أى أمره « بنيانهم من القواعد » أى من جهة العمد التى بنوا عليها مكرهم « فخر » أى سقط « عليهم السقف من فوقهم » وصار سبب هلاكهم « وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » أى من جهة لا تخطر ببالهم ، وهذا على سبيل التمثيل ، أى التشبيه والتخييل بإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل ، فجعل الله هلاكهم فى ما أبرموه كحال قوم بنوا

بنيانا وعهدوه بالأساطين ، فأتى البنيان من الأساطين بأن تضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا ، وقيل : هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ليصعد إلى السماء ، ومعنى قوله تعالى « فأتى الله بنيانهم من القواعد » أى أتى أمره فخرت بنيانهم من أصلها وأصولها ، فخر عليه وعلى قومه السقف أى أعلى البيوت من فوقهم فهلكوا ، قيل : كان لسانهم السريانية ، وفيه نظر لأن صالحا عليه السلام كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية ، وكان أهل اليمن عربانهم جرهم الذين نشأ إسماعيل بينهم وتعلم منهم العربية ، وكان ببابل من العرب طائفة قديمة قبل إبراهيم ، وقد يقال : إنه كان لسان أكثر الناس بالسريانية فلا ينافى ذلك ، وفائدة قوله تعالى : فخر عليهم السقف من فوقهم ، أنهم قد لا يكونون تحته ، فلما قال تعالى : فخر عليهم السقف من فوقهم ، دل على أنهم كانوا تحته ، وحينئذ يفيد هذا الكلام أن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها ، ولما ذكر تعالى حالهم فى الدنيا ذكر حالهم فى الآخرة بقوله « ثم يوم القيامة يخزيهم » أى يذلهم ويهينهم بعذاب النار « ويقول » لهم الله تعالى على لسان الملائكة توبيخا « أين شركائى » أى فى زعمكم واعتقادكم « الذين كنتم تشاقون » أى تخالفون المؤمنين « فيهم » أى فى شأنهم « قال » أى يقول « الذين أوتوا العلم » أى من الأنبياء والمؤمنين ، وقال ابن عباس : يريد الملائكة « أن الخزى » أى البلاء المذل « اليوم » أى يوم الفصل الذى يكون للفائز فيه العاقبة المأمونة « والسوء على الكافرين » أى كما تكبروا فى غير موضع التكبر ، وفائدة قولهم إظهار الشماتة وزيادة الإهانة .

ثم إنه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة » أى يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه « ظالمى أنفسهم » أى بأن عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم « فألقوا السلم » أى استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قائلين : « ما كنا نعمل من سوء » أى شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة « بلى » أى بل كنتم تعملون أعظم السوء ، ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى « إن الله عليم بما كنتم تعملون » أى فلا فائدة

لكم فى إنكاركم فيجازيكم به ، ولما كان هذا الفعل مع العلم سببا لدخول جهنم قال تعالى «فادخلوا» أى أيها الكفرة «أبواب جهنم» أى أبواب طبقاتها «خالدين» أى مقدرين الخلود «فيها» أى جهنم لايخرجون منها ، وإنما قال تعالى ذلك لهم ليكون أعظم فى الخزى والغم ، وفى ذلك دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض ؛ ثم قال تعالى « فلبئس مثوى » أى مأوى « المتكبرين » عن قبول التوحيد وسائر ماأتت به الرسل .

* * *

وبهذا ينتهى الربع الأول من سورة النحل ، الذى تضمن دعوة قوية للتوحيد ، وإنذارا شديدا للشرك والمشركين ، وتخويفا مابعده تخويف للكافرين بمثل مصارع الأمم البائدة ، وتذكيرا قويا بنعم الله وبمظاهر قدرته فى السموات والأرض والحياة والكون والوجود .

إن هذه السورة المكية أضخم دعوة إلى التوحيد ، وفيها إقامة الدليل عليه بمالا يحتمله الشك ، وهى كذلك أعظم إنذار للشرك والمشركين .

وهذا الربع الأول منها فاتحة تدل على هذه السورة ، وترشد إليها ، بما احتوى على دعوات قوية حارة لعبادة إله واحد ونبذ الضلال والكفر والشرك.

الربع الثانى من سورة النحل

٣٠ — وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ .

٣١ — جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ .

٣٢ — ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث ـ اللاتى هى مطلع الربع الثانى من سورة النحل حديث عن المتقين ومنزلتهم فى الدنيا والآخرة عند الله ، وما أعده الله لهم فى الآخرة من نعيم مقيم ، واستقبال الملائكة لهم فى الجنة بالإعظام الإكبار والتقدير . .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث الكريمة : « وقيل للذين اتقوا » أى خافوا عقاب الله « ماذا » أى أى شىء « أنزله ربكم » قالوا «خيرا» أى أنزل خيرا ، وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاء سأل عنه الذين قعدوا على الطريق فيقولون : ساحر كاهن كذاب مجنون ولو لم تلقه خير لك ؛ فيقول السائل : أنا شر وافد إن رجعت إلى قومى دون أن أدخل مكة وألقاه ، فيدخل مكة فيرى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وأنه نبى مبعوث من الله تعالى ، فذلك قوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم » الآية ، وجواب الجاحد فى ذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزّل على النبى صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : أساطير الأولين، وليس هو من الإنزال فى شىء لأنهم لم يعتقدوا كونه منزلا ، ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم لم ينطقوا وطابقوا الجواب عن السؤال « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة » أى حياة طيبة ، أو أن للذين أتوا الأعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابها حسنة مضاعفة من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، أو أنه تعالى بين أن لهم بذلك الإحسان فى هذه الدنيا حسنة أى جزاء لهم على إحسانهم هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال أخبر عن حالهم فى الآخرة فقال : « ولدار الآخرة » أى الجنة « خير » أى ما أعد الله لهم فى الجنة خير مما حصل لهم فى الدنيا ، ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى «ولنعم دار المتقين» أى دار الآخرة فحذف لتقدم ذكرها ، وقال الحسن : هى الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون منها للآخرة « جنات » أى بساتين « عدن » أى إقامة « يدخلونها » أى تلك

الجنات حالة كونها « تجرى من تحتها » أى من تحت غرفها « الأنهار » ، ثم كأن سائلا سأل عما فيها من الثمار وغيرها ، فأجيب بأن « لهم فيها ما يشاؤن » أى ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مع زيادات غير ذلك ، فهذه الآية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات، فهى أبلغ من قوله تعالى: وفيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين لأن هذين القسمين داخلان فى قوله تعالى : « لهم فيها ما يشاءون » مع أقسام أخرى ، وعلى أن الإنسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا لأن قوله : « لهم فيها ما يشاءون » يفيد الحصر « كذلك » أى مثل هذا الجزاء العظيم « يجزى الله » أى الذى له الكمال كله « المتقين » أى الراسخين فى صفة التقوى ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على أن العبرة بحال الموت فقال : « الذين تتوفاهم الملائكة » أى بقبض أرواحهم « طيبين » كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة ، وذلك لأنه يدخل فيه اتباعهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة متبرئين من الأخلاق المذمومة ، ويدخل فيه كونهم متبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس ، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح ، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة ، حتى صاروا كأنهم مشاهدين لها ، ومن هذا حاله لا يتألم بالموت « سلام عليكم » هذا هو ترحيب الملائكة بهم عند الموت أو عند الحساب أو عند دخول الجنة . . حيث تسلم عليهم وتبلغهم السلام من الله تعالى . وروى أن العبد إذا أشرف على الموت جاءه ملك الموت فقال : سلام عليك يا ولى الله ، الملك يقرئك السلام ويبشرك بالجنة، أو يقال لهم فى الآخرة هذا « أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون » أى التى بشرتم بها والتى هى داركم وخاصة بكم .

٣٣ — هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

٣٤ — فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

٣٥ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ .

٣٦ — وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ .

٣٧ — إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ .

٣٨ — وَأَقْسَمُوا بِٱللهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

٣٩ — لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ .

٤٠ — إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ .

٤١ — وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا

في هذه الآيات الثمان تهديد لمشركي مكة ما بعده من تهديد ، وإنذار لهم بالعذاب والهلاك الشديد وبمثل مصارع الأمم البائدة التي ظلمت أنفسها وما ظلمهم الله .. وفيها رد على المشركين كذلك ، الذين يجعلون شركهم مما أراده

الله وقدره وقضاه عليهم ، شأنهم فى ذلك شأن الأمم البائدة ، ورسالات الله إلى الأمم من شأنها أن تلاقى المؤمن بها والكافر . . ولو سار المشركون فى الأرض وشاهدوا مصارع الأمم البائدة وآثارها الدارسة ، لكان لهم من ذلك عظة وعبرة . . إن المشركين قد أضلهم الله ، ومهما حرص الرسول على هدايتهم فلن يؤمنوا ، وما لهم من ناصرين ينصرونهم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ويرد الله عز وجل على مشركى مكة كذلك فى إنكارهم للبعث ، ويقرر أنه حقيقة لا شك فيها ، وأنهم سيبعثون ليعلموا حقيقة ما اختلفوا فيه ، وليعرفوا أنهم كانوا فى الدنيا كاذبين على الله والحق بإنكارهم البعث والجزاء.. وهل يستعصى على قدرة الله شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ إنما قوله لشىء إذا أراده أن يقول له كن فيكون . . إنه القادر على كل شىء فى السماء والأرض وفى أنفسكم أفلا تبصرون؟ يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة: « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة » بقبض أرواحهم « أو يأتى أمر ربك » أى يوم القيامة، وقيل: العذاب ، وقيل: إنهم طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه فى ادعاء النبوة فقال تعالى : هل ينظرون فى التصديق بنبوتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك.. «كذلك» أى مثل ما « فعل » هؤلاء هذا الفعل البعيد الشنيع فعل « الذين من قبلهم » من الأمم السابقة.. «كذبوا رسلهم فأهلكوا وما ظلمهم الله » بإهلاكهم بغير ذنب « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » لكفرهم وتكذيبهم للرسل استوجبوا ما نزل بهم « فأصابهم أى فتسبب عن ظلمهم لأنفسهم أن أصابهم « سيئات » أى عقوبات أو جزاء سيئات « ما عملوا وحاق بهم » أى نزل بهم « ما كانوا به يستهزئون » تكبروا عن قبول الحق فحاق بهم جزاؤه.. « وقال الذين أشركوا » للنبى صلى الله عليه وسلم استهزاء : « لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا » لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة

الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا لهم : « ولا حرمنا من دونه من شيء » أى من السوائب والبحائر والحام فهو راض به وبمشيئته ، وحينئذ فلا فائدة فى مجيئك وفى إرسالك ، وهذا عين ما حكاه الله تعالى عنهم فى سورة الأنعام فى قوله تعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله » الآية ، قال الله تعالى « كذلك فعل الذين من قبلهم » أى من تقدم هؤلاء الكفار من الأمم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث .. فإنكار بعثة الرسل كان قديما فى الأمم الخالية ، وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم « فهل على الرسل إلا البلاغ » أى الإبلاغ « المبين » أى البين فليس عليهم هداية أحد ، إنما عليهم تبليغ ما أرسلوا به إلى من أرسلوا إليه .. ثم بين تعالى أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم كلها سببا لهدى من أراد هداه وزيادة لضلال من أراد ضلاله « ولقد بعثنا » أى بما لنا من العظمة التى من اعترض عليها قصم « فى كل أمة » من الأمم الذين من قبلكم « رسولا » أى كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم « أن اعبدوا الله » أى الملك الأعلى وحده « واجتنبوا الطاغوت » أى الأوثان أن تعبدوها « فمنهم من هدى الله » أى وفقهم للإيمان بإرشاده « ومنهم من حقت » أى وجبت « عليه الضلالة » أى فى علم الله تعالى فلم ينفعهم ولم يرد هداهم ، وفى هذه الآية أبين دليل على أن الهادى والمتفضل هو الله تعالى لأنه المتصرف فى عباده يهدى من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه فى ما حكم به بسابق علمه .. ثم التفت سبحانه وتعالى إلى مخاطبتهم إلى أنه لم يبق بعد هذا الدليل القطعى فى نظر البصيرة إلا الدليل المحسوس للبصر فقال تعالى : « فسيروا » أى فإن كنتم أيها المخاطبون فى شك من إخبار الرسل فسيروا « فى الأرض » أى جنسها « فانظروا » أى إذا سرتم ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ، ثم أشار الله تعالى بالاستفهام إلى أن أحوالهم مما يجب أن يسأل عنه للاتعاظ به فقال « كيف كان عاقبة » أى آخر أمر « المكذبين » أى مثل عاد ، ومن بعدهم من الأمم الذين تلقيتم أخبارهم ممن قلدتموهم فى الكفر من أسلافكم لعلكم تعتبرون .. ولما كان المحقق أنه ليس

بعد الإيصال فى الاستدلال إلى الأمر المحسوس إلا العناد أعرض عنهم ملتفتا إلى الرؤوف بهم الشفيق عليهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال مسليا له : « إن تحرص على هداهم » فتطلبه بغاية جهدك واجتهادك — وقد أضلهم الله تعالى — لاتقدر على ذلك .. « فان الله لايهدى من يضل » أى من يريد ضلاله وهو معين لمن حقت عليه الضلالة « ومالهم » أى هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله « من ناصرين » أى وليس لهم أحد ينصرهم فى الدنيا والآخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذوهم مما يلحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين من قبلهم . .

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم » أى غاية اجتهادهم فيها « لايبعث الله من يموت » ؛ وذلك أنهم قالوا: إن الإنسان ليس هو إلا هذه البنية المخصوصة ، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلى امتنع عوده بعينه، لأن الشىء إذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه . فكذبهم الله تعالى فى قوله تعالى « بلى » أى ليبعثهم بعد الموت، فان لفظة بلى إثبات بعد النفى والجواب عن شبهتهم أن الله تعالى خلق الإنسان وأوجده من العدم ولم يكن شيئا فالذى أوجده من العدم قادر على إيجاده بعد إعدامه ، لأن النشأة الثانية أهون من الأولى « وعداً عليه حقا » مصدران مؤكدان منصوبان بفعلهما المقدر ، أى وعد ذلك وحقه حقا « ولكن أكثر الناس لايعلمون » اى لاعلم لهم يوصلهم إلى ذلك لأنه من عالم الغيب ، لا يمكن لعقولهم الوصول إليه بغير إرشاد من الله تعالى ، ولاهم يقبلون أقوال الدعاة اليه الذين أيدهم الله بروح منه لتقييدهم بما يوصل إلى عقولهم أنها قاصرة على عالم الشهادة . لا يمكنها الترقى منه إلى عالم الغيب بغير واسطة منه سبحانه وتعالى ، فكذلك ترى الإنسان منهم يأبى ذلك استبعادا وهو خصيم مبين. وقوله تعالى: « ليبين لهم الذى يختلفون فيه » يتعلق بما دل عليه بلى أى يبعثهم ليبين لهم ، والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين والذين اختلفوا فيه هو الحق « وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » فى قولهم : « لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء » ، وقولهم : « لايبعث الله من يموت » وقيل يجوز أن يتعلق بقوله : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا » أى بعثناه ليبين لهم مااختلفوا فيه ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب . « إنما

قولنا ، أى بما لنا من العظمة والقدرة « لشىء » بدءاً وإعادة « إذا أردناه .. أن نقول له كن فيكون » أى يتسبب عن ذلك القول أنه يكون ، ولفظ كن من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود أى إذا أردنا حدوث شىء فليس إلا أن نقول له احدث فيحدث عقب ذلك من غير توقف ، وهذا تمثيل لنفى الكلام والغايات وخطاب مع الخلق بما يعقلون ، وليس هو خطاب المعدوم لأن ما أراد فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الإسراع ، ولو أراد الله تعالى خلق الدنيا والآخرة بما فيها من السموات والأرض فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك ، وقد خاطب الله تعالى العباد بما يعقلون ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تبارك وتعالى « يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ويكذبنى وما ينبغى له ، أما شتمه إياى فيقول : إن لى ولدا ، وأما تكذيبه فيقول : ليس يعيدنى كما بدأنى » . وفى رواية : « كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فيقول : لن يعيدنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الله الواحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدا » .

٤٢ — ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

٤٣ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

٤٤ — بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

فى هذه الآيات الكريمة بشارة عظيمة للمهاجرين المجاهدين فى سبيل الله بخير الدنيا ومجدها وبنعيم الآخرة وجناتها ، جزاء جهادهم وصبرهم وتوكلهم

على الله . . وليست رسالة محمد بالبدع من بين الرسالات ، إنه أرسل اليه كما أرسل إلى أنبياء ورسل كثيرين من قبله ، نزل عليهم وحى الله ، فليسأل المشركون أهل الكتاب وأهل الذكر عن هؤلاء الرسل ورسالاتهم ، وعما نزل عليهم من البينات والزبر ، وكذلك أنزل الذكر على محمد بن عبد الله لهداية الناس ودعوتهم إلى الدين الحق ، دين الإسلام العظيم .

يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمة : « والذين هاجروا فى الله » أى فى حقه ولوجهه بإقامة دينه « من بعد ما ظلموا » وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله تعالى ، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، فجمع الله بين الهجرتين ، ومنهم من هاجر إلى المدينة ، أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم : بلال وصهيب وخبــاب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل ، أخذهم المشركون بمكة فأخذوا يعذبونهم ليرجعوا عن دين الإســلام إلى الكفر ، فأما بلال فكان أصحابه يخرجون إلى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول : أحد أحد ، فاشتراه منهم أبو بكر رضى الله تعالى عنــه وأعتقه واشترى معه ستة نفر أخر ، وأما صهيب فقال : أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم فافتدى بمــاله وهاجر ، فلما رآه أبو بكر قال له : ربح البيع يا صهيب ، وقال له : نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، وهو ثناء عظيم ، يريد : لو لم يخف الله لأطاعه « لنبوئنهم » أى لننزلنهم « فى الدنيا » داراً « حسنة » وهى المدينة وقيل : لنحسنن إليهم فى الدنيا بأن نفتح لهم مكة ونمكنهم من أهلها الذين ظلموهم وأخرجوهم منها ، وقيل : أراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية إلى الدين « ولأجر الآخرة » وهى الجنة والنظر إلى وجهه الكريم « أكبر » أى أعظم « لو كانوا يعلمون » أى الكفار والمتخلفون عن الهجرة ما للمهاجرين من الكرامة لوافقوهم ، وقيل : إنه راجع إلى المهاجرين ، أى لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا فى اجتهادهم

وصبروا ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجر بن عطاء يقول له : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك ربك به فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ، ثم يقرأ هذه الآية : «الذين صبروا» أى على الشدائد وعلى مفارقة الوطن وعلى الجهاد وبذل الأموال والأنفس فى سبيل الله «وعلى ربهم يتوكلون» أى منقطعين إليه مفوضين الأمر كله إليه .. وقد ذكر الله تعالى فى هذه الآية الصبر والتوكل وهما مبتدأ السلوك إلى الله تعالى ومنتهاه . أما الصبر : فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الأذى من الخلق ، وأما التوكل : فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق . فالأول هو مبدأ السلوك والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه ..

ونزل لما أنكر مشركو مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم وأجل أن يكون رسوله بشراً فهلا بعث ملكا إلينا .. «وما أرسلنا من قبلك» يا محمد إلى الأمم من طوائف البشر «إلا رجالا» لا ملائكة بل آدميين فى غاية الاقتدار على الصبر والوكل الذى هو محط الرحال «يوحى إليهم» بواسطة الملائكة ، فعادة الله جارية مستمرة من أول مبتدأ الخلق إلى الآن لم يبعث رسولا إلا من البشر «فاسألوا أهل الذكر» أى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وإنما أمرهم الله تعالى بسؤالهم لأن كفار مكة كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم ، وقد أرسل إليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام من البشر وكانوا بشراً مثلهم ، فإذا سألوهم فلا بد أن يخبروهم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً ، فإذا أخبروهم بذلك فربما زالت هذه الشبهة . وقال ابن عباس : يريد أهل التوراة والدليل عليه قوله تعالى : «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر» يعنى التوراة ، والذكر هو التوراة . «إن كنتم» أى جبلة وطبعاً «لا تعلمون» ذلك فإنهم يعلمونه وأنتم إلى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم .. «بالبينات» متعلق بمحذوف أى أرسلناهم بالحجج الواضحة ، وقيل : التقدير : إن كنتم لا تعلمون

بالبينات « والزبر » أى الكتب فاسألوا أهل الذكر ، وقيل : إنه متعلق بمحذوف جوابا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : بم أرسلوا ؟ قيل : أرسلوا بالبينات . . « وأنزلنا إليك الذكر » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والذكر هو القرآن ، وإنما سمى ذكرا لأنه موعظة وتذكير « لتبين للناس » كافة أى أعطاك الله تعالى من الفهم الذى فقت به جميع الخلق ، واللسان الذى هو أعظم الألسنة وأفصحها ، وقد أوصلك الله تعالى فيه الرتبة التى لم يصل إليها أحد « ما نزل » أى ما وقع بتنزيلها « إليهم » من هذا الشرع المؤدى إلى سعادة الدارين بتبيين المجمل وشرح ما أشكل من علم أصول الدين الذى رأسه التوحيد ومن البعث وغيره ، فإن القرآن فيه محكم وفيه متشابه ، فالمحكم يجب أن يكون مبيناً والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة « ولعلهم يتفكرون » فيما أنزل إليهم إذا نظروا أساليبه الفائقة ومعانيه العالية الرائعة فيعتبرون . . وهذه الآية تدل على أن المبين لكم التكاليف والأحكام هو النبى صلى الله عليه وسلم ، فالقياس ليس بحجة . وأجيب بأنه صلى الله عليه وسلم لما بين القياس كان ذلك فى الحقيقة رجوعا إلى بيان النبى صلى الله عليه وسلم .

٤٥ — أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

٤٦ — أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ .

٤٧ — أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

٤٨ — أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ .

٤٩ — وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .

٥٠ — يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

فى هذه الآيات الست الكريمة إنذار للمشركين ، وتحذير لهم من عذاب الله الشديد ، ومن إهلاكه لهم كما أهلك الذين من قبلهم . ودعوة لهم إلى التأمل فى ملكوت الله ، والنظر فيما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون . وهنا يبلغ جلال القرآن وعظمته مبلغا كبيرا من السمو والإعجاز .. حيث بين الله عز وجل امتثال الكون كله لأمر الله وخضوعه لقدرته ، ويصور ذلك بصورة السجود .. « ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض » من دابة . وتسجد الملائكة ، والملائكة لايستكبرون عن عبادته وهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون .. يقول الله عزوجل فى هذه الآيات الكريمة .. « أفأمن الذين مكروا السيئات » هم مشركو مكة ، مكروا مكر السوء برسول الله وصحابته وبالإسلام وبالقرآن ، والمكر هو السعى بالفساد على سبيل الإخفاء .. وقد هدد الله المشركين بأربعة ألوان من العذاب :

الأول بقوله تعالى : « أن يخسف الله بهم الأرض » كما خسف بقارون وأصحابه ، فإذا هم فى بطنها .

الثانى بقوله تعالى : « أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون » أى بغتة فيهلكهم ، كما فعل الله عز وجل بقوم لوط .

الثالث : ذكره الله عز وجل فى قوله : « أو يأخذهم » أى الله تعالى « فى تقلبهم » أى فى حالة تقلبهم ومشاعرهم حاضرة وصحتهم موفورة ، وقواهم مستجمعة ، وقيل يأخذهم بالعذاب فى أسفارهم وتقلبهم فى الأرض « فما هم بمعجزين » أى بفائتين من العذاب بسبب ضربهم فى البلاد البعيدة ، بل يدركهم الله حيث كانوا .. وقيل يأخذهم الله بالعذاب بالليل والنهار ، وفى حال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم .وقيل: إنه تعالى يأخذهم فى حال تدبيرهم واحتيالهم

فيحول الله بينهم وبين تلك الحيل ، وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى : وقلبوا لك الأمر ، فإنهم إذا قلبوها فقد تقلبوا فيها .

اللون الرابع من العذاب ماذكره الله تعالى فى قوله : « أو يأخذهم على تخوف » ، وفى تفسير التخوف قولان :

الأول : التخوف تفعل من الخوف ، يقال: خفت الشيء وتخوفته ، والمعنى أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أولا بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم ، وتلك الإخافة هو أنه تعالى يهلك قرية فتخاف التى تليها أن يأتيهم العذاب .

والثانى : التخوف بمعنى التنقص أى أنه تعالى يتنقصهم شيئاً بعد شيء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا ، من تخوفه إذا تنقصه ، روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال : ما تقولون فى هذه الآية ؟ فسكتوا فقال شيخ من هذيل : لغتنا: التخوف التنقص ، فقال عمر : هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال نعم فقال عمر : عليكم بديوانكم ، قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم ... « إن ربكم » أى المحسن إليكم بإهلاك من يريد وإبقاء من يريد « لرؤوف » معناه بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بنوع وسيلة وكذا من قاطعه أتم مقاطعة « رحيم » أى حيث لم يعاجلهم بالعذاب ، ولما خوف سبحانه وتعالى المشركين بالأنواع الأربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال الأرواح والأجسام ، ليظهر لهم أنه مع كمال هذه القدرة القاهرة والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن إيصال العذاب إليهم على أحد تلك الألوان الأربعة بقوله تعالى : « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء » أى من الأجرام التى لها ظل كشجر وجبل « تتفيأ » أى تتميل « ظلاله عن اليمين والشمائل » جمع شمال أى ترجع الظلال من جانب إلى جانب ، متقاربة غير ممتنعة عليه فيما يسخرها الله له ، وقال قتادة والضحاك : أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخره لأن الشمس وقت طلوعها إلى وسط الفلك يقع الإظلال فى الجانب الغربى ، فإذا انحدرت الشمس من وسط الفلك إلى الجانب الغربى وقع الإظلال فى الجانب الشرقى ،

والسبب فى ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمال بصيغة الجمع أنه وحد اليمين والمراد الجمع ،ولكنه اقتصر فى اللفظ على الواحد كقوله تعالى: ويولون الدبر وقال : الفراء: كأنه إذا وحد ذهب إلى واحد من ذوات الظلال فإذا جمع ذهب إلى كلها ، وذلك لأن قوله : « إلى ما خلق الله من شىء » لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مر فيحتمل كلا الأمرين .. وقيل : العرب إذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى : وجعل الظلمات والنور.. وقوله تعالى : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم . والهمزة للاستفهام وهو استفهام إنكار، أى ليتدبروا أمثال هذه المشاهد ، فما بالهم لم يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره « سجدا لله » حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهد، و راكع وركع ، واختلف فى المراد فى السجود على قولين :

أحدهما : أن المراد منه الاستسلام والانقياد ، يقال: سجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب ، وسجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل .

والثانى : أن هذه الظلال واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد ،فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ ، وكان الحسن يقول : أما ظلك فيسجد لربك وأما أنت فلا تسجد لربك بئس ما صنعت . وعن مجاهد : ظل الكافر يصلى وهو لا يصلى . وقيل : ظل كل شىء يسجد لله سواء كان ذلك الشىء ساجداً أم لا ، وقال الرازى : والأول أقرب إلى الحقائق العقلية ، والثانى أقرب إلى الشبهات الظاهرة ..« وهم داخرون » أى صاغرون حال أيضاً من الظلال ، وقيل : حال من الضمير المستتر فى سجداً فهى حال متداخلة ، والظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون ؟ أجيب بأنه تعالى لما وصفها بالطاعة والامتثال أشبهت العقلاء، أو أن فى جملة ذلك من يعقل فغلب ، ولما حكم على الظلال بما يعم أصحابها من جماد وحيوان ، وكان الحيوان أشرف من الجماد، جعل الحكم شاملا له ولم يجعل الحكم إليه بخصوصه فقال: «ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض» وقوله تعالى : « من دابة » يجوز أن يكون بيانا لما فى السموات والأرض جميعا ، على أن

فى السموات خلقا لله يدبون فيها كما تدب الأناسى فى الأرض ، وأن يكون بيانا لما فى الارض وحده ، ويراد بما فى السموات الخلق الذى يقال له الروح، وأن يكون بيانا لما فى الأرض ويراد بما فى السموات الملائكة ، وكرر ذكرهم بقوله تعالى : « والملائكة » خصوصا من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم ، ويجوز أن يراد بما فى السموات ملائكتها أو المراد بقوله تعالى : «والملائكة» ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم، وسجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد ؟ قيل : إن المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم انقيادهم بإرادة الله تعالى وأنها غير ممتنعة عليه ، وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد. ولم يجىء بـ(من) بدلا من(ما) تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم ،لأنه لو جىء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة ، فجىء بما هو للعقلاء وغيرهم إرادة للعموم « وهم » أى الملائكة ، ويصح أن يكون الضمير عائداً إلى « ما » فى قوله تعالى : « ما فى السموات» «لا يستكبرون» عن عبادته ، ثم علل تخصيصهم بقوله تعالى - دلالة على أنهم كغيرهم فى الوقوف بين الخوف والرجاء « يخافون ربهم » أى الموجد لهم المدبر لأمورهم المحسن إليهم خوفا مبتدأ « من فوقهم » والمراد علو الخوف عليهم وغلبته لهم ،أو أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم ،أو يخافون وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » ، وقوله تعالى : « وإنا فوقهم قاهرون » . والجملة حال من الضمير فى « لا يستكبرون » ، أو بيان له ، وتقدير الكلام لأن من خاف الله لا يستكبر عن عبادته « ويفعلون ما يؤمرون » أى من الطاعة والتدبير ، وفى ذلك دليل على ان الملائكة مكلفون ، يشملهم الأمر والنهى والوعد والوعيد كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف والرجاء كما مرت الإشارة إليه ،وأنهم معصومون من الذنوب لأن قوله تعالى : « وهم لا يستكبرون » يدل على أنهم منقادون لخالقهم ، وأنهم ما خالفوا فى أمر من الأمور، كما قال تعالى : « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

وبهذا ينتهى الربع الثانى من سورة النحل الذى تضمن من الأصول الجليلة ما يلى :

١ — بيان عاقبة المتقين فى الدنيا والآخرة ، وجنات النعيم التى أعدت لهم ثوابا من عند الله وبشرى الملائكة لهم عند موتهم ، وبعثهم وجزائهم وعند دخولهم الجنة .

٢ — إنذار المشركين والمناوئين لرسالة نبى الإسلام بالعذاب الشديد جزاء شركهم وكفرهم

٣ — الرد على المشركين فى معاذيرهم الباطلة وحججهم الواهية وفى إلقائهم مسئولية شركهم على الله

٤ — الله عز وجل بعث فى كل أمة رسولا ، فآمن به بعض وكفر آخرون ، ومصارع الكافرين ماثلة للعيان أمام المشركين والمكذبين .

٥ — الرد على منكرى البعث والجاحدين به والمتشككين فيه وبيان أنهم سوف يعلمون علم اليقين فى الآخرة مما لا يبقى معه مجال للشك والريبة ، وقدرة الله القادر على كل شىء لا يعجزها البعث ولا شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٦ — بيان فضل المهاجرين ورضاء الله عنهم وثوابه لهم فى الدنيا والآخرة ، جزاء عملهم وصبرهم وتوكلهم على الله .

٧ — رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليست بدعا من الأمر ، وقد أرسل إليه كما أرسل إلى الذين من قبله . وللقرآن نظير فى الكتب السماوية السابقة .

٨ — تهديد المشركين وإنذارهم بالعذاب الشديد والوبال الأليم ، والله قادر على إهلاكهم كما قدر على خلقهم وله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة وهم لا يستكبرون .

خاتمة هذا الجزء

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد : فهذه هى نهاية الجزء الثالث عشر من تفسيرى للقرآن الكريم ، المسمى « تفسير القرآن الحكيم » ، وقد تضمن تفسير سورة الرعد وسورة إبراهيم وسورة الحجر والربعين الأولين من سورة النحل .

وسوف يتلوه بإذن الله تعالى الجزء الرابع عشر ، وأوله تفسير باقى سورة النحل من مطلع الربع الثالث فيها ، وهو قوله تعالى : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون » ، وسيتناول الجزء الرابع عشر عدا باقى سورة النحل تفسير سورة الاسراء وسورة الكهف ومن الله التوفيق ، وإليه أتضرع طالبا عفوه وغفرانه إنه ولى الصابرين ، وعليه فليتوكل المتوكلون . . وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف

فهرست الجزء الثالث عشر

استـــدراك

ص ١٩٦ بعد السطر ١٧ سقط قوله تعالى :

« حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »

ص ١٩٦ سطر ٢٠ : ماو — وصحتها : وما .

للمؤلف

قصـــة الأدب فى مصر - ٥ أجزاء

« « الأندلس - ٥ «

« « المعاصر - ٥ «

ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة

الحيـاة الأدبيـة فى العصر الجاهلى - طبعة ثانية ٤١٠ «

الشـعر والتجـديد

مواكب الحرية فى مصر الإسلامية

فى ظلال الإسلام - بالاشتراك

التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر

تفسير القرآن الحكيم - ٣٠ جزءاً - ظهر منه ١٣ جزءاً

توزيع مؤسسة المطبوعات الحديثة
٣ شارع ماسبيرو بالقاهرة

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ ت : ٥٠٨٥٢

ص
٤٥